المناهج الحديثة في كتابة سيرة الرسول ﷺ:
دراسة مقارنة بين 'على هامش السيرة' و'عبقرية محمد'

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

(نسخة منقحة)

قدمها

أنوركويامبرون

تحت إشراف

الدكتورزين الدين ب. ت

الأستاذ المشارك، قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كلية تونجن التذكارية الحكومية، ترور

جامعة كاليكوت

٢٠٢٣

المحتويات

المقدمة ١

الباب الأول: كتابة السيرة عند المتقدمين والمتأخرين ٢٠

الفصل الأول: منشأ السيرة وتطورها

الفصل الثاني: كتابة سيرة الرسول ﷺ عند المتقدمين

الفصل الثالث: كتابة سيرة الرسول ﷺ عند المتأخرين

الباب الثاني: كتابة سيرة الرسول ﷺ في العصر الحديث ٩٦

الفصل الأول: ملامح كتابة سيرة الرسول ﷺ في العصر الحديث

الفصل الثاني: المدارس والمنا هج في كتابة سيرة الرسول ﷺ في العصر الحديث

الفصل الثالث: القضايا الإنسانية والتربوية في كتابة سيرة الرسول ﷺ

الباب الثالث: المناهج الحديثة في كتابة سيرة الرسول ﷺ في مصر ١٨٠

الفصل الأول: عوامل تطور كتابة سيرة الرسول ﷺ في مصر

الفصل الثاني: المناهج الحديثة في كتابة سيرة الرسول ﷺ في مصر

الباب الرابع: أعمال و أفكار طه حسين وعباس محمود العقاد ٢٢١

الفصل الأول: القرن العشرون والحركة الفكرية العربية

الفصل الثاني: حياة طه حسين وجدل الفكر العربي

الفصل الثالث: عباس محمود العقاد الكاتب العبقري

الباب الخامس: مقارنة بين مناهج كتاب 'على هامش السيرة' و'عبقرية محمد' ٣٠٠

الفصل الأول: 'على هامش السيرة ' والمنهج الأدبي في سيرة الرسول ﷺ

الفصل الثاني: 'عبقرية محمد' والمنهج العلمي في سيرة الرسول ﷺ

الفصل الثالث: مقارنة بين 'على هامش السيرة' وعبقرية محمد'

الخاتمة ٤٠٢

النتائج ٤٠٩

التوصيات ٤١٢

المصادر والمراجع ٤١٣

ملخص الأطروحة المعنونة

بالمناهج الحديثة في كتابة سيرة الرسول ﷺ:

دراسة مقارنة بين 'على هامش السيرة' و'عبقرية محمد'

"السيرة "هو المصطلح العربي المستخدم لكتابة حياة الرسول (ﷺ) ، والتي استنبطت منها معظم المعلومات التاريخية عن حياته والفترة المبكرة للإسلام وفي العلوم الإسلامية يتضمن أدب السيرة مجموعة متنوعة من المواد مثل المعاهدات السياسية ، والتجنيد العسكري، وتكليفات المسؤولين، وما إلى ذلك التي سجلتها الأجيال المتعاقبة من الرواة. وقد تم جمع السيرة النبوية من تقارير فعله وهي أيضا مسجّلة في شكل الحديث، ومع ذلك فإن أدب السيرة يختلف من الناحية الفنية عن أدب الحديث، كما هي بشكل عام غير معتنية بالتحقيق من خلال سلسلة من الأسانيد، على الرغم من أن أقدم السيرة و عديدا من الروايات مصحوبة بالأسانيد.

وهذه الدراسة تتضمن على خمسة أبواب ومقدمة وخاتمة ونتائج. الباب الأول كتابة السيرة عند المتقدمين والمتأخرين . والباب الثاني كتابة سيرة الرسول ﷺ في العصر الحديث والباب الثالث المناهج الحديثة في كتابة سيرة الرسول ﷺ في مصر. الباب الرابع أعمال وأفكار طه حسين وعباس محمود العقاد. الباب الخامس مقارنة بين 'على هامش السيرة' و'عبقرية محمد'.

وقد مرت بكتابة السيرة مراحل، وهي كتابة السيرة عند المتقدمين، وكتابة السيرة عند المتأخرين وكتابة السيرة في العصر الحديث. ثم إن المتقدمين ينقسمون إلى طبقات. وسيرة ابن إسحاق هو أقدم كتب السيرة ، وقد كتب بعد 150 عامًا من وفاة الرسول ﷺ تقريبا . وصفحاتها مجموعة في سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري. أبان بن عثمان و عروة بن الزبير بن العوام والواقدي من أشهر كتاب السيرة من المتقدمين.

وفي زمن الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى بدأت السيرة تنتج على نطاق واسع. هذا أدى إلى إدخال نوع أدب جديد: قاموس السيرة. تم كتابة أول قاموس للسيرة في العالم الإسلامي في القرن التاسع. وقد ركز أول قاموس السيرة على حياة الأنبياء وأصحابهم، و أقدم الأمثلة على ذلك 'كتاب الطبقات الكبرى' لابن سعد. شهد الأدب العربي الحديث تطوراً ملموسا في أدب السيرة ، وقد كتب معظم رواد الأدب العربي عن الرسول ﷺ وحياته، وساهمت مصر بكمية وافرة في كتابة السيرة في هذا العصر. رشيد رضا وتوفيق الحكيم وشوقي ضيف وعائشة بنت الشاطئ وطه حسين و عباس محمود العقاد من الكتاب البارزين في مصر. واستخدم هؤلاء الكتاب مناهج متنوعة في كتابتهم، والمنهج العلمي والمنهج الأدبي صارا عدة الكتاب في هذا العصر.

طه حسين وعباس محمود العقاد أديبان مصريان معاصران ولدا في نهاية القرن التاسع عشر عام 1899، وتوفيا في النصف الثاني من القرن العشرين. و ساهما في إثراء اللغة العربية وآدابها في العصر الحديث، واضطلعا في مجال الصحافة والسياسة حتى تمكن عندهما الأفكار المرهفة والآراء السائدة. وكتبهما متفرقة بين أدب ونقد ودراسة وتاريخ.

وكتاب 'على هامش السيرة' لطه حسين محاولة للكشف عن جانب معين من حياة الرسول ﷺ ، وابتعد الكاتب عن الطريقة المحافظة في كتابة السيرة، و استخدم المنهج الأدبي . ولم يسهب جميع أحداث السيرة من ولادة الرسول ﷺ إلى وفاته، بل اختار طه حسين بعض الأحداث من السيرة وألبسها ثوب القصة مشفوعا بخياله. و كتاب 'عبقرية محمد' لعباس محمود العقاد يعرض ويحلل بعض جوانب حياة الرسول ﷺ . بدلا من إلقاء الضوء على جميع الحوادث التي وقعت في حياة الرسول ﷺ أراد العقاد الدفاع عن الرسول ﷺ من التهم ، واستخدم العقاد أسلوبًا علميا تحليليًا.

'على هامش السيرة' كتاب في ثلاثة أجزاء، نُشر الجزء الأول منه سنة 1933 على شكل رواية قصيرة. بأسلوب ممتع راق. وكتبه طه حسين على صورة قطعة من الأدب، كما لعب دور المؤرخ والباحث في هذا الكتاب.

و 'عبقرية محمد' كتاب صغير بالنسبة إلى كتاب 'على هامش السيرة'، نشر سنة 1942، والكتاب محاولة لتحليل حياة الرسول ﷺ ، ولا سيما في النقاط المشكوكة التي رفعها المستشرقون وأعداء الإسلام. الكتاب ليس سردًا لسيرة الرسول ﷺ، وليس هو تفسيرًا للإسلام وأحكامه. وهو واحد من سلسلة من العبقرية الإسلامية للعقاد التي تشمل سبعة كتب في هذا العنوان.

كتاب 'على هامش السيرة' وكتاب 'عبقرية محمد' يتفقان في نقاط ويختلفان في أخرى. واستخدم طه حسين في كتاب 'على هامش السيرة' الأسلوب الأدبي القصصي، إذ استخدم العقاد في كتابه 'عبقرية محمد' المنهج العلمي التحليلي. والكتابان لم يعرضا أحداث السيرة من ألفها إلى يائها كما تعوده الكتاب السابقون، بل اختارا جزءا منها لتحقيق دوافعهما من تأليف الكتاب. طه حسين قصد أن يعلم العالم بأ ن في العربية شيئ يقرأ، وأراد أن يزيل التهمة عنه إثر نشر كتابه 'في الشعر الجاهلي'. أما العقاد فأراد إزالة التهمة عن شخصية الرسول ﷺ.

واستقا مادة السيرة من كتب السيرة القديمة مثل سيرة ابن إسحاق و طبقات ابن سعد وتاريخ الطبري. وأشارا إلى المراجع في بعض الأماكن بطريق مختلفة. وأتى العقاد بآيات قرآنية وأحاديث الرسول ﷺ في مواضع كثيرة ، وهذا الاتجاه في كتاب ' على هامش السيرة' قليل. وقد تعرض الكتابان لنقد لاذع من قبل علماء الدين في أسلوب إلقاء أحداث السيرة. وعلى الرغم من النقد و اختلاف المناهج إنّ كتابي 'على هامش السيرة' و'عبقرية محمد' وجدا الطريق إلى القراء وتمكن في إرساء حب الرسول ﷺ في نفوسهم.

مقدمة البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

هذه أطروحة بحث أكادمي على مستوى الدكتوراه في الأدب العربي، تم إعدادها للتقديم إلى جامعة كاليكوت. وهي نتيجة دراسة في مؤلفات سيرة الرسول صلى الله، وتبحث عن صياغة الحقائق التاريخية في سيرة الرسول مستخدما مناهج متعددة في العصر الحديث مع التركيز على كتابين 'على هامش السيرة لطه حسين' و'عبقرية محمد' لعباس محمود العقاد.

١. تحليل العنوان

عنوان هذا البحث المناهج الحديثة في كتابة السيرة الرسول ﷺ: دراسة مقارنة بين على 'هامش السيرة' و'عبقرية محمد'.

وهنا تحليل موجز للكلمات الواردة في العنوان

مناهج: وهي جمع منهج من نهج ينهج بمعنى الطريق، والمنهج في الأدب هو الطريق الذي يختاره الكاتب في الكتابة. ككتاب'البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث' ل د. سيد البحراوي.

حديثة: من حدث يحدث من نصر ضد قدم. وهي صفة المناهج، والمراد هنا العصر الذي يبدأ مع القرن الثامن عشر، ويشتمل القرن التاسع عشر والعشرين.

كتابة: من كتب يكتب كتابة، وهو هنا النثر لا الشعر، كما يشير أبو الهلال العسكري، (الصناعتين، الكتابة، والشعر)

السيرة: سار يسير سيرة، وهي قصة حياة إنسان فرد ترك من الأثر في الحياة ما جذب إليه التاريخ، يقول الجرجاني " السير جمع سيرة وهي الطريقة سواء كانت خيرا أو شرا، يقال "فلان محمود السيرة، فلان مذموم السيرة"[١] وفي لسان العرب "السيرة هي السنة، والسنة هي الأمر السائر بالناس، والسيرة بمعنى الهيئة وقول الله تعالى: (سنعيدها سيرتها الأولى) أي هيئتها. وسيّر سيرة أي حدّث أحاديث الأوائل"[٢]

[١] الجرجاني، علي بن محمد السيد الشريف. معجم *التعريفات*.القاهرة: دار الفضيلة. ص ١٠٦.
[٢]ابن منظور. *لسان العرب*. ج٤. بيروت: دار الصادر. ١٩٦٨. ص ٣٨٩.مادة سيرة.

دراسة: مصدر من درس يدرس "درس الكتاب يدرسه درسا ودراسة" والمعنى قرأ الكتاب وفهم معانيه، المراد بالدراسة في البحث هو دراسة موضوعية تحليلية فنية نقدية.

مقارنة: صفة دراسة، على وزن مفاعلة من قرن يقرن من باب ضرب، " وقرنت الشيئ بالشيئ وصلت به" أي جعل بينهما وصلا وعلاقة. يقال قارن الشيءُ الشيئ مقارنة وقرانا جعل كلا منهما مصاحبا للآخر، والمقارنة المقايسة بين الشيئين أو أكثر في وجه الشبه والاختلاف فيما بينها، والمقارنة في النقد الأدبي هي تفتيش الأعمال الأدبية واكتشاف الوصلات بين عملين أو مؤلفيهما، كما يقال هذه الدراسة تقارن بين أعمال جبران خليل جبران ومصطفى لطفي المنفلوطي.

على هامش السيرة: كتاب ألفه طه حسين الأديب والكاتب المصري في صورة قصة، وبين فيه بعض أحوال أهل مكة قبل بعثة الرسول ﷺ وبعدها، وأحداث هامة جرت في عصر الرسول ﷺ.

عبقرية محمد: كتاب ألفه عباس محمود العقاد، الكاتب المصري، يرد الكاتب فيه المعارضين على شخصية الرسول ﷺ، واتخذ فيه الأسلوب العلمي التحليلي.

٢. إطلالة على الموضوع:

'سيرة الرسول' ﷺ هو المصطلح العربي المستخدم للتعبير عن حياة الرسول ﷺ، والتي استنبط منها معظم المعلومات التاريخية عن حياة الرسول ﷺ والفترة المبكرة للإسلام. ويتضمن أدب السيرة مجموعة متنوعة من المواد العلوم الإسلامية مثل المعاهدات السياسية، والتجنيد العسكري، وتكليفات المسؤولين. وقد تم جمع سيرة الرسول ﷺ من تقارير أفعاله، وهي أيضا مسجّلة في شكل حديث، ومع ذلك فإن أدب السيرة يختلف من الناحية الفنية عن أدب الحديث، لأنها لم تعتن التنقيح والتحقيق في الأسانيد، على الرغم من أن العديد من روايات السيرة مشفوعة بالأسانيد.

يعتبر كتاب 'سيرة الرسول ﷺ' لابن إسحاق أقدم كتاب في السيرة، ألفه بعد مرور ١٥٠ عامًا من وفاة النبي ﷺ. واستنسخ مضمون كتاب ابن إسحاق كل من ابن هشام وابن جرير الطبري في كتابيهما. وقد لعب الواقدي دورا بارزا في كتابة السيرة، إذ أنه يعد من الرواد الأوائل في هذا الميدان، وهناك بعض الكتاب الذين حاولوا كتابة السيرة النبوية قبل ابن إسحاق، منهم عروة بن الزبير بن العوام. غير أن أعمالهم لم تكتمل، ولم تنشر.

وألفت السيرة في زمن إزدهار الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، في نطاق واسع مع ظهور الأوراق. فدخل نوع جديد في أدب السيرة؛ قاموس السيرة. تم كتابة أول قاموس للسيرة في القرن التاسع الميلادي. وقد ركز أول قاموس السيرة على حياة الأنبياء وأصحابهم، وأقدم الأمثلة على ذلك 'كتاب الطبقات الكبرى' لابن سعد. ويلي بعدها 'الشفاء' للقاضي عياض، و'المواهب اللدنية' للقسطلاني.

شهد الأدب العربي الحديث تطورا مذكورا في كتابة السيرة، معظم رواد الأدب العربي في هذا العصر كتبوا عن الرسول ﷺ، من بينهم رشيد رضا، وتوفيق الحكيم، وشوقي ضيف، وعائشة بنت الشاطئ، ومحمد سعيد رمضان البوطي، ومحمد الغزالي، وسعيد حوى، ومحمد علي الصلابي، وأبو زهرة، وأبو الحسن علي الندوي، وطه حسين، وعباس محمود العقاد.

احتضن الأدب العربي الحديث السيرة، وقدرة الأدب في بعث المشاعر وتحريكها حفظت السيرة من الإهمال والضياع، وهذا أسفر عن وقوع الإئتلاف والتفاعل بين السيرة والأدب، واتفق في العصر الحديث للسيرة العنصران الأساسيان من العمل الأدبي هما؛ التجربة الشعورية، والعبارة الموحية عن هذه التجربة. وهذه التجربة والعبارة هما المكونة الحقيقيّة للسيرة في الأدب الحديث. ويعتبر كتاب 'نهاية الإيجاز في ساكن الحجاز' لرفاعة الطهطاوي أول كتاب في السيرة يظهر فيه

الأسلوب الأدبي، والذين جاءوا بعده من المبدعين انتهجوا منهجه في اتخاذ الألوان الأدبية في كتابة السيرة.

وكتاب 'على هامش السيرة' لطه حسين محاولة للكشف عن جانب معين من حياة الرسول ﷺ، واستخدم فيه الكاتب طريقة أدبية وتجنب الطريقة المتبعة في هذا المجال. وكتاب 'عبقرية محمد' لعباس محمود العقاد تحليل لحياة الرسول ﷺ، بدلا من إلقاء الضوء على جميع الأحداث التي وقعت في حياة الرسول ﷺ يركز المؤلف على الدفاع عن الرسول ﷺ من اتهامات المعارضين، واستخدم أسلوبا تحليليا علميا.

٣. **طبيعة البحث**:

وهذا البحث يقوم بتحليل ماهية كتابة السيرة من مرحلتها الأولى إلى العصر الحديث، ويعرض عرضا بسيطا الكتب المشهورة ومؤلفيها في البداية، كما يقوم البحث ببيان مصير كتابة السيرة في العصر الحديث، وما طرأ فيها من تجديد وتحسين بأيدي الكتاب المهرة النابغين، ويتحلل البحث العوامل التي أثرت فى إعادة كتابة سيرة الرسول ﷺ، والدوافع التي أدت إلى صياغتها في أسلوب جديد، منهج غير مسبوق، وأيضا يقدم وصفا موجزا لبعض الكتب التي ألفت في العصر الحديث من بدايتها حتى الوقت الراهن.وتأتي في نهاية البحث مقارنة بين كتاب 'على هامش السيرة' و'عبقرية محمد'

٤. الدراسات السابقة في الموضوع:

وقد دارت الدراسات وأجريت البحوث وألفت كتب كثيرة حول طه حسين وعباس محمود العقاد، وعن كتابيهما' على هامش السيرة' و'عبقرية محمد'. وكما عقدت البحوث الأكادمية عرضا وتحليلا للكتابين، ومن هذه المؤلفات:

أ. كتاب فاروق خور رشيد وأحمد كمال زكي، باسم 'محمد في الأدب المعاصر' نشر سنة ١٩٥٩، وقد قسم الكاتبان الكتاب إلى قسمين، اختار فاروق خور رشيد أربعة كتب، هي: عبقرية محمد للعقاد، ومسرحية محمد لتوفيق الحكيم، و'محمد الرسالة والرسول' لنظمي لوقا و'على هامش السيرة' لطه حسين،

ب.'إسلاميات' لسامح الكريم

ت.ومحمد حامد الحضيري قدم رسالة دكتوراه سنة ١٩٧٨، باسم "السيرة النبوية في الأدب العربي الحديث". وفيه خمسة فصول، في الفصل الأول تكلم عن "مصادر سيرة الرسول" وذكر ثلاث كتب مشهورة في السيرة: سيرة ابن هشام، وتاريخ الطبري، وطبقات ابن سعد. والفصل الثاني "إحياء السيرة النبوية في التاريخ والأدب" اقتصر الكاتب بدراسة أعمال لأدباء

وشعراء في مصر، مثل محمج حسين هيكل وعباس محمود العقاد ومحمد عبد الله السمّان. والفصل الثالث "السيرة النبوية في الأدب القصصي" جعله الحضيري مسرحا لذكر طه حسين، ووعبد الحميد جودة السحار، وعبد الرحمن الشرقاوي.

ولم أجريت دراسة مقارنة بين منهج هذين الكتابين من وجهةأدبية وتاريخية على حد معرفة الباحث.

٥. دو افع البحث:

اختار الباحث هذا الموضوع للبحث بدوافع بحثية وفكرية في تقديم أطروحة حول المناهج الحديثة في كتابة السيرة. وهناك علاقة بين التاريخ والأدب السردي حتى يعد التاريخ من الأدب بمعناه العام. وإذا كُتب التاريخ بأسلوب فني بعيدا من أسلوبه الجامد الجاف زاده جمالا، ويتقرب من الأدب أكثر. وهذه الظاهرة لا يخلو منها تاريخ المجتمع الإسلامي الذي يشتمل على سيرة الرسول ﷺ

والباحث حينما كان طالبا في مرحلة الباكالوريا في اللغة العربية كانت المقررات الدراسية تتضمن على كتاب 'نور اليقين' للشيخ محمد الخضري بك، وقد راق الباحثَ أسلوب بيانه، مخالفا لما قرأه من سيرة الرسول في المرحلة الابتدائية، وفي أثناء ذلك سنح له الفرصة لقراءة بعض الفصول المترجمة من كتاب 'على هامش السيرة' في اللغة المحلية، وحينما كان الباحث دارسا في الجامعة الإسلامية

بعليكرة في مستوى الماجستير، واتفق أن كان الأدب العربي في الهند من المقررات الدراسية، وهذا أتاح له الفرصة بالإلمام عن كتاب 'السيرة النبوية' لصاحبه أبو الحسن علي الحسني الندوي، وبعث فيه الشوق لقراءة من مزيد من كتب السيرة. وحينما كان الباحث مدرسا في الكلية العربية، كان من مسؤوليته تدريس 'نور اليقين' للشيخ محمد الخضري بك، و'فصول في سيرة الرسول ﷺ' لابن كثير الدمشقي، وإضافة إلى ذلك اطلع أثناء ذلك كتاب 'الرحيق المختوم' لصفي الرحمن المباركفوري، و'عبقرية محمد'ﷺ لعباس محمود العقاد، و'على هامش السيرة' لطه حسين وهذه الأعمال كلها أوجدت في الباحث دافعا بأن كتب سيرة الرسول ﷺ تستحق دراسة أكادمية جادة من اشتمالها على المناهج الحديثة المختلفة،التي جمعت بين علمية التاريخ وأدبية السرد.

٦. مشكلة البحث:

ويتركز البحث على اكتشاف المعلومات المعتمدة عن المسائل الآتية:

أ. نشأة كتابة السيرة وتطورهاعبر العصور

ب.أهمية كتب السيرة في التاريخ الإسلامي، ومدى اعتناء العلماء والكتاب بها

ت.ضرورة تنقية كتابة السيرة من الإسرائيليات والقصص الواهية

ث.الفروق بين المتقدمين والمتأخرين في تقديم أحداث سيرة الرسول ﷺ

ج. النقطة الأساسية التي تختلف كتب المتقدمين من المتأخرين

ح. العوامل التي ساعدت انتشار أساليب ومناهج جديدة في الأدب العربي الحديث

خ. تأثير مناهج الكتابة الحديثة في كتابة سيرة الرسول ﷺ

د. النزعات النفسية والعوامل الاجتماعبة التي دفعت إلى كتابة السيرة في مناهج حديثة

ذ. أهمية كتاب 'على هامش السيرة' و'عبقرية محمد' في دراسة السيرة

ر. مميزات منهج وأسلوب كتاب 'على هامش السيرة'

ز. مميزات منهج وأسلوب كتاب 'عبقرية محمد'

س. الاختلاف والائتلاف بين منهج وأسلوب كتابي 'على هامش السيرة' و'عبقرية محمد' ﷺ في تقديم أحداث السيرة

ش. استفادة المجتمع الإسلامي والقراء العرب من هذين الكتابين

ص. النتائج الإيجابية والسلبية لهذين الكتابين

٧. خطة البحث:

وهذه الأطروحة تشتمل على خمسة أبواب ومقدمة وخاتمة ونتيجة، وكل أبواب تشتمل على فصول، وكل فصول تشتمل على عناوين جانبية حسب الحاجة

الباب الأول كتابة السيرة عند المتقدمين والمتأخرين، محاولة بسيطة لإبراز مفهوم السيرة، وبيان ما ألف في سيرة الرسول ﷺ حتى العصر الحديث، وهذا يتم في ثلاثة فصول.

الفصل الأول منشأ السيرة وتطورها، ومن عناوينه الجانبية، معنى الكلمة، وأدب أم تاريخ، وسيرة أم ترجمة، ومصادر السيرة النبوية، وكما تشير العناوين إن هذه الفصول تبين تعريف كلمة السيرة واندماج السيرة بالتاريخ، وهو أيضا يبحث الفرق بين كلمة الترجمة والسيرة، إذ جرت أقلام كثير من الكتاب مثل استعمال كلمة الترجمة والسيرة بمعنى واحد، والترجمة تاريخ شخص موجز والسيرة تاريخه المسهب، والفصل فيه بيان عن مصادر سيرة الرسول ﷺ، منها مصادر أصلية ومصادر تكميلية، والقرآن هو أهم مصدر السيرة.

والفصل الثاني كتابة سيرة الرسول ﷺ عند المتقدمين، ومن عناوينه الجانبية، أهمية سيرة الرسول ﷺ، ورواية السيرة، ودوافع المسلمين للاهتمام بسيرة الرسول ﷺ، وبداية التأليف في سيرة الرسول ﷺ، ورجال الطبقات الأولى من كتّاب السيرة، ويأتي تحت هذا العنوان أسماء المشهورين من كتّاب السيرة مع

ذكر مؤلفاتهم، وبعده يأتي عنوان مميزات المؤلفات في السيرة في البداية بإشارة خاصة إلى كتاب ابن جرير الطبري.

وباعتبار الرسول ﷺ قدوة المسلمين في حميع العصور، إنّ كتّاب السيرة قاموا بجمع أفعاله وسيره، وطائفة صنّفوا فيها بصورة الحديث متصلا بالأسانيد، وطائفة رووها بدون سند وجمعوها، والذي جمع بدون الأسانيد المسمى بكتب السيرة صار مرجعا للمحدثين، والمؤرخين، لأنه كان من الذين رووا السيرة من عاصروا زمن الخلافة، وهكذا تظهر ميزة السيرة.

الفصل الثالث كتابة سيرة الرسول ﷺ عند المتأخرين، وفيه أيضا عناون مثل منهج المتأخرين في كتابة السيرة، ثم يبان لكتب السيرة في هذه المرحلة المهمة، وهذه المرحلة حسب التقسيم يمتد إلى العصر الحديث، وهذا الباب بجملتها قنطرة لربط كتابة السيرة بالعصر الحديث، وبالمقارنة بالمرحلة التي قبلها نالت سيرة الرسول ﷺ في هذه المرحلة تطورا، وتوسعا إلى ما يسمى الموسوعة في السيرة.

الباب الثاني كتابة سيرة الرسول ﷺ في العصر الحديث، وقد تم تقسيمها إلى ثلاثة فصول، الفصل الأول ملامح كتابة سيرة الرسول ﷺ في العصر الحديث، والفصل الثاني المدارس والمناهج في كتابة سيرة الرسول ﷺ في العصر الحديث، والفصل الثالث القضايا الإنسانية والتربوية في كتابة سيرة الرسول الله صلى الله عليه وسلم.

الفصل الأول يشتمل على عناوين، منها مرحلة جديدة، دور التصحيح والنتقيح، والبداية والأعلام، ويحتوي هذا الفصل ذكر أهم الكتب والمؤلفين في العصر الحديث.

والفصل الثاني يشتمل على عناوين، مثل تنوع المنهجية في كتابة السيرة، المنهج الأدبي في سيرة الرسول ﷺ في مصر، وبيان عوامل ظهور صورة جديدة في السيرة، وهذا الفصل إتمام وبيان للفصل الأول من هذا الباب ومدخل إلى الباب الخامس.

الفصل الثالث يبين بعض القضايا التي قدمتها كتب السيرة في العصر الحديث، ومنذ بداية كتابة السيرة حتى العصر الحديث كانت سيرة الرسول ﷺ تتبع إما منهج السردي وإما منهج التاريخي وتسرد حوادث السيرة من البداية إلى النهاية، لايلتفت إلى تحليل ولا تجريد أحكام إلا ما كان عند المتأخرين قليلا. أما في العصر الحديث وقد استقلت كتب السيرة لبيان جانب أو جوانب من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم. وانطلاقا من هذا بيّن الباحث في هذا الفصل أخلاق الرسول ﷺ، والمنهج التربوي في سيرة الرسول ﷺ والاتجاه السياسي في سيرة الرسول ﷺ كما جاءت تلك القضايا في كتب السيرة.

الباب الثالث المناهج الحديثة في كتابة سيرة الرسول ﷺ في مصر. وفيه فصلان، الفصل الأول عوامل تطور كتابة سيرة الرسول ﷺ في مصر، والفصل الثاني المناهج الحديثة في كتابة سيرة الرسول ﷺ في مصر. صارت مصر مهد الأدب العربي في العصر الحديث لاسيما في الأدب الإبداعي، وتنوعت طرق الأدب والكتابة بما يسر لها من النهضة بعوامل، وشمل هذا التنوع السيرة أيضا، وكتابان اللذان تم الاختيار عليهما للبحث هما من مؤلفات الأديبان مصريان، طه حسين وعباس محمود العقاد. وهذا الباب بيان لما حدث في مصر من نهضة أدبية وعواملها. والفصل الثاني يركز على بعض كتب السيرة التي اهتمت الطرق المختلفة والمنهج الجديد في تأديتها، فأفرد الباحث عنوانا جانبيا ليبان كتابي 'حياة محمد' لمحمد حسين هيكل ومسرحية 'محمد' ﷺ لتوفيق الحكيم.

الباب الرابع أعمال وأفكار طه حسين وعباس محمود العقاد وفيه ثلاثة فصول والفصل الأول القرن العشرون والحركة الفكرية العربية، والفصل الثاني حياة طه حسين وجدل الفكر العربي، والفصل الثالث عباس محمود العقاد الكاتب العبقري.

ومحور البحث كتابان ألفهما الكاتبان المصريان اللذان ولدا في نهاية القرن التاسع عشر، وعاشا في القرن العشرين، هما طه حسين وعباس محمود العقاد، ولذلك لم ير الباحث بدا من بيان الظروف الاجتماعية والسياسة التي عايشها الكاتبان، ومدى تأثيرها في حياتهما. فجاء في الفصل الأول عناون مثل الظروف السياسية والاجتماعية، المفكرون المصريون، منشأ التفكير عند طه حسين والعقاد.

والفصل الثاني وهو تفصيل لحياة طه حسين، بدلا من الإسهاب في ترجمة الحياة كما هي مطولة في كتب التراجم، ركّز الباحث على مجال العمل والأفكار والأراء لطه حسين علما منه أن أفكار الكاتب وآراءه هي الفاصلة فحوى ما يكتب، فجاء عناوين هذا الفصل، المولد والنشأة، طه حسين والكتابة، على هامش مسير الحياة، تجربة علمية، وزير التعليم، الصحفي السياسي، السياسي الصريح، طه حسين والفكر العربي، مناهضة الخصوم، طه حسين ومجمع اللغة، أسلوب طه حسين.

الفصل الثالث حياة عباس محمود العقاد، وكما فعل في الفصل الثاني اهتم الباحث لبيان الحياة الفكرية والسياسية عند العقاد، وعناوين هذا الفصل

نشأة عباس محمود العقاد وحياته، أعمال عباس محمود العقاد، معارك فكرية، عالم الفكر للعقاد، في الصحافة والسياسة، إسلاميات العقاد، أسلوب العقاد.

الباب الخامس عنوانه مقارنة بين 'على هامش السيرة' و'عبقرية محمد' ، وهذا الباب يشتمل على ثلاثة فصول،الفصل الأول 'على هامش السيرة' والمنهج الأدبي في سيرة الرسول ﷺ، والفصل الثاني 'عبقرية محمد' والمنهج العلمي في كتابة سيرة الرسول ﷺ، والباب الثالث مقارنة بين 'على هامش السيرة' و'عبقرية محمد'.

الفصل الأول هو الغاية من هذا البحث' ففيه تحليل أدبي وتاريخي لكتاب'على هامش السيرة' ومن العناوين الجانبية لهذا الفصل ثقافة طه حسين في سيرة الرسول ﷺ، محور البحث حول كتاب 'على هامش السيرة' والأحداث في كتاب 'على هامش السيرة' وأسلوب 'على هامش السيرة' وعرض أحداث 'على هامش السيرة' ونقد كتاب 'على هامش السيرة' من منظور إسلامي.

الفصل الثاني وهو أيضا من أهم جزء هذا البحث،وفيه عناوين جانبية مثل العبقرية معنى واصطلاحا، والنابغة والعبقري، فكرة العبقرية، والدوافع وراء اختيار الكلمة، والعبقرية والعقاد، ومنهج العقاد في العبقرية، وطرق مختلقة في عرض العبقرية' ومنهج العقاد في عبقرية محمد.

الفصل الثالث لخص فيه الباحث النقاط المتفقة والمختلفة عليها كل من طه حسين وعباس محمود العقاد في إلقاء مادة سيرة الرسول ﷺ، مع تلميح إلى إختلاف كتابيهما عن كتب المتقدميين من كتّاب السيرة.

٨. منهج البحث:

أما المنهج الذي اتبع الباحث في إعداد هذه الدراسة فهو يعتمد على الموازنة والمقارنة في أكثره كما يعتمد على التحليل والوصف والنقد وفقا للمقام، وقام الباحث بجمع المعلومات من المصادر مثل إسلاميات لطه حسين، وعبقريات عباس محمود العقاد. والمراجع من كتب السيرة وغيرها من الكتب المؤلفة حول السيرة. وقام بقراءة متأنية، تحليليا في كتب السيرة المختلفة من عصرها الأول إلى هذا العصر.

٩. الشكروالتقدير:

فأولا يحمد الباحث كل الحمد لله رب العالمين، الذي وفقه لإتمام هذه الدراسة البحثية بأحسن صورة وأتمها، ثم يشكر شكرا جزيلا من صميم قلبه لفضيلة الدكتور زين الدين. ب. ت، الأستاذ المشارك في قسم اللغة العربية، بجامعة كاليكوت الذي تفضل بإشرافه المتواصل لإنجاز هذا البحث وإخراجه إلى الحيّز الوجود من ألفه إلى يائه، ومما قدم من توجيهاته القيمة حتى يصل البحث إلى

تحقيق هدفه المنشود وبما بذل غاية جهده في تصحيح أخطائه وإبداء ملاحظاته في تنقيحه وتحسين نظمه على هذا البحث بإعطاء إرشادات وتوجيهات قيمة بأحسن وجه، فجزاه الله خير الجزاء، وآتاه صحة وعافية.

ويعبر الباحث عن الشكر الجزيل لجميع الأساتذة في قسم اللغة العربية في الكلية الحكومية لتذكار تونجن بترور حاليا، ولجميع الباحثين الذين ساعدوا الباحث أثناء عملية البحث، وأخيرا يشكر الباحث بعض الأشخاص البارزة والأصدقاء الخلص الذين ساعدوه في هذه المهمة مثل د. شمناد. ن، الأستاذ المشارك ورئيس القسم العربية في كلية الجامعة بترفاندرم الذي زود الباحث بإرشادات قيمة طوال هذا البحث، والأستاذ أ.ب. محي الدين كوتي، رئيس قسم العربية بجامعة كاليكوت، الذي كان عونا له لتسهيل الإجراءات اللازمة أثناء البحث، ود. عبد المجيد. إ، الأستاذ المشارك في القسم العربية بجامعة كاليكوت، وهو قام مع الباحث بمساعدة جمة، ود. عبد الجليل.ت، الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية في الكلية الحكومية لتذكار تونجن بترور، الذي ساعد الباحث بمساعدة تقنية وغيرها من المساعدة ليكون هذا البحث في صورتها المطبوعة ود. محمد راين، الأستاذ المشارك (المتقاعد) كلية سلم السلام العربية بأريكوت. وجميع الأساتذة بقسم العربية بكلية السيد بوكويا التذكارية الحكومية ببرنتلمنا، الذي كان الباحث مدرسا هناك سنوات خلال ما يجري هذا البحث.

ولا يفوت الباحث أن يذكر دور الوالدين اللذين وقفا مع الباحث قلبا وقالبا في أنشطته الدراسية منذ الصبا، وتمنيا له النجاح في كل مجاله ولا سيما في هذه المهمة، فاللهم ارحمهما كما ربياني صغيرا.

الباب الأول
كتابة السيرة عند المتقدمين والمتأخرين

- الفصل الأول: منشأ السيرة وتطورها
- الفصل الثاني: كتابة سيرة الرسول ﷺ عند المتقدمين
- الفصل الثالث: كتابة سيرة الرسول ﷺ عند المتأخرين

الفصل الأول
منشأ السيرة وتطورها

معنى كلمة سيرة

نشأ الإنسان على حب تسجيل حوادث الحياة حوله، حتى صارت له تاريخا يحفظ فيه سيرته ويحفظها من المحو، والطبيعة البشرية مختلفة عند جميع الأفراد، فبينما يقبل بعضهم على التاريخ للاستلهام منه العبرة والعظة، والآخرون يرون فيه قدوة لتخطيط المستقبل أحسن منه لما مضى من زمن، فهو للأحياء أحق منه للأموات، ومنهم من يتركه ولا يرى فيه أي نبضة روح ينعش حسّه، وطائفة أخرى يرون فيه آلة عظيمة، لها دور هام في تحريك البشر وتقدمه.

وللتاريخ قدرة لتغيير وجهة أمة من الأمم، فحدوث طوفان مثلا يبتلع الأرض ومن عليها، وزلزال يلتهم أعدادا من البشر فتمسي الأرض بعدهم يبابا، وقد يحدث خلاف ما يقدّر حتى تحولت المسارات الداخلية والخارجية للكرة الأرضية.

والإنسان منعَم بالقدرة العقلية والفكرية يعمل على "تخليد أبطالها عن طريق تسجيل أعمالهم وكتابة تاريخ حياتهم، أو بمعنى آخر قام بتمجيد هذه الحياة لترد إليها الروح وتعيد خلقها من جديد"[٣].

وهكذا تكونت السير والتي هي في مضمونها من مادة التاريخ اتخذت لحمة وسدى، وهي تختلف عنه من حيث إنها تنظر من خلال المجهر الذي لا يرصد للعيان، "وبدأ رصد الحالات الفردية في المجتمع الإنساني، والكتابة عنها على أنها محصلة الحوادث والتغيير، وازداد مع الأيام انفراج الهوّة ما بين السيرة والتاريخ، على حين بدأت تضيق تلك الشقة بين السيرة والأدب لما له من قدرة صافية تمنحها الحيوية، لا يستطيع التاريخ بمنهاجه ذي المعالم المحددة المقيدة وحدوده الضيقة إعطاءها تلك الروح السلسة العذبة"[٤]

وكلمة السيرة، لها لغة معنى السنة والطريقة والهيئة[٥] وكلمة السيرة استعملت أولا لترجمة حياة الرسول ﷺ، ثم عمّ استعمالها بمعنى ترجمة سيرة الرسول وعامة سيرة أي شخص آخر، "فقد جاء في الإنسايكلوبيديا الإسلامية، أن السيرة هي سيرة حياة النبي محمد ﷺ، ويبدو أنها استعملت من قبل أبي محمد عبد الملك بن

[٣] فهمي، ماهر حسن.*السيرة تاريخ وفن*. دار الفكر. بيروت: ١٩٦٥. ص٣٤ .

[٤] السداني، علي خالد. *منهج العقاد في كتابة السيرة*. المكتبة العصرية. بيروت،: ١٩٨٩. ص ١٥١.

[٥] الفيروزابادي، *القاموس المحيط*. مؤسسة الرسالة. ٢٠٠٥. مادة السيرة.

هشام، ومن قبله استعملها الواقدي، وتلميذه ابن سعد في الطبقات، إضافة إلى أن كلمة السيرة كانت تعني على العموم تاريخ حياة شخص"[٦]

ونمت السيرة على مر العصور وبدأت ساذجة حيث نشأت حضارة الإنسان، وقد "كانت كتابتها الأولى متشعبة في الحضارات القديمة كالمصرية والبابلية والهلينية وغيرها"[٧] مع أنها لم تتخد صورة الفن. أما العرب عرفوا هذا الفن في عصورهم الأولى "وهو فن مستحدث عندهم، قلدوا فيه غيرهم من الأمم الأجنبية التي قرأوا آثارها، وخاصة اليونان"[٨].

والسيرة قسمان: السيرة أو السيرة الغيرية، وهي قصة حياة شخص يكتبها شخص آخر، والسيرة الذاتية، وهي قصة حياة شخص يكتبها الرجل عن نفسه.

أدب أم تاريخ

التاريخ أحد مصادر المعرفة الإنسانية التي اهتم بها الإنسان فتدارسه، وألف مجالسه، ووجد في أخباره الاستمتاع، وصنف فيه، لأنه يعطي تسلية ولذة ويفيد المتعة الكافية، ويرضي غريزة حب الاستطلاع، ويعطي العبرة والعظة في الأحداث، والتاريخ لغويا التعريف بالوقت، يقال "أرّخت الكتاب تأريخا إذا جعلت له تاريخا،

[٦] مجلة البعث الإسلامي. العدد ٨. والمجلد ٥٨ مارس ٢٠١٣.ص٣٩.

[٧] فهمي، ماهر حسن. *السيرة تاريخ وفن*. مصر: دار القلم. ١٩٨٣. ص ٢١٩.

[٨] ضيف، شوقي. *الترجمة الشخصية*. ط٤. مصر: دار المعارف. ١٩٥٦. ص ٧.

وهو بيان انتهاء وقته، وقيل: وهو معرب، وقيل عربي"[٩]، والتاريخ في العرف هو تعيين الوقت بإسناده إلى أول حدوث أمر شائع مثل ظهور ملة أو دولة أو أمر عظيم، أو من الآثار العلوية والحوادث السفلية.

أما تضمين السيرة في التاريخ أو ضمن الأدب، فقد كثرت فيه الأقوال بين العلماء والأدباء، ومنهم من يرونها مثل محمد كامل حسين "أن السيرة تعد من الوثائق التاريخية، وبذلك هي تاريخ، ولكن البعض الآخرين يرون أن معالجة سيرة أي شخص تعتبر معالجة فنية إذا استطاع كاتب السيرة أن يوفر لها شروط النجاح الفني "فكاتب السيرة أديب فنان كالشاعر والقصصي في طريقة العرض والبناء، إلا أنه لا يخلق الشخصيات" قاموس اكسفورد يعرف السيرة بأنها تاريخ حياة الأشخاص وبأنها فرع من الأدب"[١٠]

والباحثون المعاصرون أخذوا يتسائلون: أحقا تعد السيرة جزءا من التاريخ؟ فالسيرة هي الأحداث الواقعة من ولادة شخص إلى موته من طفولة ونضج وكهولة، يرتبط بها كثير من العواطف الإنسانية، وهذا كله يخرج السيرة من دائرة التاريخ، وإضافة إلى ذلك إن السيرة المعاصرة تعرض عرضا روائيا أدبيا تتضح فيها مفهوم السيرة الأدبية.

[٩] الفيروزابادي، *القاموس المحيط*. في مادة التاتريخ. ص٢٥٦.

[١٠] مجلة البعث الإسلامي. العدد ٨. المجلد ٥٨. مارس ٢٠١٣. ص٤٠.

"والسيرة بعد كل هذا أقرب للقصة أكثر من قرابتها للتاريخ حيث تلمس الإنسان مباشرة، بينما في التاريخ نلمس هذا البيان عن طريق الأحداث التاريخية التي أحاطت به، فمنها ما قيل إن الإنسان هو المؤثر الحقيقي في مجرى التاريخ فإن المجتمع هو الذي يبرز التأثير التاريخي للفرد ويتفاعل معه، وهنا نتخذ من الأحداث محورا للتاريخ. بينما يكون هذا المحور في السيرة هو الإنسان نفسه "[١١]

ومن هذا يتضح بأن السيرة لها قرابة من الأدب في بعض الأحيان، مع كونها جزءا من التاريخ.

سيرة أم ترجمة

والمتقدمون من مؤرخي الإسلام حصروا السيرة على حياة الرسول ﷺ بجميع تفصيلاتها، فهي أقرب إلى التأريخ التفصيلي للإسلام ممثلا بشخصية الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين وصحابته الكرام والأحداث التاريخية التي دارت بين الإسلام وأعدائه، وسيرة ابن إسحاق تعد في نطاق أوسع من هذا، لأنه ضمّ إلى السيرة الأخبار والقصص من أهل الكتاب، ولهذا اعتبر بعض الكتّاب السيرة فرعا من فروع علم التاريخ، ومن جهة ثبوتها بالأحاديث والآثار عدوها من فروع علم الحديث. فهي إذا في تطبيق المحدثين جزء من الحديث، إذ كانت كتب الحديث

[١١] الكريم، سامح. *إسلاميات*. مكتبة الأسرة برعاية السيدة سوزان مبارك. د.ت.ص ٨٤.

أفردت بابا للسيرة في الأبواب سمي باسم "المغازي والسير" إلى جانب أبواب الصلاة والزكاة والتفسير.

وعلى كل حال إن السيرة في الاصطلاح نوع أدبي يعرف شخصا أو شخصيات عديدة أو مجموعة من الشخصيات في مجال خاص أومجالات مختلفة. يقول سيد قطب "مجرد سرد الحوادث والوقائع مهما بلغت من الدقة والتفصيل والتحقيق ليس هو الترجمة، وإنما هو المادة الخام التي تصنع من أثوابها الترجمة، حين يتناولها مؤلف موهوب، فينفخ فيها روحا وحياة، ويستنقذ من خلالها الكائن الإنساني الذي وقعت له، ويجعله يعيد تمثيلها كما لو كان حيا"[١٢]

فليس بين السيرة والترجمة فرق مذكور، فقد جرت عادة المؤرخين أن يسموا الترجمة حين لايطول نفس الكاتب فيها، فإذا ما طالت النفس واتسعت الترجمة سميت سيرة.

ولقد جاء ذكر الترجمة حينا والسير أحيانا أخرى، ويبقى الخلاف في اللفظين معا، وبإمعان النظر يظهر أنه لا خلاف بينهما وكل من اللفظين يؤدي للسامع والقارئ ما يؤديه الآخر. ولكن السيرة "في التراث العربي أقدم في الاستعمال من

[١٢] قطب،سيد. *النقد الأدبي*. أصوله ومناهجه. ط٨. القاهرة:دار الشروق. ٢٠٠٣. ص١٠٤.

كلمة الترجمة"[١٣] وفي لسان العرب "السيرة هي السنة، والسنة هي الأمر السائر بالناس،والسيرة بمعنى الهيئة وقول الله تعالى : (سنعيدها سيرتها الأولى) أي هيئتها. وسيّر سيرة أي حدّث أحاديث الأوائل"[١٤]

وكل هذا التحليل يفيد المراد لغويا بأن السيرة هي الذكرى التي تنتشر بين الناس وتوضح الهيئة والشكل والأحداث وتفسّر أخبار من فات من البشر وغير البشر. ولفظ الترجمة "فهي كلمة دخلت إلى العربية عن اللغة الآرامية"[١٥] وفي المعجم الوسيط "الترجمة،ترجمة فلان : سيرته وحياته، وجمعه تراجم. وهي كلمة مولّدة"[١٦]

أماالعرب فكانت بداية السيرة عندهم "بمعنى تاريخ الحياة، وكان القصد منها حياة الرسول ﷺ م ومغازيه"[١٧] وقد ألف ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١هـ سيرة الرسول ﷺ.

وبمرور مراحل كثيرة اتخدت السيرة أشكالا عديدة مثل علم الدراية بالحديث "وهو علم يعرف به حال الراوي والمروي من حيث القبول والردّ" [١٨]

---

[١٣] فهمي،ماهر حسين . *السيرة تاريخ وفن*. ص ٣.

[١٤] ابن منظور. *لسان العرب*. ج٤. ص٣٨٩. مادة سيرة.

[١٥] عبد الدائم،يحيى إبراهيم. *الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث*. بيروت: دار النهضة العربية. ١٩٨٢. ص٣١.

[١٦] مجمع اللغة العربية. *المعجم الوسيط*.ج .١ القاهرة: ص ٨٣.

[١٧] السداني،علي خالد. منهج *العقاد في دراسة الشخصيات الإسلامية*. ص١٥٢.

وكتب الحديث تتضمن جزءا كبيرا من أخبار السيرة، واعتمد كبار المؤلفين أمثال ابن سيد الناس في كتابه "عيون الأثر في المغازي والشمائل والسير" والحافظ الذهبي في كتابه "تاريخ الإسلام" في كتابة السيرة على الكتب الستة. وكُتب الحديث تدعم ما أوردته كتب السيرة والتاريخ في معظم الجوانب المتعلقة بالسيرة.

واتسع نطاق السيرة وتنوعت بعد عصور تالية، فاستعملت بمعنى حياة الشخص بصفة عامة بدليل ما يذكره صاحب "كشف الظنون" من ظهور سير كثيرة منذ القرن الرابع الهجري، كسيرة أحمد بن طولون لابن الداية المتوفى سنة ٣٣٤هـ و"سيرة صلاح الدين" لابن شداد المتوفى سنة ٦٢٢.

وكلمة ترجمة تأخرت إلى أن يستعملها ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان بمعنى "حياة الشخص ويرجع هذا الظن أن أبا الفرج في كتابه الأغاني لم يستعمل لفظة "ترجمة"عند كلامه على حياة الشعراء وغيرهم، وكان يسبق بمثل " خبر أبي قطيفة ونسبه"[١٩]

[١٨] قطب، محمد علي . *علوم الحديث*. ط١. بيروت:دار الإرشاد. ١٩٦٧. ص ٣٦.

[١٩] عبد الدائم، يحيى إبراهيم. *الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث*. ص ٣١.

وتميز كل من لفظي السيرة والترجمة للدلالة على مفهوم محدد، فأصبحت "كلمة "ترجمة" يجري الاصطلاح على استعمالها لتدل على تاريخ الحياة الموجز للفرد وكلمة "سيرة " يصطلح على استعمالها لتدل على التاريخ المسهب للحياة" [٢٠]

السيرة أيضا جزء من التاريخ، ولكن هناك فرق بين التاريخ والسيرة وخاصة بين سيرة الرسول ﷺ والتاريخ. فسيرة الرسول ﷺ تقدم بعض التفاصيل لأن كتّاب السيرة قد حاولوا أن يبرزوا سيرة الرسول ﷺ في أسلوب يستطيع القارئ قرائته وفهمه سهلا سريعا.

وفي العصر الحديث يخلط الكتاب بين اللفظين ولا يرون بأسا في ذلك، فيجوز عندهم إحلال الترجمة محل السيرة وبالعكس دون أقل لبس أوإبهام.

اهتمام العلماء بالسيرة

وقد اهتمت الأمة المسلمة من البداية بكتابة سيرة الرسول ﷺ، وكتاب الواقدي، والبلاذري، يمتاز بترتيب الأحداث حسب الزمان والموضوع، ولكن المحدثين اتخذوا التجزئة للأحداث ملتزمين بقواعد الرواية ونقد الأسانيد، كما فعل الإمام البخاري في قسم المغازي من صحيحه، وكما فعل الإمام مسلم أيضا، والمؤلفون مثل محمد ابن إسحاق وخليفة بن خياط ويعقوب بن سفيان الفسوي ومحمد بن

[٢٠] نفس المرجع. ص٣١.

جرير الطبري جمعوا بين الحديث والسيرة، فاستفادوا من طرق المحدثين في سرد الأحداث وسرد الروايات التي تكون وحدة موضوعية تحت تراجم دالة. والجميع من كتّاب السيرة في مرحلتها الأولى جمعوا كل ما حصلوا من الروايات بدون أن يشترطوا الصحة فيما يجمعون، وتركوا للقارئ التمييز بين الصحيح والضعيف، إلا ماكان من البخاري ومسلم، لأنهما شرطا الصحة فيما يرويان، والمحدثون في القرون الأولى كانوا ملتزمين بمعرفة الرواة وأحوالهم، واستطاعوا على الحكم بالرواية، ولكن هذا الالتزام لم يراعها المتأخرون، فصارت كتابة المتأخرين خاليا من تنقيح الروايات حسب قواعد مصطلح الحديث.

وقد تجربت الأمة المسلمة نقد الأسانيد من طريق علماء مصطلح الحديث، ومن مقدمتهم الخطيب البغدادي، وجاء بعده ابن الصلاح والقاضي عياض، وبمجيئ الحافظ الذهبي وابن كثير نال الفن زيادة دقيقة، وابن حجر العسقلاني أضافه كثيرا من بعدهما، غير أن هذه الأعمال كلها لم تحدث تغيرا جوهريا "بل تعتبر إضافات الذهبي وابن حجر في جزئيات القواعد العامة، وهي إضافات مهمة تعطينا تصورا لما كان يمكن أن يصل إليه هذا المنهج من الاكتمال لو استمرت

الحركة الفكرية نشيطة في"عالم الإسلام"ولم يتوقف إبداعها ونموها في عصور التخلف الطويلة" [٢١]

وإنّ الجمع بين طريق المحدثين وطريق النقد الغربي يكون نتاجها أمثل وأحسن في دراسات التارخية الإسلامية وخصوصا سيرة الرسول ﷺ، ولكن كتابة سيرة الرسول ﷺ اتبعت طريقها التقليدية ردها من الزمن. وكتب السيرة القديمة لم تعن التحليل والتصوير البتة باعتمادها على سرد الروايات.

وكما قام الكتاب بنقد السند قاموا بنقد المتن أيضا "لقد رفض ابن حزم الرقم الذي ذكرته المصادر الكثيرة عن عدد جند المسلمين في غزوة أحد بناء على محاكمة المتن وفق أقيسة عقلية بحتة. وقدّم موسى بن عقبة غزوة بني المصطلق إلى السنة الرابعة مخالفا معظم كتاب السيرة الذين يجعلونها في السنة السادسة، وتابعه ابن القيم والذهبي بناء على نقد المتن، حيث اشترك سعد بن معاذ بالغزوة وقد استشهد في أعقاب غزوة بنى قريظة" [٢٢]ومثل ذلك النقد متوفرة عند القدامى أيضا، خلافا لتهمة المستشرقين، في حين كان هناك نقد المتن منذ

[٢١] العمري، أكرم ضياء. *السيرة النبوية الصحيحة*. ط٦. المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم. ١٩٩٤ ص ١٤.

[٢٢] نفس المرجع. ص١٥.

القرون الأولى والمصطلحات مثل المدرج والمعلل والمضطرب والشاذ من مواضيع نقد الأسانيد والمتون.

وفي القرون الثلاثة الأولى بذل كتاب السيرة جهودا جبارة على جمع كل ما وجدوا من الروايات، أما المتأخرون أسقطوا روايات المتقدمين، كما فعل ابن هشام مع ابن إسحاق والطبري في مصادره الأولى، كما أنهم أوتوا نصيبا من فن الاختيار والنقد، ويتضمن كتاب 'البداية والنهاية' لابن كثير، و'فتح الباري' لابن حجر العسقلاني نقدا دقيقا للمتن.

ويلاحظ من جميع ما ذكر قد اهتم العلماء والكتاب بكتابة السيرة في مختلف مراحلها.

مصادر سيرة الرسول ﷺ

و تعتمد سيرة الرسول ﷺ على مصادر مختلفة، وهذه المصادر منها أصلية ومنها تكميلية، والقرآن من المصادر المهمة الأصلية للسيرة، حتى إن بعض المؤلفين صنفوا في السيرة باسم سيرة الرسول ﷺ وفق القرآن الكريم، والحديث وكتب الدلائل أيضا من المصادر الأصلية للسيرة، وكتب الأدب، وكتب الرجال، وكتب الجغرافية التاريخية، من المصادر التكميلية للسيرة، التي لا تتعلق بالسيرة مباشرة بل تتداول موضوعاتها، ويستفاد منها في مجال دراسة السيرة. وهذه

المصادر تتفاوت في قوتها وضعفها، فصار من اللازم مراعات هذه المصادر حقوقها في الترتيب والترجيح، فلا ترد الآيات القرآنية أو الأحاديث الصحيحة برواية من كتب التاريخ أو الأدب.

وقد ذكر القرآن الكريم كثيرا من الوقائع التاريخية مثل غزوة بدر، وأحد، والخندق، وهذه يمثل الأحوال العامة عند وقوعها، وهو أيضا يقدم صورة دقيقة للصراع بين المسلمين واليهود من الجانب الديني والمادي.

الفرق بين كتب الحديث وكتب السيرة

والمقصود من السيرة هو الاطلاع على حياة الرسول ﷺ ودراستها، وكما تنصم دراسة شخصيته وصفاته وجميع تصرفاته وطريقته في الدعوة والتبليغ والتربية لصحابته رضي الله عنهم، والفرق بين كتب الحديث وكتب السيرة يظهر في كون كتب السيرة تروي كثيرا من الروايات بأسانيد مرسلة ومنقطعة، وتوجد هذه الروايات في كتب الحديث متصلة مسندة، مما يوثق معلومات كتب السيرة.

واعتبار السيرة من علم الحديث على أنها تصف أحوال الرسول ﷺ، في أحواله الخاصة والعامة، وهذا ما يتحدث عنه علم الحديث ومدون في كتب الحديث، والفرق بينهما في المنهج وفي الجمع والتدوين والرواية والنقل، وعلم الحديث

خاضع لمنهج نقدي، ويعتمد على الرواية الموثوقة، في حين أخبار السيرة تساري لعلم التاريخ في نقل الروايات والأخبار دون تمحيص دقيق.

وعند الجمع بين كتب السيرة والحديث أثناء دراسة السيرة، يستفاد من التفصيلات التي تقدمها كتب السيرة في المغازي خاصة، ويستفاد من الإضافات التي تقدمها كتب الحديث في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والإدارية، فتتجمع معلومات صحيحة تكمل جوانب حياة الرسول ﷺ الشاملة لأمور الدين والدنيا. وهكذا، فإن الدراسة المقارنة بين كتب السيرة وكتب الحديث تكشف عن التطابق في كثير من الأسس والتفاصيل معا. وهذا من حفظ الله تعالى لسيرة رسوله ﷺ لتبقى منارا يُقتدى به في كل عصر ومصر. وباشتمال السيرة على الأحكام الشرعية المقتبسة من القرآن والحديث تدخل أيضا في علم الفقة.

ويختلف كتب الحديث عن كتب السيرة بانّ كتب السيرة تسوق الروايات الكثيرة بأسانيد مرسلة ومنقطعة، وكتب الحديث تكون متصلة مسندة، ويوثق معلومات كتب السيرة، وأصحاب كتب السيرة كان معظمهم من المحدثين، وليسوا من الأدباء أو القصاصين.

الفصل الثاني
كتابة سيرة الرسول ﷺ عند المتقدمين

أهمية سيرة الرسول ﷺ

سيرة الرسول ﷺ جزء من القرآن الكريم، وهي مفسرة له من الجانب العملي، ففيها أسباب النزول، وتفسير الآيات، وتعين المسلم على الاستنباط منها، واستخراج الأحكام الشرعية، فيحصل منها على المعارف الصحيحة في علوم الإسلام المختلفة، ويدرك الناسخ والمنسوخ، وغيرها من العلوم، وتمهد الطريق لتذوق روح الإسلام ومقاصده السامية، ويجد الزهاد فيها معاني الزهد وحقيقته ومقصده، ويستقي منها التجار مقاصد التجارة، ويتعلم منها المبتلون أرفع درجات الصبر والثبات.

وقد دأب عند كتاب المسلمين ومورخيهم تقسيم العلماء والكتاب إلى المتقدمين والمتأخرين، ولهج به أقلام علماء علم الأصول أيضا، وترى إشارة في كتبهم إلى كلمة "المتقدمون" و"المتأخرون"، وهناك كتاب باسم 'منهج المتقدمين والمتأخرين'

لكاتبه محمد بن عمر بن سالم بازميل، أما تحديد زمن المتقدمين والمتأخرين وهو المتقدم إلى سنة ٣٠٠ هجرية وما بعدها المتأخر.

القراءة في سيرة الرسول ﷺ ليست مجرد الاطلاع على الوقائع التاريخية، ولا ذكر ما تحمل من القصص والأحداث، ولكنها استنباط لحقيقة الإسلام ومبادئه، فهي عمل تطبيقي يمثل حقيقة الإسلام، ويمهد الطريق لفهم شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، ويساعد الإنسان أن يجد صورة للمثل الأعلى ويعينه على فهم القرآن وتذوق روحه ومقاصده، ويصيّره واعيا عن جم من المعلومات والمعارف المتعلقة بالعقيدة والأحكام والأخلاق.

فسيرة الرسول ﷺ هي المحور لحركة التاريخ العظيم، وانطلاقا من هذه السيرة دوّن المسلمون التاريخ "ذلك لأن أول ما دونه الكاتبون المسلمون من وقائع التاريخ وأحداثه، وهو أحداث سيرة النبوية، ثم تلا ذلك تدوين الأحداث التي تسلسلت على إثرها إلى يومنا هذا"[٢٣]

سيرة الرسول ﷺ جزء من السنة، وهي مع الحديث مصدر أساسي للتشريع الإسلامي، فيجب أن تكون في دقة بالغة، وفي البداية اهتم كُتاب السيرة اهتماما كبيرا بمغازي الرسول وبذكر الحروب التي أدت إلى انتصار المسلمين، فالكتب التي

[٢٣] البوطي، محمد سعيد رمضان. *فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة*.ط١. بيروت: دار الفكر. ١٩٩١. ص ١٧.

تمت على أيدي كل من موسى بن عقبة، وابن شهاب الزهري، ومحمد بن إسحاق تسجيل دقيق للمعارك الحربية، وما دار فيها من فنون، وبتأثير ذلك خضعت السيرة لأحكام الإسناد خضوعا دقيقا "وهو على هذا الاعتبار ليست رواية منطلقة مسترسلة، ولكنها روايات يجمعها موضوع واحد" [٢٤]

ومعظم كتاب السيرة الأوائل كانوا من أهل المدينة، كأبان بن عثمان (ت ١٠٥هـ)، وعروة بن الزبير (ت ٩٢هـ)، وشرحبيل بن سعد (ت ١٢٣ هـ)، وعبد الله بن فرج (ت ١٣٥هـ)، وعاصم بن قتادة (ت ١٢٠هـ)، وساعدهم القرب من العاصمة الإسلامية لرواية الوقائع كما سمعوها من أقرب الناس إليها، عن طريق الإسناد كما في رواية الحديث، وبقصد الاختصار أسقط بعضهم الأسانيد من ناحية، ووصلا لسلسلة الحوادث من ناحية أخرى كما يظهر ذلك عند الواقدي وابن إسحاق، وابن إسحاق مع سعة علمه واتساع روايته،"لايتقيد ببعض القيود التي وضعها رجال الحديث، فكان يجمع بعض أخباره من الكتب المدونة في ذلك العهد البعيد، مع أن رجال الحديث يشترطون السماع، وكأن حرصه على كثرة الجمع قد شغله عن تحقيق بعض ما يجمع فيما لايحسنه من أبواب الأدب كالشعر على سبيل المثال"[٢٥]. وقبِل ابن إسحاق كل شعر يقال متصلا بحوادث السيرة ولو لم

[٢٤] فهمي، ماهر حسن. *السيرة تاريخ وفن*. دارالقلم: كويت. ص ٦ .

[٢٥] نفس المرجع.ص ٧.

يكن صحيحا. وقد أشار إلى ذلك ابن سلام في مقدمته 'طبقات الشعراء' وابن النديم في 'الفهرست'. وكتب المؤرخون بعد ذلك الشمائل المحمدية، وحللوا نواحي من حياة الرسول ﷺ، كما فعل القاضي عياض (ت٥٤٤هـ) في كتابه 'الشفاء في تعريف حقوق المصطفى' وابن سيد الناس اليعمري (ت ٧٣٤هـ) في كتابه 'عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير' وشهاب الدين القسطلاني (ت ٩٢٣هـ) في كتابه 'المواهب اللدنية في المنح المحمدية' ونور الدين الحلبي (ت١٠٤٤هـ) في كتابه 'إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون'. وبعضهم جعلوا سيرة الرسول ﷺ جزءا من كتبهم في التاريخ العام، كما صنع الطبري (ت٣١٠هـ) وابن الأثير(ت ٦٣٠هـ) في كتابه 'الكامل' والذهبي (ت ٧٤٨هـ) في 'تاريخ الإسلام' وابن كثير(ت ٧٧٤هـ) في كتابه 'البداية والنهاية'.

وجملة القول إن كثيرا من المؤلفين عالجوا كتابة السيرة رواية وتدوينا في عصورها الأولى.

رواية السيرة

إن كتابة سيرة الرسول ﷺ تدخل في عموم ما يسمى تأريخا، وكان منهج الكتاب في البداية معتمدا على المنهج الموضوعي وذلك أن كتاب سيرة الرسول ﷺ لم تكن وظيفتهم بصدد أحداث السيرة، إلا تثبيت ماهو ثابت منها، بمقياس علمي يتمثل في قواعد مصطلح الحديث المتعلقة بكل من السند والمتن، وفي قواعد الجرح

والتعديل المتعلقة بالرواة وتراجمهم وأحوالهم. فإذا اتفق معهم هذه القواعد في الأخبار والوقائع وقفوا عندها ودونوها بدون خيالهم الفكري، ومزاجهم النفسي.

دو افع المسلمين للاهتمام بسيرة الرسول ﷺ

إنّ شخصية الرسول ﷺ شخصية لقيت اهتمام الدارسين والباحثين قديما وحديثا، واعتنت الأمة المسلمة بتاريخ رسولها بكل تفاصيله ودقائقه، وذلك لسببين رئيسيين.

الأول: إن حياة الرسول ﷺ حياة مثالية في جميع جوانبها ومستوياتها، ودراستها متعة روحية وذهنية، لأن الإنسان يبحث دائما عن المثل الأعلى والقدوة الحسنة، لعل الله يهديه إلى أقوم طريق وأفضل سلوك، وليس هناك حياة وسيرة يمكن أن يتعلم منها الناس أفضل وأجدى من حياة وسيرة الرسول ﷺ، وصدق الله تعالى إذ يأمر الإنسان بالاقتداء به "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة " - سورة الأحزاب :٢١.

الثاني:إن حياة الرسول ﷺ وسيرته كانتا موضع اهتمام الأمة وعنايتها بأحاديث الرسول ﷺ وأفعاله ومغازيه وأيامه، ويكاد يكون كل كلمة تلفظ بها الرسول ﷺ، وكل حركة وكل أفعال صادرة منه يحفظونها عن ظهر قلب، وهي مدونة في

صدورهم قبل أن تدون في الكتب عند بدء حركة التدوين مع نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجري.

على أن كتب السيرة لم تخل من الرواية الواهية، حتى إن بعض الكتاب انتحلوا الأحداث والوقائع حول سيرته ﷺ، ومما دفعهم إليه محبته ﷺ، والكاتب محمد الصوياني يشير إلى هذه الظاهرة "لقد أعمى الحب بعض السذج، فصاروا يسقون حدث المولود بأمطار الأكاذيب، فأنشأوا حوله الأساطير والخرافات، وجاءوا بالروايات الملفقة التي كادت تشوه سيرته الطاهرة" [٢٦]

اعتنى المؤرخون والرواة بسيرة الرسول ﷺ إذ هي جزء من التاريخ الإسلامي ومفسرة لآيات القرآن.

[٢٦] الصوياني، محمد. *السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة*. ج ١. ط٥. الرياض: مكتبة العبيكان. ١٤٣٤ هـ. ص٢٠.

بداية التأليف في سيرة الرسول ﷺ :

من السنن الكونية أن كل شيء يخضع للتدرج في النشأة والتكوين، يتساوى في ذلك الإنسان والحيوان، والأفكار والعلوم والفنون، فلا شيء يخلق كاملا، أو ينشأ ناضجا مستوى التكوين، وإنما يمر بمراحل زمنية متتابعة، حتى يصل إلى نضجه واستوائه وكماله، وسيرة الرسول ﷺ،لا تختلف عن ذلك القانون، وأن سيرته لم تدون في حياته، وأن الكتّاب الذين كانوا يكتبون للرسول الوحي وغيره على كثرة عددهم، لم يتصدوا لتسجيل أحداث حياته ﷺ، إنما تدرجت تدريجيا.

إن أكثر وأشهر كُتاب السيرة الأولين كانوا من أهل المدينة، لأن أكثر أحداث السيرة وكل المغازي كانت في المدينة، والصحابة حول النبي كانوا شاهدي عيان لهذه الأحداث ومشتركون فيها، وكانوا مفتخرين في روايتها ونقلها، وبعدهم تلقى التبع بشغف كبير وسلموا كل ذلك إلى رجال التدوين الذين حفظوه بكل تفاصيله وسلموه بدورهم للأجيال التالية، وهو ثروة قلما حظيت بها أمة من الأمم من تاريخ عظمائهم وسيرتهم.

كانت السيرة في البداية جزءا من الحديث يرويه الصحابة، كما يروون الحديث، فالمؤلفات في الأحاديث لم تخل من ذكر ما يتعلق بحياة الرسول ﷺ ومغازيه، وقد استمرت هذا المنهج، حتى بعد أن انفصلت السيرة عن الحديث وأصبحت علما

مستقلا، وأقدم كتاب في الحديث 'الموطأ' للإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) يذكر طائفة كبيرة من الأحاديث التي لها صلة بسيرة الرسول ﷺ وأوصافه وأسمائه.

وتوالى هذا المنهج بعد ذلك في كتب كبار علماء المحدثين، وفي مقدمتهم الإمام البخاري (ت ٢٥٦هـ) ومسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ) اشتمل صحيحهما على جزء كبير من مغازي الرسول ﷺ وفضائله حتى إن عُشر صحيح البخاري يشتمل على هذا النوع من البيان.

ونهج معظم المؤلفين من المتقدمين في السيرة منهج علماء الحديث من العناية بالإسناد، واعتنوا لسير الحوادث وترتيبها في نسق واحد فاضطروا لجمع الأسانيد وجمعوا بعد ذلك المتن قاصدين عرض الحادثة التاريخية في إيجاز تسهيلا على القراء، وهذا المنهج هو المعروف لدى المحْدثين بالمنهج السردي والمنهج التاريخي أيضا.

وطوال خلافة الخلفاء الراشدين الأربعة (١١ -٤٠هـ) لم تدون السيرة لأن الرجال الذين عاشروا الرسول ﷺ وهم صحابته رضي الله عنهم ولم يكونوا في حاجة إلى تسجيل تلك الأحداث، لأنهم قد عايشوها وانفعلوا بها في تاريخ الرسالات والدعوات الدينية، ونقشوا كل أحداث في ذاكرتهم وحفظوا كل كلمة نطق بها الرسول ﷺ ولا يغيب عنهم عمل من أعماله إلا عرفوها تمام المعرفة وكمال

التفاصيل، فلم يكونوا محتاجين إلى تدوين السيرة لما شاهدوا وحفظوا وانشغلوا بالغزوات والفتوحات.

وبانتهاء جيل الصحابة وبداية دور التابعين، وهم الذين رأوا الصحابة وعاصروهم وتعلموا منهم، ظهرت الحاجة إلى تدوين وتسجيل السيرة لأنهم لم يروا الأحداث والجهاد الذي قام به الرسول ﷺ، وكل علمهم عنها مقصورة على ما سمعوا من الصحابة، واشتاقوا لمعرفة كل شيئ بالتفصيل، وسألوا الصحابة عن خلق الرسول ﷺ وعن غزواته وعن هجرته وعن بيعة العقبة وكان الصحابة يجيبون لسؤالهم. ومعظم الصحابة كانوا يعيشون في المدينة فطبيعي أن تكون المدينة أحسن بيئة للسؤال والإجابة عن كل ما يتعلق بحياة الرسول وسيرته، وبدأوا تدوين الوقائع والأحداث كما سمعوها من الذين شاهدوها، وكانت تلك بداية التأليف في سيرة الرسول ﷺ، ورحل الناس إلى كل مصر نزل فيها الصحابة مثل البصرة والكوفة ودمشق والفسطاط. وأصبح كبار التابعين الذين بدأوا التدوين في تدوين سيرة الرسول ﷺ مصدرا رئيسيا من مصادرها لأنهم "كانوا من أبناء كبار الصحابة الذين أخذوا العلم عن آبائهم الكرام، وهم الذين رأوا كل شيئ وشاركوا بأنفسهم، بل كان من أوائل علماء السيرة من هم على صلة قريبة ووثيقة ببيت الرسول ﷺ مثل عروة بن الزبير بن العوام، فأمه أسماء بنت الصديق ﷺ وخالته

أم المؤمنين عائشة ﵂، فتتلمذ عليها ونقل عنها أخبارا كثيرة عن حياة الرسول وسيرته"[٢٧]

والمفهوم من هذا إن السيرة لم تكتب في عصر الرسول ﷺ، ولا في حياة كبار الصحابة رضي الله عنهم وهي فن ترجع بدايتها إلى الجيل الأول من التابعين.

رجال الطبقة الأولى من كتّاب السيرة

يقسم علماء السيرة من المتقدمين إلى طبقات؛ الطبقة الأولى والثانية والثالثة، ولا معنى لهذا أن الطبقة الثانية تبدأ إذا انتهت الطبقة الأولى لأنه ليس ثمة حد زمني فاصل بين هذه الطبقات، وأجيال العلماء متداخلة، وكثيرا ما كان الواحد منهم تلميذا وأستاذا لآخر في وقت واحد، فمقصود هذا التقسيم هو تمييز رجال كل مرحلة عن التي سبقتها والتي تليها. وكلما امتد الزمن اتسعت دائرة العلم وزاد عدد العلماء وتلاميذهم، وكانت الطبقة الأولى من كتّاب سيرة الرسول ﷺ ومن بعدهم عرفوا بكتّاب المغازي والسيروهم:

[٢٧] عبد اللطيف.،عبد الشافي. *السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي*. دار السلام. ص ٢٠

١. أبان بن عثمان (ت ١٠٥ هـ)

هو ابن الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ ولد في المدينة حوالي سنة عشرين للهجرة، وتوفي فيها في خلافة يزيد بن بن عبد الملك بن مروان (١٠١ - ١٠٥هـ) ونشأ في كنف أبيه، وهو من كبار الصحابة وفضلائهم وتعلم في بيئة المدينة حتى أصبح من كبار فقهاء المدينة المعدودين والمشهورين، وصار من أعلام رواة الحديث الشريف، فقد روى عن أبيه ﷺ وغيره من كبار الصحابة.

وتتلمذ على يديه كثيرون من كبار المحدثين والفقهاء، أمثال محمد بن شهاب الزهري، أستاذ إمام المؤلفين في السيرة النبوية، وعمدتهم محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي.

ولقد اشتهر أبان بن عثمان بالمغازي والسير، وأصبح من أساتذة هذا الفن الحائزين على ثقة العلماء وقال ابن سعد في طبقاته حينما يترجم للمغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة "كان ثقة قليل الحديث، إلا مغازي رسول الله ﷺ أخذها عن أبان بن عثمان"[٢٨].

وهذا الخبر على وجازته يؤكد أستاذية أبان بن عثمان في المغازي والسير، والحديث والمغازي والسير كان من أحب الأشياء إلى أهل المدينة، ولعل ابتعاد

[٢٨] ابن سعد. *طبقات الكبرى*. ج٥. ط٣ . القاهرة: مكتبة ابن تيمية. ١٤٠٧هـ. ص١٧٩.

أبان عن الاشتغال بالسياسة مكّنه من التفرغ للعلم درسا وتدريسا. ولم يبق التاريخ من مؤلفاته من الضياع والتلف إلا رواياته وآرائه في المصادر التي رواها تلاميذه.

٢. عروة بن الزبير (ت ٩٤ هـ)

هو الثاني من رجال الطبقة الأولى من كتاب المغازي والسير، وأبوه الزبير بن العوام بن خويلد، أحد السابقين الأولين إلى الإسلام، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ﷺ. ولد عروة في المدينة حوالي سنة ٢٦هـ. فالبيت الذي نشأ فيه عروة قوته؛ أبوه الزبير بن العوام حواري النبي صلعم، وأمه ذات النطاقين أسماءبنت الصديق، ومدرسته الكبرى فهي خالته السيدة عائشة أم المؤمنين، التي كثيرا ما يتردد إليها ويداوم على زيارتها للتعلم منها والتحدث معها.

وهو شهد الاضطرابات السياسية التي حلت بالمسلمين في الشطر الثاني من خلافة عثمان بن عفان ﷺ والتي استغرقت عهد علي بن طالب ﷺ كله، ولما تولى معاوية ﷺ الخلافة أحسن إلى أهل المدينة بصفة عامة، وإلى الصحابة وإلى أبنائهم بصفة خاصة، وأغدق عليهم من الأموال ما أتاح لهم التفرغ للعلم والتعليم "فزخر مسجد الرسول ﷺ، بأعداد هائلة من الفقهاء والمحدثين والمفسرين

وأصحاب السير والمغازي، وكان عروة ين الزبير فارسا من فرسان هذه الحلقات وأبرز رجالها"[٢٩]

ويظهر أن عروة ألف كتبا كثيرة في السيرة وغيرها، وهناك خبر جدير بالتنويه "يرويه ابن سعد عن هشام بن عروة أن أباه أحرق يوم الحرة، - يقصد يوم وقعة الحرة المشهورة بين ثوار المدينة وجيش الخليفة الأموي يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (سنة ٦٣هـ) –عدة كتب، وقد حزن كثيرا على فقدها فيما بعد، فهذا الخبر يدل على انتشار الكتابة والتأليف وتدوين العلم" [٣٠]

وقد صادف بعض الجهود الحديثة لاستخراج مغازي عروة بن الزبير، إذ قام محمد مصطفى الأعظمي بنشر ما روي عن عروة في المغازي من طريق أبي الأسود فقط، وجمع المؤرخ عبد العزيز الدوري في كتابه "نشأة علم التاريخ عند العرب" الأحداث التاريخية التي نقلها المؤرخون عن عروة وكانت وفاته سنة ٩٤هـ.

٣. وهب بن منبه (ت ١١٤ هـ)

وهو من الطبقة الأولى من كتاب المغازي والسير ولد في يمن سنة ٣٤هـ، من أصل فارسي، ونشأ في أسرة مسلمة، اشتهر معظم رجالها بالعلم، وقد تأثر وهب بن منبه بالجو العلميّ الذي كان يحيط بأسرته، وكان يختلف إلى أبان بن عثمان

[٢٩] نفس المرجع. ص٢٢

[٣٠] نفس المرجع. ص٢٣

وعروة ين الزبير بن العوام وشرحبيل بن سعد، حتى صار الاهتمام بالمغازي والسير شغل العلماء في كل الأقطار الإسلامية.

رجال الطبقة الثانية من كتاّب السيرة

الطبقة الثانية من كتاب سيرة الرسول ﷺ تجمع جمعا كبيرا من علماء المغازي والسير ذوي المكانة العلمية الرفيعة، لا سيما في مدينة الرسول ﷺ، ومن أهمهم:

١. محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ)

وهو من بني زهرة،أخوال النبي ﷺ، ومن كبار التابعين وأعلامهم، يعتبر من أعظم مؤرخي المغازي والسير، وله الفضل في تأسيس مدرسة المدينة التاريخية. رأى عشرة من الصحابة، وتتلمذ على كبار علماء التابعين وأعلامهم، وتتلمذ على بحور قريش في العلم، مثل سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة.

وروى عن الزهري جماعة من العلماء؛ الأئمة الأعلام كمالك بن أنس الأصبحي، وسفيان بن عيينة، وسفيان الثوري، وأصبحت له مكانة علمية رفيعة في أوساط العلماء، وكتب عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي إلى سائر الأقاليم "عليكم بابن شهاب، فإنكم لا تجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه"[٣١]. وكان الزهري

[٣١] ابن خلكان، *وفيات الأعيان*. ج ٤. بيروت: دار صادر. ١٩٧٢. ص١٧٧.

موضع إجلال واحترام خلفاء بني أمية، لأنه إلى جانب تبحره في العلوم كان يحترم نفسه ولم يداهن في الحق.

وقد امتاز محمد بن شهاب الزهري عن معاصريه بكثرة الكتابة والتدوين واقتناء الكتب. وكان إذا جلس في بيته بين كتبه اشتغل بها عن كل شيئ سواها من أمور الدنيا، حتى يروى أن امرأته كانت تقول له " إن هذه الكتب أشد عليّ من ثلاث ضرائر"[٣٢]. والذي مكّن الزهري من نشر علمه هو اهتمامه بالكتابة والتدوين.

ولقد ضاع ما كتبه الزهري ودوّنه بنفسه، ولم يبق من علمه إلا ما رواه تلامذته وفي مقدمتهم محمد بن إسحاق وله الفضل في حفظ علم أستاذه الزهري، حيث كانت العلاقة بينهما متينة مبنية على الحب والاحترام، وكان ابن إسحاق يعتبر الزهري المرجع الأول في كل ما يتعلق بسيرة الرسول ﷺ، واسم الزهري هو الأشهر والأكثر ذكرا في سيرة ابن إسحاق، وكثيرا ما كان يعبر فيما يتعلق بروايته عن الزهري، بقوله حدثني محمد بن مسلم الزهري، وأحيانا يقول حدّثنى الزهري فقط، أو حدثني ابن شهاب، أوسألت ابن شهاب الزهري، إلى غير ذلك من التعابير. وكانت وفاة الزهري سنة ١٢٤هـ.

[٣٢] نفس المرجع. ص ١٧٧.

٢. عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري (١٣٥هـ)

من علماء الطبقة الثانية ومن مؤلفي المغازي والسير من أهل المدينة، وجده الأعلى عمرو بن حزم أحد صحابة رسول الله ﷺ، وكان واليا على نجران، وأبوه أبوبكر ولى قضاء المدينة المنورة أثناء ولاية عمر بن عبد العزيز عليها، وقد عرف بمقدرته الفائقة في رواية الحديث، وكان من الثقات، ولذلك عهد إليه عمر بن عبد العزيز بجمع أحاديث رسول الله صلعم. وهو أيضا من المدنيين، وهو مصدر هام في السيرة، وأبوه جمع السنة والحديث وفق أمر من الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، واتبع المنهج السائد في ذلك العصر، لم ينصرف عنه ولم يبتكر، غير أنه أول من دوّن الأحداث التاريخية على ترتيب السنين، فساق الغزوات ترتيبا حسب السنوات.

وقال عنه الإمام مالك بن أنس "ما رأيت مثل ابن حزم، أعظم مروءة وأتم حالا ولا رأيت من أوتي مثل ما أوتي ولاية المدينة والقضاء والموسم "[٣٣]، فتتبين البيئة التي هيأت لابن حزم للحصول على العلوم، إنه ورث عن أبيه مواهبه، واختص برواية الحديث لا سيما الأحاديث المتصلة بالمغازي وكان حجة في ذلك وهو أحد مصادر

[٣٣] الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي. *سير أعلام النبلاء*. ج٥. بيروت: مؤسسة الرسالة. ١٩٨٢. ص ٣١٤.

كبار علماء السيرة والمؤرخين وقد روى عنه ابن إسحاق، ومحمد بن عمر الواقدي، ومحمد بن سعد.

وعلى كل حال فقد كان عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري عظيم الأثر في كتب السير والمغازي. وابن إسحاق يدين له كثيرا بالنظام السنوي في ترتيب الأحداث.

٣. عاصم بن عمربن قتادة (١٣٥هـ)

وهو من أحد رجال البارزين من الطبقة الثانية من كتاب المغازي والسير، وجده قتادة بن النعمان الظفري الأنصاري كان من صحابة النبي ﷺ وشهد معه بدرا وأحدا، وبكون قتادة رضي الله من الصحابة روى لابنه ما شهده وشاهده بنفسه من مغاز وسير وأخبار رسول الله، ورواها عمر لابنه عاصم الذي أصبح حجة في ذلك. وكان من المصادر المعتمدة لأصحاب السير والمغازي، مثل محمد ابن إسحاق ومحمد بن عمر الواقدي. وكانت وفاة عاصم ١٢٠هـ.

٤. شرحبيل بن سعد مولى بنى خطمة (ت. ١٢٣هـ)

وهو من مؤرخي المغازي الأوائل، ومن الذين عرفوا المغازي، وأخذ عليه أنه كان يعد في الصحابة من ليس منهم، ويدخل إلى البدريين من لم يحضروه، وابن

إسحاق والواقدي لم يرويا عنه، قال محمد بن سعد "وبقي إلى آخر الزمان حتى اختلط، واحتاج حاجة شديدة، وله أحاديث، وليس يحتج به"[٣٤]

ويقول علي بن المديني "قلت لسفيان بن عيينة كان شرحبيل بن سعد يفتي؟ قال: نعم، ولم يكن أحد أعلم بالمغازي وعن البدريين منه"[٣٥]

رجال الطبقة الثالثة

وبمرور الزمان كثر العلماء والمؤلفون الذين يكتبون سيرة الرسول ﷺ، إذ هي خاضعة لسنة التدرج والتطور، فرجال هذه المرحلة كثيرون فمن أشهرهم :

١. موسى بن عقبة (ت. ١٤ هـ)

كان مولى لآل الزبير، ومعلوم أن بيت الزبير آهلة بالعلماء وخاصة في ميدان المغازي وذلك بما يربطهم ببيت النبي عن طريق خالتهم السيدة عائشة ﵂، واستفاد موالهم من صلتهم بهم، ومن أشهر هؤلاء الموالي موسى بن عقبة الذي كان له أخوان أكبر منه سنّا، وهما إبراهيم بن عقبة ومحمد بن عقبة، وكان الثلاثة من أشرف تلاميذ مدرسة المدينة في الفقه والحديث، واشتهر منهم موسى بن

[٣٤] ابن سعد. *طبقات*. ج٥. ص٣١٠.

[٣٥] ابن حجر العسقلاني. *تهذيب التهذيب*. ج ٤. دار المعارف. ١٣٢٧. ص٣٢١.

عقبة في علم المغازي، وكان ثقة عند العلماء حتى قال عنه الإمام مالك بن أنس : "عليكم بمغازي ابن عقبة، وهي أصح المغازي"[٣٦]

وكتب سيرة مختصرة موجزة، ولكنه غير موجودة إلا مقتطفات في طبقات ابن سعد وفي تاريخ الطبري، وكانت وفاته سنة ١٤١هـ.

٢. معمر بن راشد (ت ١٥٣هـ)

وهو مولى من موالي، وكان من أهل الكوفة ورحل إلى البصرة وإلى اليمن، وتلقى العلوم من علماء هذه البلاد، ومن أبرز شيوخه محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، وكان هو من نبلاء تلاميذ الزهري، وأكثر رواية معمر بن راشد في السيرة والمغازي كانت عن الزهري. وكان واسع العلم بالحديث والسير والمغازي، وينسب ابن النديم إلى معمر راشد كتابا واحدا ويقول عنه " معمر بن راشد من أهل الكوفة، يروي عنه عبد الرزاق، من أصحاب السير والأحداث، وله من الكتب: كتاب المغازي"[٣٧]. ولم يبق من هذا الكتاب إلا مقتطفات عند كل من الواقدي وابن سعد والبلاذري والطبري. وكانت وفاته سنة ١٥٣هـ.

[٣٦] أمين، أحمد. *ضحى الإسلام* . القاهرة:المكتبة التوفيقية. د.ت.ص ٣٢٧.

[٣٧] ابن النديم. *الفهرست*. بيروت:دار النشر الطباعة والنشر. د.ت.ص١٣٧.

تطور حركة التأليف في المغازي والسير

كانت بداية التأليف في السيرة بتدوين أجزاء لأخبار، وبعضهم اقتصروا على المغازي، أو الخبر عن المبعث، غير أنها مرتبة وفق السنين، وكان نشأتها على أيدي الرواة، ومهدوا الطريق لمن جاء بعدهم من أصحاب السير، مثل الزهري والواقدي وابن إسحاق، وموسى بن عقبة، وهم الذين عاصروا الصحابة، واطلعوا على - التصنيف في بداية القرن الثاني للهجرة.

شهد النصف الثاني من القرن الأول للهجرة تطورا شاملا في كتابة تاريخ المغازي، فألف في أواخر العصر الأموي وفي أوائل العصر العباسي مؤلفات جامعة في المغازي، ويعد كتاب المغازي لموسى بن عقبة أكبر مؤلف في المغازي.

كتاب المغازي لموسى بن عقبة

موسى بن عقبة هوأول من صنف في المغازي[٣٨]، وأصحاب صحاح الستة وغيرهم رووا له، مع ذكر المغازي ضمّ موسى ابن عقبة إلى كتابه الأحداث المتعلقة بالهجرة أيضا، والنسخة الكاملة لكتابه ليس متوفرا، مع أنه تلقى قبولا واسعا عند العلماء، وذلك لدقته في سرد الأحداث، وابن قاضي شهبة الدمشقي (ت ٧٨٩هـ/١٣٨٧م) اقتبس قطعة من كتابه، وكذلك فعل ابن حجر العسقلاني في

[٣٨] الذهبي. *سير أعلام النبلاء*. ج٦. ص١١٥و ١١٦.

الإصابة، وابن عبد البر اقتصره في الدرر في اختصار المغازي والسير، وعيون الأثر ابن سيد الناس غني بالإقتباس من كتاب موسى ابن عقبة، وعند ابن سعد نال الكتاب حظا وافرا إذ جعله من المصادر الأساسية. وابن جرير الطبري وابن كثير اعتمدا عليه، فكتاب موسى بن عقبة صار من أهم المصادر لكتّاب السيرة بعده.

وأجزاء من مغازي موسى ابن عقبة، أخذها ادوار سخاو من القطعة المخطوطة من مكتبة برلين بألمانيا ونشرها مع ترجمة ألمانية له سنة ١٩٠٤م بعنوان المنتقى من مغازي موسى بن عقبة، كما توجد قطعة منه ضمن أمالي ابن الصاعد. وجمع الدكتور ضياء العمري كثيرًا من رواياته، ونشرها في بحث بمجلة كلية الدراسات الإسلامية، بغداد، العدد الأول، عام ١٣٨٧هـ، وقد جمع الدكتور محمد باقتيش أبو مالك مغازي موسى بن عقبة[٣٩].

منهج موسى ابن عقبة في التصنيف

سجل موسى بن عقبة الأحداث التاريخية حسب تاريخ وقوعها، وقبله اتخذ عبد الله بن أبي بكر بن حزم هذا المنهج، الموسوعة العربية العالمية تقول"تميز بفكر تاريخي منهجي منظم سمح له -وهو يبحث مغازي الرسول وأخبار الخلفاء

[٣٩] https://www.arrabita.ma/blog/%D9%85%D9%90%D9%86-

الراشدين والأمويين- أن يفكر في وضع قوائم بأسماء الصحابة المهاجرين إلى الحبشة، أو المشاركين في بيعة العقبة وغيرهم"[٤٠]، وهذا مهد الطريق لتطور تدوين السيرة، والتدوين التاريخي مجملا، وهو تارة يروي بإسناده موصولا، وتارة يروي عن شيوخه وخاصة الزهري مرسلا، وتارة يسوق الخبر دون أن ينسبه إلى أحد بعبارته، وفق ما أخذ من مصادر البيئة التي نشأ فيها. وكان الإمام مالك يثني على مغازي موسى بن عقبة وقال عليكم بمغازي موسى بن عقبة، فإنه رجل ثقة طلبها على كبر السن ليقيد من شهد مع رسول الله ﷺ، ولم يكثر كما أكثر غيره وكان إذا سئل عن المغازي قال"عليك بمغازي الرجل الصالح موسى بن عقبة فإنه أصح المغازي"[٤١]

١. محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي (ت. ١٥١ هـ)

ومنذ عصر ابن إسحاق نشطت الكتابة في سيرة الرسول حيث إن كتابه المرجع المعتمد للذين جاؤوا بعده. وهو من أصل فارسي، وكان جده يسار من أهل قرية عين التمر بالعراق، ومن أولاده الثلاثة إسحاق الذي ولد له بالمدينة المنورة سنة ٨٥هـ، ونشأ في البيئة المحيطة بالعلم والصلاحية، حتى أتاح له رؤية بعض الصحابة كأنس بن مالك، وتتلمذ على كبار التابعين كالقاسم بن محمد بن أبي بكر

[٤٠] مجموعة من العلماء. *موسوعة العربية العالمية*. ط٢. مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع. ١٩٩٩.مادة موسى بن عقبة.

[٤١] أمين، أحمد. *ضحى الإسلام*. ج ٢. القاهرة: المكتبة التوقيفية. د.ت. ص٣٢٧.

الصديق، وأبان بن عثمان بن عفان، غيرأن تأثير مسلم بن شهاب الزهري فيه كان أكبر وأوضح، وقد شهد له جمع من العلماء بالإمامة في ميدان السيرة.

صلته بمالك بن أنس وهشام بن عروة: وقد أفاض الباحثون المحدثون في ذكر الخلاف الذي وقع بين ابن إسحاق ومالك بن أنس، وبينه وبين هشام بن عروة بن الزبير بن العوام، والمصادر التي تذكر ترجمة ابن إسحاق يصدق على ذلك، حتى يرون ذلك الخلاف السبب لإلزام ابن إسحاق لمغادرة المدينة، الخلاف بين العلماء كائن في كل عصر ومصر، ولكن الخلاف بين هؤلاء الجهابذة تطورت إلى عداوة حتى التجأ واحد منهم إلى مغادرة مولده، فهو خبر غير موثوق به. وأما سبب الخلاف بين مالك وابن إسحاق وهو أن ابن إسحاق كان يطعن في نسب الإمام مالك بن أنس، كان نسبه من قبيلة أصبح العربية اليمنية، ولكن ابن إسحاق يزعم أنه مولى من موالي بني تميم، وسبب آخر يذكر أن ابن إسحاق كان ينتقص من علم مالك ابن أنس، فقد روي عنه أنه كان يقول " ائتوني ببعض كتب مالك، حتى أبين عيوبه، أنا بيطار كتبه"[٤٢] فلما سمع مالك ذلك حنق على ابن إسحاق، وحمل عليه وسفه علمه. وسبب آخر يوردها العلماء للخلاف هو "إن ابن إسحاق كان يُتهم بالتشيع، فعاداه مالك بن أنس"[٤٣]. وهذا يكون من

[٤٢] محمدعبد اللطيف،عبد الشافي. *السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي*. ص ٣٨.

[٤٣] الخطيب البغدادي. *تاريخ بعداد*. ج ١. دار الكتب العلمية . ٢٠١١. ص ٢٢٣و ٢٢٤.

أرجح السبب والذي وقع أولا، الرمي بالمولى، والإنتقاص من العلم وما إلى ذلك نتيجة ذلك، وابتعاد ابن إسحاق من الدولة الأموية يؤيد هذا الرأي.

وسبب الخلاف بين ابن إسحاق وبين هشام بن عروة بن الزبير، يختصر في أن ابن إسحاق كان يروي عن فاطمة بن المنذر، زوج هشام بن عروة، وغضب ابن هشام وأثار غيرته وقال متى دخل عليها ومتى سمع منها؟ وإن كان هذا الخبر مروي في كتب التاريخ، وهل يكون ذلك منشأ الغيرة لابن هشام، إذ كان من المألوف رواية النساء في التراث الإسلامي، ومع ذلك أن الفرق في السن بين فاطمة بنت المنذر وبين ابن إسحاق كبير، إذ ولدت فاطمة زوج ابن إسحاق سنة ٤٨هـ، وابن إسحاق كان مولده سنة ٨٥هـ، فهي كبيرة منها بسبع وثلاثين سنة.

رحلاته: وقد قام ابن إسحاق رحلات علمية إلى مراكز العلماء آنذاك، فسافر إلى مصر سنة ١١٥ هـ، ووصل إلى الإسكندرية، حيث لقي هناك عالمها الأكبر، يزيد بن أبي حبيب وروى عنه كثيرا، غير أنه دائما يسكن في المدينة المنورة وزهاء خمسين سنة لم يغادرها إلا للحج إلى المكة المكرمة، وربما كان ذلك كرهه لبني أمية وما فعلوا في المدينة من أعمال فظيعة، فلم يُرو عنه أنه قام بزيارة إلى دمشق، عاصمة بني أمية، ولما قامت الدولة العباسية غادر ابن إسحاق المدينة إلى العراق، واتصل بالخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، وتوطدت الصلة بينهما، "حتى أشيع أن كتاب المغازي – أو ما عرف بسيرة ابن إسحاق وهو سبب

شهرته – قد وضعه بناء على طلب المنصور لابنه محمد الذي سيعرف بالمهدي فيما بعد "[٤٤]

مكانته العلمية: وللعلماء أقوال في توثيق علم ابن إسحاق، ومنهم يثنون على علمه، وثقته، ومنهم يتهمونه في روايته، والذين يرمونه متأثرون بمالك بن أنس، إذ تتضمن السيرة كثيرا من الأحاديث التي يحتاج إلى الجرح والتعديل. وكثير من علماء الحديث مجمعون على ثقة حديث ابن إسحاق، قال يحيى بن معين حينما سئل عن ابن إسحاق "كان ثقة حسن الحديث"[٤٥]

والطريق الآخر الذي جاء في تجريح ابن إسحاق هو من جهة الإمام مالك بن أنس، والذين تأثروا بمالك بن أنس توقفوا من حديث ابن إسحاق، وكان مالك صاحب نفوذ علم واسع، وهو الملقب بإمام دار الهجرة، وعنه اشتهر القول "لايفتى ومالك في المدينة". فأهل المدينة أمسكوا عن الرواية عن ابن إسحاق، فقد روي عن مفضل بن غسان أنه قال "حضرت يزيد بن هارون، سنة ثلاث وتسعين ومائة بالمدينة، وهو يحدث بالبقيع، وعنده ناس من أهل المدينة، فحدث بأحاديث،

[٤٤] محمد عبد اللطيف، عبد الشافي . *السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي*. ص ٣٦.

[٤٥] الخطيب البغدادي. *تاريخ بغداد*. ج ١. ص ١١٨.

حتى حدثهم عن محمد بن إسحاق، فأمسكوا وقالوا: "لا تحدثنا عنه، نحن أعلم به" فذهب يزيد يحاولهم، فلم يقبلوا منه، فأمسك يزيد" [٤٦]

ومتأثرا بمالك بن أنس أن الإمام البخاري لم يخرّج لابن إسحاق. ومن نفس السبب "إن الإمام مسلم اكتفى بحديث واحد عن ابن إسحاق"[٤٧]

كتاب ابن إسحاق: ومحمد بن إسحاق بن يسار إمام الأئمة في السيرة والمغازي، كتابه في السيرة أقدم كتاب مكتوب وصل إلى القراء، ويُسمِّى ابن النديم كتابه 'السيرة والمبتدأ والمغازي' وكانت في البداية مطولة، فأمره المنصور أن يختصره فاختصر، وجزء هام منه مفقود، وله تحقيق، الأول من قبل الدكتور محمد حميد الله باسم "المبتدأ والمبعث والمغازي" والثاني قام به الدكتور سهيل زكار باسم 'السيرة النبوية لابن إسحاق برواية يونس بن بكير'، ولابن هشام الفضل الكبير في رواية سيرة ابن إسحاق، وهو قدّمه منقحا ومهذبا، ومع لقاء الكتاب شهرة وافرة بين أوساط الكتّاب والمؤرخين، لم ينج من التنقيد والتعقيب من قبل العلماء، "لكن مروياته لا ترقى إلى درجة الصحيح، بل الحسن بشرط أن يصرح بالتحديث لأنه مدلس"[٤٨]، كأنما ليس عنده شروط معينة لقبول أخبار السيرة، وإنما غايته في كتابة السيرة التسلسل والتتابع الزمني، وجمع الأحداث التاريخية والأحاديث

[٤٦] نفس المرجع. ص٢٢٦.

[٤٧] ابن خلكان. *وفيات الأعيان*. ج٤. بيروت: دار صادر. ١٩٧٢. ص٢٧٧.

[٤٨] العمري، أكرم ضياء. *صحيح السيرة النبوية*. ج١. ص٥٦

النبوية، والأشعار العربية، وكان الإمام الشافعي يقول "من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على ابن إسحاق"[٤٩]. وبينما يسمى ابن النديم هذا الكتاب بـ "السيرة والمبتدأ والمغازي" يسميه ابن سعد صاحب الطبقات بـ "كتاب المغاري" "ولعل مرجع ذلك الاختلاف في التسمية، هو أن المسلمين كان اهتمامهم في مبدأ الأمر منصبّا على مغازي رسول الله ﷺ، وكان الصحابة يعلّمون أولادهم مغازي رسول الله ﷺ، كما يعلّمونهم سور القرآن الكريم، وذلك لأهمية المغازي عندهم"[٥٠].

وبعد ما ألف ابن إسحاق الكتاب كان محفوظا في خزانة أمير المؤمنين المنصور، وسيرة ابن هشام الذي يتداوله الناس من القرون إلا هو تلخيص لسيرة ابن إسحاق، او مختصر المختصر، ولم ير الكتاب الأصلي كاملا الضوء بعد. وبكون الآراء قوية على أن ابن إسحاق ألف الكتاب من أمر من الخليفة المنصور، وإنه لايستبعد أن تكون بداية تصنيفه حينما كان في المدينة المنورة، وذلك بأسباب:

الأول: إن الخليفة أبا جعفر المنصور أمر ابن إسحاق أن يكتب كتابا منذ خلق آدم عليه السلام إلى عصره وذلك سنة ١٣٦هـ، ولكن ابن إسحاق اكتفى بوفاة

[٤٩] الخطيب البغدادي. *الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع*. تحقيق: د. محمود الطحان.الرياض: مكتبة المعارف. ١٩٨٣.ص ٤٥.

[٥٠] محمد عبد اللطيف، عبد الشافي .*السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي* .ص ٤١

الرسول ﷺ، ولم يذكر ما بعد وفاة الرسول إلا من قصة سقيفة بني ساعدة، وهي من أمور لها من النتائج المباشرة لوفاة الرسول ﷺ.

الثاني: وكتاب ابن إسحاق يحتوي على أمور لا يرضى عنه العباسيون، مثل مشاركة جدهم العباس بن عبد المطلب في غزوة بدر في صفوف المشركين، وأسري وفدى نفسه بقدر كبير من المال، وهذه القصة من التي يكره العباسيون سماعها، ولوكان ابن إسحاق ألف كتابه حينما قدم العراق، لما يجيئ فيه خبر يستاء منه العباسيون، ولما اختصر ابن هشام كتاب ابن إسحاق ترك هذه القصة، إرضاء للعباسيين، ولكن الطبري لما روى من أصل الكتاب ذكر هذه القصة.

الثالث : إن من تلامذة ابن إسحاق كتاب المغازي المدنيون، مثل إبراهيم بن سعد بن عبد الرحمن بن عوف، ولم يعلم عنه أنه سافر إلى العرا ق، وسكن هناك زمنا طويلا، حيث يتيح له رواية الكتاب، فحتما أن إبراهيم بن سعد قد سمع من الأستاذ المغازي قبل أن يسافر إلى العراق. وإضافة إلى ذلك لم يرو ابن إسحاق عن واحد من العلماء العراقيين إذ كانوا كثيرين، بل في كتابه رواية عن العلماء من مصر الذين لاقوا ابن إسحاق أثناء رحلته إليها.

وأصل كتاب ابن إسحاق لم يكن موجودا بنصه الأصلي، والكثير الأكثر الذي يبقى منه رواية عبد الملك بن هشام عن رواية زياد بن عبد الله البكائي عن ابن

إسحاق، وابن هشام عدّل تعديلات واسعة، بالحذف تارة وبالإضافة تارة أخرى، وإليه يرجع الفضل في حفظ هذه الثروة العلمية عن سيرة الرسول ﷺ، وعلى جانب من هذا أن معظم الذي حذفه ابن هشام من كتاب ابن إسحاق، قد وصله ابن جرير الطبري في تاريخه. وكان لابن إسحاق نحوا من خمسة عشر تلميذا، ومنهم مسلمة الفضل المتوفى سنة ١٩١هـ، اعتمد عليه ابن جرير الطبري، وتلميذه الآخر يونس بن بكير المتوفى سنة ١٩٩هـ، اعتمد عليه الحاكم في 'المستدرك' وابن الأثير في 'أسد الغابة'، وابن حجر في 'الإصابة'، في رواية عن ابن إسحاق. جميع نسخ كتاب ابن إسحاق الذي نسخه تلاميذه قد ضاعت، إلا الذي نسخه تلميذه زياد بن عبد الله البكائي، وهذه النسخة هي التي أبقى كتاب ابن إسحاق على يد عبد الملك بن هشام. وزياد بن عبد الله البكائي، لفرط حبه للعلم وخاصة المغازي، باع بيته وتفرّغ لرواية سيرة الرسول ﷺ من ابن إسحاق، ولما توفي زياد بن أبيه سنة ١٨٣هـ، قد أفرغ من مهمته، وقد أوصل الكتاب تماما إلى محمد بن عبد الملك بن هشام. "ومخطوط كتاب ابن هشام قام على تحقيقه الأستاذ وستنفيلد، وطبع في مدينة جوتنجن بألمانيا سنة ١٨٥٩م"[٥١] فعندما طبع ونشر علم الناس قيمة هذا الكتاب، واتجهت إليه عناية الباحثين ودارسي سيرة الرسول ﷺ، بكمية وافرة، حتى ظهر إلى الوجود كتاب في سيرة الرسول في صورة

[٥١] نفس المرجع. ص ٥٠.

متنوعة متفرقة. وقد ظهرت للكتاب طبعة محققة، من أعظمها تحقيق الشيخ المرحوم محمد محي الدين عبد الحميد، والذي قام به الأستاذ مصطفى السقا وزملاؤه.

والذي يظهر من مراجعة الكتاب الأصلي لابن إسحاق أنه مقسم على ثلاثة أبواب: التاريخ الجاهلي، والمبعث، والمغازي. القسم الأول من الكتاب هو التاريخ الجاهلي، وسماه "المبتدأ" وفيه أربعة فصول، الفصل الأول يتكلم فيه عن الوحي منذ خلق الله العالم، حتى عيسى عليه السلام، والفصل الثاني يعالج فيه تاريخ اليمن في العصور الجاهلية، والجزء الثالث وهو بيان عن القبائل العربية وعبادتها الأصنام، والجزء الرابع ففيه يبين فيه الكاتب عن أجداد الرسول ﷺ، والملل في المكة.

وفي قسم المبعث يتكلم الكاتب تاريخ الرسول ﷺ في عهد مكة والهجرة، وأعماله ونشاطاته ﷺ، في المدينة في السنوات الأولى،"وفي هذا الجزء إلى جانب القصص التي يوردها بإسناد أو بغير إسناد، توجد وثيقة على جانب كبير من الأهمية دوّنها ابن إسحاق وحده، ولم يذكرها أحد من كتاب المغازي الأولين، تلك الوثيقة هي معاهدة المدنية المشهورة " [٥٢]

[٥٢] نفس المرجع، ص ٤٨.

أما الجزء الأخير المسمى بالمغازي، وهو تأريخ لحياة النبي ﷺ في المدينة، منذ أول يوم إلى أن توفاه الله، مع إضافة بعض الأخبار من سقيفة بنى ساعدة، حيث اجتمع أصحاب الرسول ﷺ للمناقشة مسألة الخلافة. وفي هذا الجزء يبين ابن إسحاق غزوات الرسول ﷺ في صورة تفصيلية، وجميع الأمور المتعلقة بها من تشريع وأخبار وأحكام، وينتهج منهجا واضحا ومحددا، في بيان الغزوات فأولا يقدم ملخصا للمضامين في المقدمة، وفي هذا الجزء أيضا يبين حياة الرسول ﷺ الشخصية، وأزواجه وأحواله في البيت، فعالج كل ذلك بتفصيل.

ويقول ابن حجر العسقلاني "يوجد كثير من أسباب النزول في كتب المغازي، فما كان منها من رواية معتمر بن سليمان عن أبيه – يعني سليمان بن طرخان التيمي صاحب السيرة، أو من رواية إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة عن عمه موسى بن عقبة، فهو أصلح مما فيها من كتاب محمد بن إسحاق، وما كان من رواية ابن إسحاق أمثل مما فيها من رواية الواقدي"[٥٣]

وباعتراف القصور وقلة الدقة في رواية ابن إسحاق فكل من جاء بعده بكتابة السيرة وهم متأثرون بمنهجه السردي، وتقلده جميع كتاب السيرة ردحا من الزمن.

[٥٣] العمري،أكرم ضياء، *السيرة النبوية الصحيحة*. نقلا عن ابن حجر من العجاب في بيان أسباب النزول ص ٢١.

بقية أصحاب المغازي في هذه المرحلة

معمر بن راشد البصري (ت. ١٥٣ هـ) ،هو من مولى بني حمدان، ولد بالكوفة وسافر طلبا للعلم، وكتابه في المغازي مرتب موضوعيا، واشتهر بالتعمق في علمي الحديث والسيرة، فترتيب كتاب سيرته جاء وفق منهج كتب علم الحديث،"توجد نسخة من مغازيه بالمعهد الشرقي في بشيكاغو نشرته نبيهة عبود، ولاتزال قطعة منه مخطوطة، في إسلامبول والرباط ودمشق"[٥٤].

أبو إسحاق الفزاري (ت .١٨٦هـ) سمّى كتابه في السيرة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، والكتاب في جزءين، والدكتور فاروق حمادة حقق جزءا واحدا منه، إنه خليط من الفقه والحديث والسيرة، أما السيرة فهي مطوية في طيات الكتاب، ولو عثر على الكتاب كاملا لكان أعظم الكتب في السيرة والحديث والفقه وأجلها.

محمد بن عمر بن الواقدي (ت. ٢٠٧هـ) ولد بالمدينة وتوفي في بغداد، واشتهر بلقب الواقديّ، وكان عمدة كتّاب المغاري، وكان مولى لبني سهم، وهو من بطون بني أسلم، وإن كان ثبتا في المغازي متروك في الحديث، والمستشرق الدكتور مارسدن جونس حقق المغازي للواقدي، وهو في ثلاثة مجلدات، واعتمد على المنهج التاريخي في ذكر الوقائع والأحداث، وكتابه صار عرضة النقد لكثير من

[٥٤] مهدي، رزق الله أحمد. *السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية*. ط١.الرياض: مكتبة فيصل. ١٩٩٢.ص ٢٧.

العلماء وفي مقدمتهم الذهبي "جمع فأوعى، وخلط الغث بالسمين، والخرز بالورد السمين، فأطرحوه لذلك، ومع هذا فلا يستغنى عنه في المغازي وأيام الصحابة وأخبارهم.. . . وقد تقرر أن الواقدي ضعيف، يحتاج إليه في الغزوات والتاريخ، ونورد آثاره من غير احتجاج"[٥٥]، وفي كتابه زيادة لا توجد عند الآخرين، ويختلف عن ابن إسحاق بذكر سير المعارك العسكرية، وبعض الحوادث الجانبية، ويعتبر في المرتبة الثانية بعد ابن إسحاق في سعة العلم بالمغازي والسير، وكان بصيرا في المغاري، وقد صنف فيها كتابا ذكره ابن النديم في الفهرست، وأخذ منه ابن سعد في كتابه الطبقات الكبرى في الجزء الخاص بسيرة الرسول، وكذلك فعل الطبري. وقد نبغ الواقدي في علم المغازي والسيروالتاريخ الإسلامي.

ومغازي الواقدي يكثر فيه أخبار النبي ﷺ في المدينة، وهو يحب أن يذكر فقه الحديث أكثر من ابن إسحاق. غير أن صلته بالخلفاء العباسيين جعلته في موضع تهمة، وإنه أعرض عن ذكر الوقائع التي تسوئهم، ومن أمثلة ذلك حذف اسم العباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، من جملة أسماء الذين شاركوا في معركة بدر من مشركي مكة، ووقوعه أسرى في يد المسلمين.

[٥٥] الذهبي. *سيرأعلام النبلاء*.ج٩ .ص٤٥٤.

وإن كان نقد العلماء للواقدي كثيرا واختلافهم عنه مشهورا، ولا اختلاف بينهم في سعة علمه بالمغازي والسير، كما كان عالما بالفقه والحديث والتفسير. وابن النديم يذكر للواقدي قريبا من أربعين كتابا في مختلف العلوم الإسلامية، أشهرها في السير والمغازي، والفتوح، كفتوح الشام، وفتوح العراق.

محمد بن سعد (ت. ٢٣٠هـ)، وهو آخر الكتاب الكبار في المعازي والسير، وهو من الموالي ولد بالبصرة، سافر إلى المدينة المنورة، وإلى بغداد، وهناك اتصل بأستاذه محمد بن عمر الواقدي، ونشأ بينهما تعلق تام وارتباط وثيقة، حتى صار من مدوّن كتابه وأحاديثه، واشتهر بكاتب الواقدي، وأكثر كتب ابن سعد الذي استفاد من الواقدي، غير أنه سمع من جمع من العلماء مثل ابن إسحاق، وأبي معشر السندي، وموسى بن عقبة، ولابن سعد فضل في ترتيب علم الواقدي، وهو الذي أكمل ما كان ناقصا في كتاب الواقدي من أخبار الجاهلية. والطبقات الكبرى لابن سعد أكبر المصادر الإسلامية، في السير والمغازي، وسيرة الصحابة والتابعين وطبقاتهم، وهذا الكتاب في ثمانية أجزاء، والجزء الأول والثاني منه يبين فيه سيرة الرسول ﷺ، ومغازيه، وكما تتلمذ ابن سعد لمشاهير الكتاب والعلماء، ومن حسن حظه أن يصير أستاذا لكبرائهم، مثل البلاذري.

عبد الملك بن هشام (ت. ٢١٣ هـ) ويعتبر آخر الرجال في هذه الطبقة، وأشهرهم، ويتجلى عمله في السيرة بتهذيب سيرة ابن إسحاق، وذلك بعد الحصول على

الإجازة لروايته من زياد بن عبد الله البكائي (ت١٨٣ هـ)، وهو أكثر الناس صحة في الرواية من ابن إسحاق، وعليه أملى ابن إسحاق الكتاب مرتين، قام ابن هشام في سيرة ابن إسحاق تعديلات بالإضافة والحذف، وإن كان ابن إسحاق ملأ السيرة والتاريخ الإسلامي بالإسرائيليات، والأشعار المنتحلة، فابن هشام حذف منهما كيثرا لم يثبت صحتهما عنده. وقد جعل ابن هشام عمله هذا واسع القبول بين أوساط العلماء، ونال فائق الاحترام والرضا، حتى إن سيرة ابن إسحاق نسب إلى ابن هشام.

واعتناء العلماء في استعداد الشروح والتعليقات، والحواشي والتحقيقات، أعظم دليل على ما ناله كتاب ابن هشام قبولا وشهرةومن أهمها:

أ. **الروض الأنف شرح سيرة ابن هشام:** لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت. ٥٧١ هـ)، وهذا الكتاب أكمل الشروح وأكثرها جمعا.

ب. **شرح غريب ابن إسحاق** (شرح السيرة النبوية رواية ابن هشام) لأبي ذر بن محمد بن مسعود الخشني (ت. ٦٠٤ هـ).

ت. **المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**، للعلامة شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد القسطلاني الشافعي المصري، (ت. ٩٢٣ هـ)، وقام بتحقيقه صالح

الشامي في أربعة أجزاء، ويمتاز الكتاب بذكر الأقوال والآراء، معتمدا على سيرة الحافظ ابن سيد الناس، وسيرة الشمس الشامي. وجمع المؤلف فيه أحداث السيرة النبوية، والحديث عن أخلاق الرسول ﷺ، وخصائصه وشمائله. ونواب صديق حسن خان يورد في كتابه 'أبجد العلوم' نقد السيوطي على القسطلانيّ " لما صنّف القسطلاني كتابه : المواهب اللدنية، وأورد فيه النقول من كتب السير والأحداث، قال له السيوطي : هذه الأقوال من كتبي، ولم تسمّني ولا كتبي، وإن كنت نقلتها من غير كتبي، فأتني بأصولها؟ فعجز القسطلاني" [٥٦]

ث. **شرح المواهب اللدنية للإمام الحافظ محمد بن عبد الباقي** بن يوسف الزرقاني المالكي، (ت. ١١٢٢ هـ)، وهو في ثماني مجلدات، وعمل فيه الزرقاني نقدا للمرويات، وميز بين الصحيح والضعيف، وذكر الأقوال الراجح منها.

ج. **وفاء الوفا بأخبار المصطفى** لنور الدين أحمد السمهودي (ت. ٩١١هـ).

ح. **السيرة الحلبية** المسماة إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون، لنور الدين الحلبي (ت .١٠٤٤هـ)، وكان عملا معتمدا على سيرة ابن سيد الناس، واعتنى الكاتب في بيان بطلان المرويات.

[٥٦] محمد صديق خان بن حسن بن علي. *أبجد العلوم*. ط١. ج٣. دار ابن حزم. ٢٠٠٢. ص ١٢٤.

مميزات كتب السيرة في مرحلتها الأولى

اكتسبت كتب السيرة في مرحلتها الأولى بمميزات منها:

أولا: كان أكثر كتّاب السيرة وجامعيها كانوا من المدينة المنورة، وذلك لأمر طبيعيّ لأن معظم وقائع السيرة كانت محيطة بالمدينة، والصحابة الذين عايشوا أحداث السيرة كانوا في المدينة، والذين جاءوا بعدهم من التابعيين تلقوا منهم بحرص بالغ، وكان الناس يقصدون المدينة للسماع من الصحابة، حتى بلّغوا ذلك إلى رجال التدوين، وحفظوه مع البيان، حتى يصل إلى الأجيال التالية.

ثانيا: السيرة والمغازي كانت في البداية جزء من الحديث، رواها الصحابة كما رووا الأحاديث، واستمرت الحال إلى أمد، ثم انفصلت عن علوم الحديث، وأصبحت السيرة فنا مستقلا، وتميز بها علماؤها ومؤلفوها، و'الموطأ' للإمام مالك بن أنس (١٧٩هـ) أول كتاب مدوّن في الحديث، وقد أورد المُصنّف في الكتاب أحاديث تتعلق بسيرة الرسول ﷺ، وأوصافه وأسمائه، وأخبار تتعلق بمغازيه. حتى إن الإمام البخاري(ت ٢٥٦هـ) ومسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ) تقلدا هذا المنهج، فصحيحاهما يشتمل على جزء كبير من مغازي الرسول ﷺ، وفضائله، ولم يتوقف هذا عند البخاري ومسلم، بل اتبعه أصحاب السنن والمسانيد.

ثالثا: وكانت العناية بالإسناد شغلا شاغلا لأصحاب السيرة والمغازي الأوائل، والتزم بعضهم لمراعاة سير الحوادث وترتيبها في نمط واحد في جمع الأسانيد، وجمعوا بعده المتن، كمحمد ابن إسحاق، ومحمد بن عمر الواقدي. فلم يذكروا لكل متن السند، قاصدين بذلك بيان الحادثة التاريخية في إيجاز تيسيرا للقراءة، ولم تنج هذه الطريقة من تعقيب المحدثين.

كتب الشمائل في سيرة الرسول ﷺ

وبجانب الكتابة في السيرة والمغازي، تطور نوع آخر من السيرة، وهو جمع ما روي من شمائله ﷺ، وأقدم من أفرد في الشمائل كتابا مستقلا أبو البختري وهب بن منبه (ت ٢٠٠هـ)، وسمّى كتابه 'صفة النبي ﷺ'. ثم جاء بعده الحافظ أبو الحسن علي بن محمد المدائيني، (ت ٢٧٠هـ)،في كتابه 'صفة أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، وأشهر الكتب في شمائل الرسول ﷺ، هو 'الشمائل النبوية والخصائص المصطفوية' للحافظ الإمام أبي عيسى محمد ين عيسى بن سورة الترمذي(ت ٢٧٩هـ)، وكتاب 'الشمائل' لمحمد بن المستغفري (ت ٤٣٢هـ).

يقول الحافظ ابن كثير"قد صنف الناس في هذا، قديما وحديثا، كتبا كثيرة مفردة، ومن أحسن من جمع في ذلك فأجاد وأفاد الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي رحمه الله، أفرد في هذا المعنى كتابه المشهور ب'الشمائل' ولنا

به سماع متصل إليه، ونحن نورد عيون ما أورد فيه، ونزيد عليه أشياء مهمة لا يستغنى عنها المحدث والفقيه".[٥٧] .

وكُتّاب السيرة في القرون الثلاثة الأولى اجتهدوا على جمع الروايات وتدوينها في كتبهم، وانتقوا ما استطاعوا الإنتقاء، يظهر هذا بمراجعة المصنفات ومصادرها الأقدم، كما كان المتأخر يسقط قطعة من روايات المتقدم، كما يتضح ذلك عند ابن هشام مع ابن إسحاق، والطبري في مصادره الأولية.

ابن جرير الطبري وسيرة الرسول ﷺ (ت ٣١٠هـ)

وقد ساهم محمد ابن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري في كتابة سيرة الرسول مساهمة لا تجحد، وكتابه 'تاريخ الأمم والملوك' المشهور بتاريخ الطبري يتداول قسطا كبيرا من سيرة الرسول ﷺ، "وهذا الكتاب من الأفذاذ في الدنيا، فضلا ونباهة، وهو يجمع كثيرا من علوم الدين والدنيا، والكتاب في نحو خمسة آلاف ورقة"[٥٨]

والقسم الثاني من الكتاب تاريخ العالم بعد الإسلام، ابتداء من نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وهذا القسم من الكتاب يتضمن أربعة عهود متميزة، والعهد الأول هو عهد الرسول ﷺ، والبعثة النبوية، وسيرة الرسول ﷺ، وغزواته، حتى سنة

[٥٧] ابن كثير. *البداية والنهاي*. ط٤. ج٨. بيروت:دار الكتب العلمية. ١٩٨٨.ص٣٨٥.

[٥٨] ياقوت الحموي. *معجم الأدباء*.ج١٨. دار الصادر. ١٩٧٩.ص٧٠.

١١هـ الموافق ٦٢٠م. واعتمد في كتابة التاريخ على مصادر متنوعة، ولم يعتمد على المادة التاريخية من مرويات شفوية فحسب، أو على مصادر مدوّنة متفرقة، ولكنه أخذ من كتب مدوّنة كبيرة ومشهورة قد اطلع عليها، ألّفت في القرنين السابقين، الثاني والثالث الهجري، ولم يستمد شيئا من كتب معاصريه.

وفي سيرة الرسول ﷺ اعتمد الطبري على كتب التفسير، وكتب السيرة النبوية، وخاصة كتاب وهب بن منبه، وسيرة ابن إسحاق، ومن هنا تسربت الإسرائيليات إلى كتابه. وأيضا اعتمد على كتب كتّاب السيرة الأوائل، مثل أبان بن عثمان، وعروة بن الزبيربن العوام، وموسى بن عقبة، وابن شهاب الزهري، وشرحبيل بن سعد. وجمع في كتابه جميع المواد المودعة في كتب الحديث والتفسير واللغة والأدب والسير والمغازي، وتاريخ الأحداث والرجال، ونسّق بينها تنسيقا مناسبا، وعرضها عرضا جميلا. يقول أحمد أمين "وقد عني الناس بتاريخه كثيرا، حتى ليكاد أن يكون عماد كل مؤرخ بعده" [٥٩]

وقد بلغ التحقيق والترتيب في كتابة التاريخ أوجه عند الطبري، صرح بمنهجه في مقدمة كتابه "وليعلم الناظر في كتابنا هذا أنّ المتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه، مما أنِّي راسمه فيه، إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك بحجج كان من أخبار

[٥٩] أمين، أحمد. *فجر الإسلام*. ج٢. ص٢٠٤.

الماضين، وما هو كائن من أنباء الحادثين، غير واصل إلى من لم يشاهدهم، ولم يدرك زمانهم، إلا بإخبار المخبرين، ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس، فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أوتي من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنما أدّينا ذلك على نحو ما أُدّي إلينا" [٦٠]

عرض الطبري تاريخ ما بعد الإسلام من خلال منهج محدد، واتبع طريقة واضحة في معظم الأحوال، ومن خصائصها، نظام الحوليات، ونقل الروايات، والاعتماد على المصادر، وجمع الأخبار وضبط النصوص، واستطراد في ذكر الأسباب والتفصيلات المصاحبة، ووضع العناوين للأحداث.

وطريقة الحوليات انفرد بها المؤرخون المسلمون عن اليونان والرومان،وأوربة في العصور الوسطى، وتاريخ الطبري أقدم كتاب موجود في هذه الطريقة، وإن كان المؤرخون مثل الهيثم بن عدي، وجعفر بن محمد بن الأزهر، سبق الطبري في هذه الطريقة، ولكن تلك الكتب غير موجودة، وسار على طريقة الطبري ابن مسكويه(ت.٤٢١هـ)، وابن الجوزي (ت.٥٩٧هـ)، وابن الأثير (ت.٦٣٠.هـ) وغيرهم.

[٦٠] ابن جرير الطبري. *تاريخ الطبري*. ج١. بيروت: دار سويدان. بيروت:د.ت .ص ٥.

واعتمد الطبري في معظم كتابه على الرواة، وقال من القائلين"بأن المؤرخين لا يجوز لهم الاستناد إلى المنطق والقياس والاستنباط، وإنما اعتمادهم على ما ينقل إليهم" [٦١]

فكتابةسيرةالرسول ﷺ منذ البداية إلى نهاية القرن الثالث الهجري اتخذت صورة مختلفة' برغم أنها لم تمس قالب الأسلوب قلبها، فكل مؤرخ أو مؤلف اختار طريقا مبتدعا فيه أو مقلدا، حتى فتح الباب أمام الجيل القادم بطريق أوسع،وظهرت كتب المغازي والسيرة وكتب الشمائل لتثري مجال كتابة السيرة ولخدمة التاريخ الإسلامي.

[٦١] نفس المرجع. المقدمة.

الفصل الثالث
كتابة سيرة الرسول ﷺ عند المتأخرين

وقد نشطت الكتابة في سيرة الرسول ﷺ عند المتأخرين بطريق أوسع، وهم الذين عاشوا منذ القرن الرابع الهجري، ويمتد هذا العصر إلى العصر الحديث. وقد ساهم في هذه المرحلة العلماء بمؤلفات ثمينة مستخدمين مختلف المناهج في تصوير أحداث السيرة. مع وجود المنهج السردي والتاريخي، مال المؤلفون في هذه المرحلة إلى المنهج التحليلي. وظهر هذا المنهج في تفاسير القرآن الكريم وكتب الأحاديث وشروحها، وقد ظهر في هذه المرحلة عديد من المؤلفات المستقلة وغير المستقلة في مجال كتابة السيرة على أيدي المفسيرن وعلماء الحديث.

منهج المتأخرين في كتابة سيرة الرسول ﷺ

إن عددا من تفاسير القرآن الكريم بما فيها من تفاسير الآيات متصلة بالسيرة الرسول ﷺ، وبعض شروح السنة النبوية أيضا، لا سيما شروح البخاري ومسلم، وما ورد فيها من نصوص تتعلق بأحداث السيرة يعد في إطار كتب السيرة، وإثراء لعلومها، ويأتي دور ابن كثير المفسر وعالم الحديث في هذا المجال في المقدم، إذ قام بتنسيق سيرة الرسول ﷺ ضمن موسوعته التاريخية 'البداية والنهاية'،

وكأنما حرص أن يكون كتابه غير مسبوق في السيرة، بل أتى بجميع الروايات في السيرة من مختلف كتب السيرة، وبجانب ذلك حاول تحقيق الروايات ونقدها وتمييز صحتها من ضعفها ما استطاع. هذا وإن تخريج الأحاديث الواردة في سيرة الرسول ﷺ، وتحقيق روايتها، صار نصب عين الجهابذة من هذه المرحلة، ولا يزال اهتمامهم فيه يستمر حتى العصر الراهن، إذ كانت كتب السيرة مملوئة بالغث والسمين. وابن كثير قام بالشرح والتعليق على الأحاديث الواردة فيها، ويظهر خصائص أسلوب ابن كثير في كتابة السيرة عند ما تتم تصفح كتب السيرة بعد ابن كثير، وإنه ألفت كتب كثيرة في السيرة على منهج جمع الروايات وترتيبها حسب الزمن والسنة. وأحكم ابن كثير المنهج التاريخي وأتى بشيئ من المنهج التحليلي.

ومن كتب المتأخرين كتاب 'الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام' لأبي القاسم السهيلي (٥٧١هـ) وهو شرح وتبسيط لسيرة ابن هشام، والكتاب يتضمن على سبعة أجزاء. وكتاب 'سبل الرشاد في سيرة خير العباد' لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت ٩٤٢هـ)، ركز الكاتب فيه على الرواية الموثوقة بها، واعتمد على أكثرمن ثلاث مائة كتاب. وأسهب في فضائل الرسول ﷺ وسيرته، وهو يتضمن على سبع مائة باب، في اثني عشر مجلدا، وهو من أحسن ما ألف المتأخرون في سيرة الرسول ﷺ، وفي آخر كل باب أوضح الكاتب ما أشكل فيه، وبين غرائب الألفاظ.

و تطور هناك منهج آخر في كتابة السيرة وهو الكتابة الموضوعية، وهذا المنهج يتناول موضوعا واحدا وما اتصل به من وقائع في كتاب منفصل، كما هو واضح عند القاضي عياض(ت. ٥٤٤هـ) في كتابه 'الشفا في التعريف بحقوق المصطفى'، وكما فعل أحمد حسين المعروف بالبيهقي (ت. ٤٥٨هـ) في 'دلائل النبوة'، وصار هذا المنهج زادا لعمالقة كتّاب السيرة في العصر الحديث الذين أفردوا كل أحداث السيرة في كتاب على حدة، مثل الغزوات، والأخلاق ﷺ، وكتاب 'زاد المعاد في هدي خير العباد' لابن القيم الجوزية (ت.٧٥١هـ)، قدّم طريقا متميزا في كتابة السيرة، وهذا المؤلَّف عظيم الشأن في خمسة مجلدات رتبها المؤلف حسب المواضيع الفقهية، ومواضيع التاريخ والسيرة النبوية.

وتقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت.٨٤٥هـ) في كتابه 'إمتاع الأسماع بما للرسول ﷺ من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع'، ابتكر منهجا آخر، وهو صياغة السيرة علميا، وجمع كل ما استطاع من كتب السيرة في كتاب ضخم، بعد تنظيم المعلومات وترتيبها، ويتضمن جوانب كثيرة من حياة الرسول ﷺ، ولخص فيه أحوال النبي ﷺ من جميع نواحيها.

ومحمد بن يوسف الصالحي الشامي(ت.٩٤٢) في كتابه 'سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد' قدّم موسوعة في سيرة الرسول ﷺ، واعتمد فيها على أكثر من

مائة مصدر. والكتاب يشتمل على ألف باب، ولكن كثيرا من روايتها بدون تحقيق وتمحيص.

والإمام أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي (ت.٦٣٤هـ)، ألف كتابا باسم 'الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء' والكتاب بدون الإسناد في رواياته للأخبار بالنسبة إلى الكتب المغازي السابقة.

وصنّف أبو الفتح محمد بن محمد المعروف بابن سيد الناس اليعمري الأندلسي (ت.٧٣٤هـ) كتابا باسم 'عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير' والكتاب يركّز على المعلومات المهمَة من السيرة، وضبطا للأعلام وأسماء الأماكن. وقد اختصره وسماه 'العيون في تلخيص سيرة الأمين والمأمون'، وللكتاب شرح بقلم الشيخ برهان الدين إبراهيم بن محمد الحلبي (ت .٨٤١ هـ).

المؤلفات المشهورة للمتأخرين في سيرة الرسول ﷺ

وقد كثرت المؤلفات في السيرة عند المتأخرين، كما مر ذكره، ومن بينهم من ألف أكثر من واحد في هذا المجال ومن أشهرهم :

ابن عساكر (ت.٥٧١هـ)

علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله، أبو القاسم الدمشقي، المعروف بابن عساكر، ورحل في طلب العلم وخصوصا علوم الحديث، إلى العراق والحجاز وبلاد العجم، وأصبح محدث الشام في عصره، ومن الأشخاص البارزين في الفقه الشافعي، ومن كتابه المشهور 'تاريخ دمشق الكبير' وعرف باسم تاريخ ابن عساكر، والكتاب في ثمانين مجلدا، وللكتاب اختصار من الشيخ عبد القادر بدران وابن منظور، وسمَّى عبد القادر بدران لاختصاره 'تهذيب تاريخ ابن عساكر' على حين حمل مختصر ابن منظور باسم 'مختصر تاريخ دمشق'

ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ)

هو علي ابن محمد بن محمد عبد الكريم، أبو الحسن الشيباني، وعرف بكنية ابن الأثير الجزري الموصلي، ولد في جزيرة ابن عمر، - وهي داخلة ضمن حدود الدولة التركية حاليا في أعالي الجزيرة السورية - وكان له أخوان عالمان فنشأ معهما، وتجول في البلدان طالبا العلم، فوصل إلى بغداد، والشام والقدس والحجاز.

ومن كتبه 'الكامل' في التاريخ والسيرة، في اثني عشر مجلدا، رتبه حسب السنين، من أول التاريخ حتى سنة ٦٢٩هـ، والأحداث والوقائع التي تمس سيرة الرسول ﷺ من مباحث هذه المجلدات، وكتابه 'أسد الغابة' مرتب على الحروف، وهو يحتوي على تراجم الصحابة، وفي طيات هذا الكتاب أيضا تجئء أحداث سيرة الرسول ﷺ.

ابن قيّم الجوزية (ت. ٧٦٩ هـ)

هو أبو عبد الله، شمس الدين، الزرعي، ثم الدمشقي، الحنبلي، الشهير بـ "ابن قيم الجوزية". القيم في اللغة هو: الشخص السائس للأمر، القائم عليه بما يصلحه، "تتفق كتب التراجم على أن المشتهر بهذا اللقب "قيم الجوزية" هو والد هذا الإمام: الشيخ أبو بكر بن أيوب الزرعي، إذ كان قيّما على المدرسة الجوزية بدمشق مدة من الزمن، فقيل له : 'قيم الجوزية' واشتهرت ذريته وحفدتهم من بعد بذلك"[٦٢].

ألّف ابن قيم كتبا كثيرة حتى بلغ مجموع هذه الكتب ٩٨ كتابا، ومنها مطبوع وما لم يطبع بعد، ووجدت كتبه قبولا واسعا في أيامه، وذلك لتنوع موضوعاتها، وعمق المعالجة، وبما أضافه من جديد إلى الموضوع الذي تناوله بالبحث، ومنها التفسير، والسنة، وأصول الدين، وأصول الفقه والفقه والتصوف والسنن

[٦٢] الشامي، صالح أحمد. *الإمام بن قيم الجوزية الداعية المصلح والعالم الموسوعي*. دمشق:دار القلم. ٢٠٠٨. ص ٣٣

الإلاهية، وسيرة الرسول ﷺ. وتفسير القرآن لابن القيم، هو ما جاء تفسيرا للآيات في كتبه المتعددة، إلا تفسير 'المعوذتين' وقد جاء تفسير هاتين السورتين في كتابه 'بدائع الفوائد'، ويلحق به تفسير سورة 'الفاتحة' التي استفتح بشرحها كتابه 'مدارج السالكين' في عشرين ومائة صفحة تقريبا. وفي الحديث له خمسة كتب، ومؤلفاته في أصول الدين قد خرج عن الأسلوب التقليدي، وتعني بأصول الدين الأمورُ الاعتقادية مما يتعلق بالألوهية والنبوات والإيمان والقدر، وغير ذلك، وكتابه 'شفاء العليل' يتناول بحث 'القدر' وتناول في كتابه 'اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية' مسألة رئيسية من مسائل الاعتقاد، وهي "علو الله تعالى وأنه فوق كل شيئ". وهكذا سلك ابن القيم في كل العلوم التي تناوله مسلكا مبتكرا لم يسبق إليه.

أما في سيرة الرسول ﷺ فيكفي له كتاب 'زاد المعاد في هدْيِ خير العباد' ويقول أبو الحسن الندوي عن الكتاب "وأعتقد أنه ليس هناك كتاب جامع ألف للعمل والإصلاح بعد كتاب "إحياء العلوم" للغزالي، بل قد يفوقه من ناحية التحقق والإسناد والتطبيق بين الكتاب والسنة"[٦٣]

[٦٣] الندوي، أبو الحسن علي حسن. *رجال الفكر والدعوة*. ط٣. ج٢. دار ابن كثير. ٢٠٠٧. ص٢٦٧.

وقد اهتم ابن القيم اهتماما خاصا بالسيرة معتبرا أنها وسيلة التعريف بالرسول ﷺ، وانتهج فيه المنهج التحليلي، ويقول في مقدمة الكتاب "وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ، فيجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم"[٦٤]. ومن هذا البيان يتضح أن السيرة التي يريدها ابن القيم ليست هي السيرة التقليدية التي تهتم بذكر الحوادث حسب السنين، بل يريد أن يضيف إليه السنة النبوية التطبيقية التي تهتم بذكر شمائله وأخلاقه. وكتاب زاد المعاد أكثر جمعا لخصائص مؤلفاته، ويحتوي في نفس الوقت على مواضيع مختلفة، من السيرة والسنة والفقه وعلم الكلام والتزكية والإحسان، تناول في أول الكتاب البعثة المحمدية، ومراتب الوحي، وذكر بعد ذلك المراحل التي مرت به الدعوة الإسلامية، وحاول أن يبجث معنى ودقائق الأسماء المباركة، فجمع كل ما يتصل بالسيرة وشخصية الرسول ﷺ من التفصيل فصارت خزانة قيمة للأخلاق والشمائل والعادات النبوية. وهو يبين مراتب الجهاد وحقيقتها في غاية من التحقيق والمعرفة قبل أن يشرع الكلام عن الغزوات. والكتاب في خمسة أجزاء والجزء

[٦٤] ابن قيّم الجوزية . *زاد المعاد*. ط١. ج١. دار الرسالة. ١٣٣٩. ص٦٩.

الأول منه يتناول سيرة خير العباد، والثاني عن الهدي النبوي في العبادات، والثالث الهدي النبوي في الفضائل والآداب، أما الجزءان الرابع والخامس وهما يبحث في الطب النبوي، وأقضية الرسول ﷺ.

ومن هذا يتبين أن المتأخرين من العلماء المسلمين ومؤرخيهم لم يعرضوا عن طريقة الكتابة التقليدية ولم يرضوا فيها بمجرد التقليد، حرصا أن تكون أعمالهم سهل التداول جم الفوائد، كما هو موجود في الجيل اللاحق.

ابن كثير وإسهاماته في سيرة الرسول ﷺ (ت.٧٧٤هـ)

وبعد ابن القيّم يظهر ابن كثير بزيّه الفاخر، وله إسهامات هامة في كتابة سيرة الرسول ﷺ، هو أبو الفداء، عماد الدين، إسماعيل بن عمر بن كثير، القيسي القرشي، من أشهر العلماء الأعلام في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر االميلادي، وحصل على ثقة العلماء في عصره. مع مساهمته في علوم القرآن، وتفسير القرآن العظيم، والحديث، اهتم ابن كثير بعلم التاريخ أيضا، وصنّف فيه موسوعته الكبيرة 'البداية والنهاية' واخترع فيه منهجا لم يسبق إليه، وعُدّ من عمدة المؤرخين، وأصبح كتابه أكثر المصادر تداولا وثقة، وتفرع عنه عدة كتب طبعت مستقلة، حيث نال مكانة كمؤرخ لا تقل عن شهرة ومكانة وامتياز في التفسير والحديث.

خصص ابن كثير جانبا من التاريخ بالعناية والتوسع، وقسم سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، فصنّف فيها سيرة مطولة. وقد يُذكر لابن كثير مؤلفات في سيرة الرسول ﷺ بعض منها مستقل والبعض الآخر مقتبس من مؤلفاته الأخرى، ومنها:

١. **الدلائل، معجزات النبي (ﷺ) :**

وهو كتاب مقتبس من 'البداية والنهاية' بدراسة محمد عبد العزيز الهلّاوي، نشرته مكتبة القرآن بالقاهرة سنة ١٩٩٢م، ويتضمن الكتاب على مقدمة، والتعريف بالمؤلف، وعرض المحقق دلائل النبوة، وقسمها إلى حسية ومعنوية، وقد بيّن المحقق في المقدمة أنه نقل'دلائل النبوة' لابن كثير من كتابه البداية والنهاية ووضع بعض الشروط لقبول الروايات لضمان سلامة المروي، وأنه التزم بها، وخرج الأحاديث، وضبط الألفاظ والآيات، عزاها إلى السور، وترك نقل بعض الأحاديث شديدة الضعف والتي نبّه عليها ابن كثير. وللكتاب أيضا نسخة أخري باسم' صحيح معجزات النبي ﷺ' جمعه ورتبه وقدمه طه عبد الرءوف سعد، من مكتبة الصفا سنة ٢٠٠٥، يقول المحقق " فإنه ليشرفني أن أضع قلمي وأساهم بعلمي القليل في هذا الكتاب القيم الطيب المبارك لإمام الأئمة وعالم الأمة المفسر المحدث عالم عصره ومثقف دهره العالم العلامة الحبر البحر الفهامة شيخ علماء عصره وأمير بلده ومصره، الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل

بن كثير القرشي الدمشقي.... وهذا الكتاب الذي هو جزء من الكتاب الكبير "البداية والنهاية"[٦٥]

٢. **ذكر مولد رسول الله (ﷺ) ورضاعه:**

هذه رسالة كتبها ابن كثير، غير أنه لم يأت في قائمة المؤرخين، لأنهم اكتفوا على الكتب الكبيرة والمهمة لابن كثير، وعثر على مخطوطه الدكتور صلاح الدين المنجد، في مكتبة جامعة برنستون بأمريكا، فحققها ونشرها في الطبعة الأولى سنة١٩٦١م، بدار الكتب الجديد بيروت، وبين الدكتور صلاح الدين المنجد، أن ابن كثير ألف هذا الكتاب حسب طلب الشيخ عماد الدين أبي بكر بن حسن، فذكر فيه نسب رسول الله ﷺ وأخبار جده، وأبيه وأمه، وصفة مولده، وأخبار رضاعه، وصفاته، وشمائله، وأخلاقه. وأن الأستاذ ياسين محمد السواس ومحمود الأرناؤوط أعادا تحقيق هذه الرسالة القيمة، ونشرت بعنوان 'ذكر مولد رسول الله ﷺ ورضاعه'. وذكرا العامل لإعادة تحقيق هذه الرسالة، لمراجعة النقول ومقابلتها، وتخريج النصوص الحديثية، وشرح الألفاظ الغريبة، وترجمة بعض المجاهيل من الأعلام، وعمل فهارسة عامة.

[٦٥] ابن كثير. *صحيح معجزات النبي ﷺ*. جمع وترتيب طه عبد الرءوف سعد. مكتبة الصفا. ٢٠٠٥. ص ٧.

٣. السيرة النبوية :

وقد ذكر ابن كثير عن كتابه 'السيرة النبوية' ولم يبين أ هو مختصر أم مطول، يقول في تفسير سورة الأحزاب، في غزوة الخندق "وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه في كتاب السيرة، الذي أفردناه موجزا، وبسيطا، ولله الحمد والمنة"[٦٦] وكتاب 'السيرة' هو المفصل في اختصار سيرة الرسول. أما كتابه المطول فلم يوجد، ومن المحتمل أن يكون قد ألفه قبل كتابة تفسير القرآن، "والغالب أن ابن كثير رحمه الله تعالى ضمه إلى كتابه 'البداية والنهاية' ثم فصله العلماء المعاصرون من جديد"[٦٧].

فمساهمة ابن كثير المهمة في سيرة الرسول ﷺ وهي مطوية في طيات كتابه "البداية والنهاية" يقول مصطفى عبد الواحد، وهو الذي أفرد 'السيرة النبوية' لابن كثير من كتاب "البداية والنهاية" في أربع مجلدات، "ويبدو أنه حين ألف كتابه الضخم "البداية والنهاية" قد أدمج تلك السيرة فيه، وأن شهرة ذلك الكتاب وانتشاره في الأنحاء قد جعل الناس يقرؤون تلك السيرة فيه، ولم يعد لها كيان مستقل ككتاب، وإذا كان ابن كثير قد ذكر أن له السيرة النبوية مبسوطة (أي مطولة)، فإنه لا يعقل أن يكتب فيها أكثر من ذلك القسم الموجود بكتابه

[٦٦] ابن كثير، *تفسير القرآن العظيم*، ج٥، ط١ الشارقة:دار الفتح، ١٩٩٦، ،ص ٤٨٧، تفسير سورة الأحزاب

[٦٧] الزحيلي، محمد .*ابن كثير الدمشقي*.ط١. دمشق: دارالقلم. ١٩٩٥. ص ٣١٦.

"البداية والنهاية" ومن هنا فقد اتجهت إلى نشر "السيرة النبوية لابن كثير" وهي ذلك القسم الذي أفرده ابن كثير لأخبار العرب في الجاهلية، وسيرة النبي صلوات الله وسلامه عليه وتاريخ دعوته، حتى وفاته، على اعتبار أن هذا القسم هو السيرة النبوية المطولة التي أشار إليها ابن كثير في تفسيره"[٦٨]

٤. شمائل الرسول ﷺ ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه:

هذا الكتاب أيضا جزء من كتاب 'البداية والنهاية' قام بإفراده الدكتور مصطفى عبد الواحد والكتاب في ٥٨٤ صفحة، وقد خلط ابن كثير في هذا الكتاب ثلاثة أصناف، وهي الشمائل، ودلائل النبوة،و الخصائص والفضائل.

٥. الفصول في سيرة الرسول ﷺ

وهي"السيرة المختصرة" لابن كثير، وقد أشار إلى هذه السيرة ابن كثير نفسه، وأنه صنف كتابين في السيرة مطولة ومختصرة، وكتابين في التاريخ، مطول ومختصر، وهما 'البداية والنهاية' و'الكواكب الدراري' وضم كتاب السيرة المطول إلى 'البداية والنهاية' وضم الكتاب المختصر 'الكواكب الدراري' إلى'السيرة المختصرة' فصارت الكتب أربعة.

[٦٨] نفس المرجع.ص٣١٧.

ويظهر من هذا كله أن الكتب الثلاثة لابن كثير: 'السيرة النبوية' و'الفصول في سيرة الرسول' و'شمائل الرسول ودلائل نبوته، وفضائله، وخصائصه' هي من أهم ما كتب في السيرة النبوية، وأشملها وأدقها.

منهج ابن كثير في السيرة:

وقد انتهج ابن كثير في كتابة السيرة منهجا مبتكرا يتضح فيما يلى:

وأسلوب ابن كثير في السيرة واضح سهل، يختار العبارة القصيرة، وربما يأوي إلى السجع متأثرا بأسلوب عصره، والكلمات عنده طبيعية، لم يتكلف لها كلفة، ولم يحرص على جمال العبارة، لأنه فقيه، ومؤرخ، ومحدث، وليس من الأدباء المتفننين. واختار الأسلوب العلمي، ولم يعتن بأناقة التعبير، ولم يترك الحقيقة يضيع في طيات الأسلوب الأدبي.

واهتم ابن كثير برواية الأسانيد، متأثرا بعلم الحديث، وتمشيا مع تخصصه الدقيق كحافظ ومحدث. وجمع أخبار السيرة ما رواها أصحاب السيرة مثل ابن إسحاق، وابن هشام والسهيلي، وأضاف إليها ما رواه أصحاب الحديث في الشمائل ودلائل النبوة، فاستطاع أن يكتسب خصوصية فذة بين كتب السيرة الأخرى، واخترع منهجا في خلط وقائع السيرة بروايات الحديث مما لم يسبق إليه كتب السيرة، وفي اختيار الأحاديث في السيرة رجح الأحاديث الصحيحة، فقدّم

رواية البخاري ومسلم على رواية ابن إسحاق. وكان ينقل المعنى دون الحرف من النصوص، فينقل عن ابن إسحاق بالمعنى، ويقدم ويؤخر، ويغير ويبدل.

ومن دأبه أيضا في السيرة المطولة الاستشهاد بالأشعار، ففي السيرة المختصرة لايذكر شيئا من الأشعار. وفي كتابة سيرة الرسول ﷺ أظهر ابن كثير عاطفة الحب للنبي ﷺ وآله وأصحابه، ولم ينس إظهار كراهيته لإيذاء الله والرسول ﷺ.

فابن كثير كان أول من علّق على أحداث السيرة، وهذا أسلوب جديد لم يعهده كتاب السيرة من قبل، فكأنما خرج عن مناهج من قبله، لأن احتياجات المتقدمين كانت تقف عند جمع المادة التاريخية وتدوينها فقط، ومن جهة أخرى كانوا ينظرون إلى أحداث السيرة نظرة تقديس وإجلال، لذلك كانوا يتهيبون من التعليق على وقائعها خوفا من الوقوع في المحظور، لأنهم رأوا السيرة مرتبطة بالأوامر العلوية التي لا يجوز الطعن في أحداثها أو تبريرها أو التدخل في حكمها وأحكامها وأسرارها بآراء شخصية بحتة.

استقى ابن كثير مادة سيرته من جهود العلماء البارزين الذين مضوا قبله، ومنها كتاب المغازي والسير لابن إسحاق، وموسى ابن عقبة، وابن هشام، وكتاب 'الروض الأنف' للسهيلي، وكتاب'الدرر في اختصار المغازي والسير' لابن عبد البر، و'جوامع السيرة' لابن حزم، وكذلك استفاد من كتاب صحيح البخاري وصحيح

مسلم، ومن مسند أحمد، ومن كتب البيقهي اعتمد على الدلائل، ومعرفة الصحابة، ولم يترك سنن أبي داود والنسائي، وابن ماجة، وجامع الترمذي والموطأ للإمام مالك والمستدرك لحاكم. فمن منظور العصر الحديث يصح أن يقال إن ابن كثير جمع في سيرته المنهج السردي التاريخي والمنهج التحليلي والمنهج التصحيح.

ابن سيد الناس (ت. ٧٣٤هـ)

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، المعروف بابن سيد الناس، أصله من أشبيلية، ومولده ووفاته في القاهرة، سمع الحديث من الديار المصرية، وتفقه وسافر إلى دمشق والعراق، وإفريقيا، وكان صحيح القراءة، سريعا، وكان أديبا بليغا، ومن كتبه 'عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير' في جزءين. والكتاب كما يشير اسمه يعالج سيرة الرسول ﷺ.

ولعب **ابن** حجر العسقلاني وابن خلدون دورا بارزا في كتابة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في صورتها الواضحة. وهما معروفان بترجيحهما منهج التصحيح . وفي الخلاصة إن حياة الرسول ﷺ كانت مدونة في كتب الأحاديث وفي كتب السيرة، وسبقت كتب السيرة كتب الحديث في جمع السيرة، وكتب الحديث اعتنت بالإسناد حينما أعرضت كتب السيرة عن الإسناد، إذ ركّزت على الأحداث. وكتب السيرة مرجع المحدثين والمفسرين في العصور اللاحقة.

وقد قسم الباحثون كتابة السيرة إلى طبقات وأدوار، وتقسم الطبقات يعتمد على اقتراب مؤرخ السيرة من عصر الرسول ﷺ، هناك ثلاث طبقات: الطبقة الأولى هم الصحابة ومن اختلطوا بهم من التابعيين الأوائل، والطبقة الثانية التابعون وتبع التابعين، الطبقة الثالثة تتضمن أصحاب السيرة الذين جاؤوا بعدهم من القرن الرابع الهجري. وفي هذه المرحلة كانت السيرة معتمدة على الرواية في أكثرها.و يعرف أصحاب هذه الطبقات الثلاثة من المتقدمين بجامع سيرة الرسول ﷺ. ومن أشهر هذه المرحلة ابن هشام الذي جمع سيرة الرسول ﷺ من سيرة ابن إسحاق. وابن جرير الطبري صاحب الكتاب المشهور بتاريخ الطبري، ساد في هذه المرحلة المنهج السردي التاريخي.

والمرحلة التي تلت مرحلة المتقدمين تعرف بالمتأخرين، وفي هذه المرحلة كثرت المصنفات في سيرة الرسول ﷺ، وأصبحت فيها كتابة السيرة فنا مستقلا، كما تنوعت طرق تداولها حيث ظهرت أنواع جديدة مثل شمائل الرسول ﷺ، ودلائل النبوة، والغزوات، والأحكام. وظهر عند بعض المؤلفيين تضميين السيرة في كتب تفسير القران وفي شروح الأحاديث النبوية، وفي كتب التاريخ العام. واعتنى مؤلفو هذه المرحلة بتحقيق الروايات وتمييز صحتها وضعفها، كما قاموا بالشرح والتعليق. وبعضهم اتبع منهجا علميا في جمع الروايات وترتيبها حسب تسلسل زمني. ومن أشهر هذه المرحلة ابن كثير الدمشقي، وابن قيم الجوزية، وابن

خلدون. ووجد المنهج التحليلي والمنهج الموضوعي سبيلها في هذه المرحلة، واعتمد بعض الكتاب منهج التصحيح أيضا.

الباب الثاني
كتابة سيرة الرسول ﷺ في العصر الحديث

- الفصل الأول: ملامح كتابة سيرة الرسول ﷺ في العصر الحديث
- الفصل الثاني: المدارس والمناهج في كتابة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في العصر الحديث
- الفصل الثالث: القضايا الإنسانية والتربوية في سيرة الرسول ﷺ

الفصل الأول

ملامح كتابة سيرة الرسول ﷺ

في العصر الحديث

الحداثة والحديث كلمتان لا تخضعان لمفهوم زمني محدد، إنّ معنى "حديث" (Modern) في عالم الشرق والغرب استعمل في الجديد تقابل القديم، يقول أبوحيان التوحيدي "قال: ما الفرق بين حدُث وحدَث ؟ قلت لا فرق بينهما إلا من جهة أنّ حدُث تابع لقدُم، لأنه يقال : أخذه ما قدُم وما حدُث"[٦٩]. وفي الغرب أيضا استعملوها معارضا للقديم منذ زمن طويل، والحداثة مفهوم أيديولوجي تقدس الجديد وتقرظه، وكل الأدب في عصر إنتاجه حديث وجديد يقول ابن قتيبة "ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولاخصّ به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كلّ قديم حديثا في عصره"[٧٠]

[٦٩] التوحيدي ،أبو الحيان. *الإمتاع والمؤانسة*. دار الكتب العربي. ٢٠٠٤.ص ٢٢.

[٧٠] ابن قتيبة. *الشعر الشعراء*. ط٢. القاهرة:دار المعارف. ١٩٥٨.ص ٥.

اختلف العرب المحدثون في تحديد بداية العصر الحديث للأدب العربي وفي تحديد زمانه، وأن الأدب الحديث هو ذلك الأدب الذي صنعه أصحابه من بداية النهضة الحديثة إلى الزمن الحاضر.

النهضة العربية

وقع الاختلاف في تحديد زمن عصر النهضة، "فمنهم من يرى أن غزو نابليون لمصر الذي مثل بدء التماس الحضاري المباشر بين العرب والغرب يمثل البداية الحقيقة لعصر النهضة"[٧١] فمنهم من يرى إنّ النهضة في البلاد العربية والإسلامية هي تبدأ من جهود الإمامين محمد بن عبد الوهاب، ومحمد بن سعود في منتصف القرن الثاني عشر الهجري،" أما أصحاب الرأي الثاني فيرون أن الحركات الدينية المعاصرة التي بدأت تباشيرها في وقت مبكر ممثلة في حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد وحركة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في مصر والحركة المهدية في السودان والحركة السنوسية في ليبيا تمثل البداية الحقيقية لهذا العصر"[٧٢] ، وآخرون جعلوا بداية النهضة مقرونة بولاية محمد علي على مصر سنة ١٢٢٠هـ، "يرى أكثر مؤرخي الأدب أن مبدأ العصر الحديث في مصر هو سنة

[٧١] الشنطي، محمد صالح. *الأدب العربي الحديث*. حائل: دارالأندلس للنشر والتوزيع. ٢٠٠١.ص ٢٦.

[٧٢] نفس المرجع.ص ٢٧.

١٢٢٦هـ وهي سنة استقلال محمد علي بمصر بعد فرض نفسه والياعليها"[٧٣] وعلى هذا يكون الأدب الحديث "ما صنع في القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر للهجرة النبوية الشريفة"[٧٤]

ومهما يكن من أمر لا يمكن أن تعد بحملة نابليون تاريخا للنهضة الأدبية، لأن آثارها العلمية هي الأبرز والأوضح وإن كانت محدودة كذلك، وإنما يجوز على سبيل التوسع اتخاذها منطلقا لتأريخ بدايات عصر النهضة وليس على وجه التحديد.

مرحلة جديدة

إنّ سيرة الرسول ﷺ لا تنفك متعلقة بالإسلام في جميع شئونها، وهي جزء منه، إذ هي التطبيق العمليّ لجميع ما نزل به القرآن الكريم من تشريع، وهذا واضح في قول عائشة ﵂ لما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت كلمتها الشهيرة: "كان خلقه القرآن". كانت الدراسات والمصنفات في سيرة الرسول ﷺ، إلى بداية القرن التاسع عشر تتجه اتجاها تقليديا تقصد المعارك والغزوات والشمائل، وقليلا ما تعالج الأساليب الدعوية والتشريعية والسلوكية، غير أنه كان هناك بواكير تسد هذا المسد. وكان القدامى يلتزمون المنهاج المختلف كما مر ذكره، واعتنو الترتيب

[٧٣] محمد بن سعد بن حسين. *الأدب الحديث تاريخ ودراسة*. الأدب الحديث تاريخ ودراسة.ط٥.الرياض:محمد بن سعد. ١٩٩٠. ص ١٣و١٤.

[٧٤] نفس المرجع. ص ٢٠.

الزمني في أحداث السيرة، فتناولوا الأحداث متجزأة عن وحدتها الموضوعية، أما المتأخرون توخوا التحديث في تناول مادة سيرة الرسول ﷺ، وأدخلوا المنهج العلمي إلى كتابة السيرة.

وشهد النصف الثاني من القرن العشرين تطورا محسوسا في كتابة السيرة ودراستها، وهذا التطور اشتمل على المستوى المنهجي والموضوعي في السيرة، وساعد هذا التطورَ عنصران هامان وهو الوعي المتزايد بمنهج البحث، والرجاء العلمي الصادق في الرد على الأعمال الفاسدة في سيرة الرسول ﷺ، سيان فيه التعامل الخارجي من أمثال المستشرقين ومن شابههم، والتعامل الداخلي من الذين يسيرون وراء الميول والأهواء والتحزبات. وساعد النشاط الأكادمي أيضا هذا التطور في صورة رسائل جامعية في المعاهد العلمية والجامعات، وهذه الرسائل أخرجت دراسات معمّقة في جميع .وقائع السير، واتخذت معيارا نقديا صارما، وأوغلت في شرايين الأحداث وغاصت فيها للوصول فيها إلى بنيتها الأساسية بعيدا مما أراد المؤرخون والرواة. ونتيجة لذلك ظهرت دراسات تخصصية في السيرة تهتم اتجاها آخر، وفي منطلق منهجي محدد. ومنها كتاب 'فقه السيرة' لمحمد الغزالي، وهو يقدم رؤية دعَوية للسيرة، وكتاب سعيد رمضان البوطي بنفس العنوان يقدم رؤية فقهية، وسيد قطب ومنير الغضبان قدما رؤية حرَكية،

في حين قدم الآخرون رؤية تربوية أو أخلاقية أو سلوكية أو سياسية، والدكتور أكرم العُمري وأعداد من الباحثين في السلك الأكادمي قدموا منهج المحْدثين في التعامل مع مرويات السيرة أو يسمون بمنهج التصحيح. وإلى جانب هذا استمرت دراسات شمولية تعالج سيرة الرسول ﷺ في حلقاتها كافة، والتزمت منهجا أكثر دقة وانضباطا وإحكاما، وبقيت هناك حلقة حضارية في كتابة السيرة أو بعبارة أكثر دقة؛ محاولة متابعة البُعد الحضاري للسيرة، وتقديم تصوّر متكامل عن معطياته الأساسية.

والعقدان الأخيران من القرن العشرين شهد لعدد كثير لمثل هذه المحاولات حيث كان العصر يتطلب رؤية الطائر على السيرة، ولإظهار الملامح الأساسية لعصر التشريع، والإنجازات العظمى للرسول ﷺ ولأصحابه، واحتاج لتحقيق هذا، اجتماع المؤرخ والمفسر والمحدث والفقيه والأديب في صعيد واحد، حيث استقرت شروط كتابة السيرة الأساسية معتمدا على النصّ القرآني والحديث النبوي الصحيح والممارسة التاريخية لعصر الرسالة التي يقدمها المؤرخ والفقيه، والملامح البيئية التي يقدمها الجغرافي، والخبرة الذاتية والموضوعية التي يقدمها الأديب.

الكثيرون من أفاضل الكتاب في العصر الحديث تتبّعوا سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بكل محبة وحفاوة، وبعضهم بسعة أفقه، وبعد غوره، أضاف الجديد إلى ما كتبه السابقون. ومما يشير إلى مدى منهج السابقين في كتابة السيرة ما

كتبه محمد فريد وجدي في مطلع حديثه عن السيرة المحمدية "أن مثقفي اليوم لم يعودوا يقنعون بسرد الأحداث التاريخية دون تحليل، كما لم يعودوا يكتفون بالتسليم بوجود النبوة دون أن يبحثوا ماهيتها ودوافعها، أهي حاجة من حاجات الروح الإنسانية لامحالة من وجودها، والاهتداء بهديها؟ أم هي مجرد ظواهر اجتماعية متكررة تولدها ضرورة الاجتماع، مثل ظواهر الارتقاء في الحياة الإنسانية؟ والوحي الذي تعتمد عليه النبوة، كيف يؤمن به المعاصرون دون دليل معاصر لايقدمه الكاتب محسوسا ملموسا لا تمتري فيه العقول، فالزمن زمن التنقيب الفاحص، ولا بد للسيرة أن تعرض في لون فكري يرضى كل متعطش للمعرفة، ويقنع من يمتري في الحق لشكوك تقوم في نفسه"[٧٥]

وهذه الأفكار ترسم الخطة التي ينبغي أن يتبعها كتّاب السيرة في العصر الحديث، لئلا تنحصر السيرة العطرة على الأساليب البيانية، والبراعة الخطابية، بدون اعتناء بحاجة العقول المجبولة عن التشكك إلى الاطمئنان المثبت.

فالسيرة في العصر الحديث لبست وصف الفنية الدقيقة لأنها"تأثرت بالدراسات النقدية للنصوص، والنظريات النفسية والبيولجية، وأصبح أكثرها أقرب إلى المظهر العلمي منه إلى المظهر الأدبي، وقلت الرغبة في تاريخ الحياة نفسها، وأصبح

[٧٥] البيومي، محمد رجب. *محمد فريد وجدي الكاتب الإسلامي والمفكر الموسوعي*. ط١. دمشق:دار القلم. ٢٠٠٣. ص١٧٢.

الحديث عن أشخاص تأريخا لآرائهم إن كانوا من الأدباء، أو توضيحا لدورهم السياسي وعلاقاتهم الاجتماعية. ولم ينم الميل إلى تبيان الحياة نفسها من حيث نموّها ومضاعفتها وملابستها، حتى خيّل للدارس أنّ هذه الغاية أصبحت وفقا على القصة التاريخية"[٧٦]

وقد حدث هذا التطور عند الأوربيين تدريجيا بعد مراحل متعددة، ولم يكن حالهم أقل من العرب في العصور الوسطى "بل كان للعرب السبق في ذلك، وكانوا أكثر صدقا في سيرهم من الغربيين، وذلك من خلال تأثرهم "بعلم الرجال" الذي جعلهم يتحفظون في الثناء والقدح وكل شيئ عندهم بمقدار"[٧٧]

وصار من عادة الكتاب المسلمين ذكر المصادر التي أخذوا منها، ويوثقون النصوص التي يأخذونها بمختلف الطرق، ولم يضف المعاصرون "إلى أساليبهم في جمع المادة إلا قليلا، وهذا القليل يرجع إلى طبيعة التطور المعاصر واستخدام الصحف والدوريات أو استخدام البريد"[٧٨] وعلى كل حال وقد تم التطور وتمايزت السيرة الحديثة بملامح مغايرة للسيرة في القديم تمام التمايز، وبالرغم من حدّة ذلك الأسلوب القديم كانت في قيد التكلف والتواء الطرق والرطانة اللفظية.

[٧٦] عباس، إحسان. *فن السيرة*. ط١. عمان: دار الشرق. ١٩٩٦. ص ٥٨.

[٧٧] السداني، علي خالد. *منهج العقاد في دراسة الشخصيات الإسلامية*. ط١. المكتبة العصرية. ١٩٨٩. ص١٥٥.

[٧٨] فهمي، ماهر حسن. *السيرة تاريخ وفن*. بيروت: دار الفكر. ١٩٦٥. ص٤.

والاكتشافات في مختلف العلوم والتجارب المتنوعة دعا الإنسان إلى آفاق جديدة حتى يستطيع من اكتشاف"أسرار الطبيعة والأسرار النفسية، وحلّت له ألوانا من الغموض الذي كان يكتنف الشخصية الإنسانية، وأعانته على فهم طبيعته" [٧٩]. وكل هذا أعطى السيرة بُعدا خاصا ولم يكتف بالسرد الكيفي للشخص، بل تعدت ذلك وصارت تبطن المشاعر التي تضطرب داخل الشخصية الإنسانية وغير الإنسانية، ونزعت إلى الروح الأدبية المعبرة والمبدعة بعيدا عن الأرقام. وهذه العوامل أثّرت في السيرة والترجمة ونقلها نقلة ذات بُعد شاسع "عن علم التاريخ ودخل علم الأدب من طاقة الشعوبية التي يبثها الأديب في موضوعه، والقيم الفنية التي يضمّنها تعبيره"[٨٠]

دوافع كتاب السيرة في العصر الحديث تتمثل في عبارة عباس محمود العقاد "إذ ليس بصحيح أن أبابكر وعمر قد كتب، أن أبابكر وعمر قد كتب عنهما مئتا كتب إلى الآن، لأن الذي كتب عنهما إنما كتب عن الحوادث والأخبار في عصرهما، وهو مع ذلك لا يزيد على أصابع اليدين. أما الصور النفسية التي تصور لنا كلا منهما على حقيقته الإنسانية، فلم توصف قط قبل هذا الجيل"[٨١]

[٧٩] عبدالدائم، يحيى إبراهيم. *الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث*.بيروت: دار النهضة العربية. ١٩٨٢.ص٢٣.

[٨٠] قطب، سيد. *النقد الأدبي أصوله ومناهجه*. ط٨. القاهرة:دار الشروق. ٢٠٠٣، ص١٠٤.

[٨١] العقاد،عباس محمود. *يسألونك*. ط١.دار اليقين للنشر والتوزيع.٢٠١٦. ص ٢٥٣.

السيرة والمرحلة الجديدة في العصر الحديث

شملت التغيرات التي مست الأدب العربي في العصر الحديث، سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا، وإنها صورة المثل الأعلى للإنسان في كل شأن من شؤون الحياة، وهي السيرة الكاملة الشاملة لجميع أطوار الحياة، فاهتم بها الكتاب في العصر الحديث كما اهتم بها القدماء، وبعضهم عالجوا السيرة بالتحليل، والتفسير، وأزالوا الشبهات التي تحيط بسيرة خير البشر، واستنبطوا القضايا المتعلقة بها كي تصير السيرة صالحة للقراءة للجيل الجديد بأسره.

ليست أمة من الأمم اهتمت بتدوين سيرة قائدها كما اهتمت به الأمة الإسلامية، لا فرق فيه بين متقدميهم ومتأخريهم ومعاصرهم، واتبع القدماء فيه المناهج السائدة في عصرهم، مثل التصنيف باعتبار التاريخ، والتصنيف باعتبار الموضوع، والتصنيف باعتبار الارتباط بالعلوم الأخرى، أما كتابة سيرة الرسول ﷺ في العصر الحديث فركز المؤلفون فيها جهدهم على أمرين.

الأول: تحقيق رواية سيرة الرسول ﷺ وفق منهج نقدي يعتمد على الموثوق، ويترك المشكوك، وقد توالت المؤلفات وتعددت المصنفات في هذا المجال، وذلك معتمدا على منهج مقارن بالمصنفات القديمة، ودراسة لمرويات كل واقعة واحدة تلو أخرى، فصار التأليف باعتماد الروايات الموثوقة في المصادر المتعددة.

الثاني: كثرة المنهج التحليلي، وتتابع المؤلفات العلمية، فاعتنى المؤلفون بإشارة إلى الدروس والفوائد والعبر، فاجتازت السيرة من مرحلة نصوص تحفظ أو قصص ترتل، إلى مرحلة التطبيق بهدي الرسول ﷺ في الحياة اليومية. وهذا المنهج يستخدم فيه إيراد العظة والعبر بعد ذكر الأحداث، وعُبّر عنه ب"فقه السيرة"، وهذا التحليل أمر زائد على مجرد الشرح والبيان للألفاظ أو الترجيح للحوادث ونحو ذلك، بل هو اجتهاد تستنبط فيه الباحث ما يفيد القارئ من نصوص هذه السيرة وأحداثها.

وأن عددا كثيرا من الكتاب وجهوا اهتمامهم إلى كتابة سيرة الرسول ﷺ، وبعد احتكاك عالم العرب بعالم الغرب في أوائل القرن التاسع عشر شهد مجال الإنشاء الفني في عالم العرب لتغيير مذكور، وألف أدباءالعرب على طراز جديد وأبدعوا في مؤلفاتهم، واتبعوا المنهج العلمي متأثرين بما عهدوا من الأدب الغربي. والتغير الذي شهده كتابة سيرة الرسول ﷺ كان نفس التغير الذي شهده الأدب العام في هذا العصر، لأن الذين ساهموا في سيرة الرسول ﷺ وألفوا فيها في هذا العصر كانوا من الذين نبغوا في الأدب العام نفسه.

كانت للمناهج الغربية تأثير في كتابة السيرة، فشكل الكتاب نهجا جديدا في كتابة السيرة، وفيه مشابهة بمنهج المستشرقين، ومحمد حسين هيكل في كتابه 'حياة محمد'

ومحمد فريد وجدي في سلسلة مقالات بعنوان 'السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة' خير مثال لهذا المنهج ويقول هيكل "إنني لم آخذ بما سجلته كتب السيرة والحديث، لأنني فضلت أن أجري في هذا البحث على الطريقة العلمية"[٨٢]. وأن هذا المنهج جلب هجوم العلماء، واعتبروها هدما للدين وإرضاء لجهود المستعمرين الغربيين، وقالوا إنّ شيئا إذا كان محصولا بالحس يسمى تصديقا، ويصير أمرا عاديا لايحتاج إلى نبوة ولا وحي. وفريق من العلماء وجهوا إليها نفس النقد المنهجي بدون أن يتهموهم بالعمالة للإستعمار، واعتبروا هذا المنهج نوعا من الانتصارات للدعوة الإسلامية. وصارت دوافع المحدثين من كتاب سيرة الرسول ﷺ، الردود على المستشرقين ومقاومة الاستعمار الأجنبي، والدعوة إلى الوحدة القومية.

وقيام الجامعات الحديثة في العالم الإسلامي أدت إلى ارتباط كتابة السيرة في إطار أقسام دراسة التاريخ الإسلامي، والمحاضرات اللاتي ألقاها محمد خضري بك بجامعة القاهرة تعد من هذا القبيل، وهذه المحاضرات طبعت فسماها بعد بعنوان' محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية' في أربعة أجزاء، وعالج خضري بك السيرة في الجزء الأول أكثر من نصف صفحات الكتاب، والجزء الأول من كتاب تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن يعالج سيرة الرسول ﷺ، وقد تأثر

[٨٢] هيكل، محمد حسين. *حياة محمد*. ط١٤. القاهرة:دار المعارف. د.ت. المقدمة.

الكاتب بمنهج المستشرقين، ولكنه أقل من كتاب هيكل ووجدي، غير أنه أصبح عرضة لنقد العلماء الإسلاميين. وفريق من أساتذة الجامعة استخدموا منهج البحث الغربي مع الالتزام بمنهج البحث الإسلامي، وبدون نقص من حجية السنة، ويتمثل في مقدمتهم عماد الدين الخليل وهو يؤكد على ضرورة كون سيرة الرسول ﷺ مشروعا حضاريًا من جميع نواحيها. إلى جانب ذلك نشأ منهج آخر يستمد من منهج ابن قيم ومن شراح الحديث النبوي الذين استنبطوا الأحكام الشرعية المختلفة من أحداث السيرة المسمى بالمنهج الموضوعي التحليلي.

دور التصحيح والتنقيح

كان معظم القدامى متساهلين ومتسامحين في أخذ رواية السيرة، لأنهم أرادوا الاستفادة من جهودهم التاريخي، ولكون معظمها فيما لا تمس بالعقيدة والتشريع، كأنما تركوا لعلماء الحديث تنقيد رواية السيرة.

ففي العصر الحديث قام نبذة من الكتّاب بالتمييز بين الصحيح والضعيف في سيرة الرسول ﷺ، كما قاموا بكتب الحديث في القرون الماضية، ومن هذا القبيل يأتي كتاب 'صحيح السيرة' لإبراهيم العلي، و'صحيح السيرة النبوية المسماة السيرة الذهبية' للشيخ محمد بن رزق بن طرهون. وناصر الدين الألباني حاز قصب السبق في هذا المجال، حيث إنه خرّج سيرة ابن كثير باسم 'صحيح السيرة'، غير أنه لم يوفق لإتمامها ووافته المنية بعد ما سوّد عن "الإسراء والمعراج"، وله أيضا تعليق ل'فقه السيرة' لمحمد الغزالي، وكتب كتابا شافيا ردا لكتاب فقه السيرة لمحمد رمضان البوطي باسم 'دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الرد على البوطي في كتابه فقه السيرة' .

وأكرم ضياء العمري قام بتصفية الروايات الضعيفة في السيرة في كتابه "السيرة النبوية الصحيحة" ويتجلى دور محمد الصوياني في كتابيه، 'الصحيح من أحاديث السيرة النبوية' و'السيرة كما جاءت في الأحاديث الصحيحة' في مجلدين،

وكتاب 'ماشاع ولم يثبت من السيرة النبوية' لمحمد بن عبد الله العوشن خير معين في هذا المجال.

و كتاب أكرم ضياء العمري في جزئين وهو ذخيرة لدراسة سيرة الرسول ﷺ ومعيار شامل للتمييز يين الصحيح والضعيف منها على حد سواء، وبعد المقدمة بيّن المؤلف منهج كتابة تاريخ صدر الإسلام ومصادر السيرة النبوية في ثلاث وأربعين صفحة، وفيها يؤكد الكاتب على ضرورة صحة الرواية، إذ هي معيار الدين، وليس له دخل للعقل والإقليم "بل إن بعض المؤرخين المسلمين ذهب إلى نفي روايات صحيحة عندما عجز عن التبرير الذي يريده، فقد نفى أحد الكتاب روايات ابن إسحاق حول قتل مقاتلة بني قريظة، وهي ثابتة في كتب الحديث والسيرة والتاريخ. وكأنه يشك في عدالة قتلهم، فالتفسير الإسلامي إذا ليس دفاعيا تبريريا بل ينطلق من اعتقاد أن الإسلام حق وما عداه باطل، وأن ما شرعه الإسلام من الجهاد وغيره حق لا يحتاج إلى اعتذار أوتبرير، حتى لو بدا ذلك غريبا أمام الذهنية المهيمنة على الناس في القرن العشرين، لأننا لا نطوع "الإسلام وتاريخه" لأذواق الناس واتجاهاتهم الفكرية في عصر معين، فما يحبذه الناس في عصر قد ينكرونه في عصر آخر، وما يحسبه أبناء بلدة حسنا يراه سواهم منكرا،

والحكم لله ولشرعه وليس لأذواق الناس وأهوائهم والله غالب على أمره"[٨٣] وهذا يظهر مبدأ الكاتب الشديد على التمسك بالرواية الصحيحة في سيرة الرسول ﷺ إذ هو جزء من مصادر الأحكام الإسلامية.

ولم يهتم الكاتب بالرد على الشبهات التي جاءت في الدراسات الحديثة، لأن مقصده من تأليف هذا الكتاب بيان ميزات السيرة في صورتها الصحيحة، واهتم بالاعتماد على الروايات الصحيحة من نقد القدامى، واستفاد من منهجهم في تصحيح أو تضعيف. واتبع المنهج المعتبر في الدراسات التاريخية المعاصرة، وهو نقل الخبر عن شاهد عيان الذي اشترك في الواقعة، فالعصر الحديث صار مسرحا لكتابة السيرة معتبرا الجوانب الصحيحة منها وما ثبت.

وأما محمد الصوياني يقول في مقدمة كتابه 'الصحيح من أحاديث السيرة النبوية' قول أحمد بن حنبل نقلا من كتاب 'البرهان من علوم القرآن' " في حس نقدي رائع قال الميموني :سمعت أحمد بن حنبل يقول : ثلاث كتب ليس لها أصول: المغازي، والملاحم، والتفسير"[٨٤]. وبهذه العبارة يشير الصوياني إلى حاجة التحري في رواية السيرة كما جرى في الأحاديث النبوية، ثم يحلل قول أحمد بن حنبل "أمتنا هي الوحيدة أمة السند، وكلمات ابن حنبل تعني بالتأكيد أن غالب مرويات

[٨٣] العمري، أكرم ضياء. *السيرة النبوية الصحيحة*. ص ٣٧و٣٨.

[٨٤] الصوياني، محمد. *السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة*. ط٥. الرياض:مكتبة العبيكان. ١٤٣٤ . المقدمة

تلك المواضيع ضعيفة السند، فالمتتبع لمرويات السيرة والمغازي وكتبها (موضوعنا) يجد انها تحتوي على القليل من الصحيح مقارنة بمرويات الصحاح والسنن والمسانيد، كما يشعر بأهمية استخراج ما في تلك الكتب العظيمة من مرويات تهتم بالسير والمغازي" [٨٥]

وقسم الكاتب الكتاب من ناحية التخريج إلى قسمين، والقسم الأول يحتوي على مرويات الصحيحين، "صحيح البخاري" و"صحيح مسلم"أو أحدهما، والقسم الثاني ينضم فيه ما عدا الصحيحين، وهو يشمل كل ما وقعت عليه من مرويات مسندة في السنن والمستدركات والمسانيد والمعاجم إضافة إلى ما في كتب السير، ثم لجعل القارئ مطمئنا قام الكاتب بنقد السند أو المتن أو كليهما. وإنه تحت كل عنوان يورد الأحاديث التي ألفتها السيرة منذ بداية التأليف، فيبدأ بالمولد، ثم الرضاع والتسمية وشق الصدر وما إلى ذلك ويختم الكتاب بعنوان مرض النبي ﷺ، ثم يذكر صحته أو ضعفه، حتى يتبين القارئ أن بعض القصص المشهورة في السيرة لا تستند بحديث ضعيف فضلا عن الصحيح، والصوياني بعمله هذا يومئ بأن جميع المرويات والقصص المتداولة في كتب السيرة في محل نظر.

[٨٥] نفس المرجع. المقدمة.

أما كتاب محمد الصوياني 'السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة' فكتبه في صورة قصة جذابة وأتى بعناوين يلفت الأنظار مثل "جده عبدالمطلب" و"الفيل يمزق السكون" و"أساطير ومولد" و"طلوع نجم أحمد" و"نعم شق صدره" كل هذا موضوع السيرة عالجها الكتاب من قديم، ولكن إدراكا لضرورة العصر اخترع صورة قصصية وحينما يقول عن وفاة آمنة أم الرسول ﷺ تتجلى هذه واضحة وهذه تحت عنوان "نعم شق صدره" فيقول "وبعد رحلة حميمة زار فيها أخواله الكرام الطيبين بني النجار رجعت آمنة بصغيرها إلى مكة، تضمه بين أحضانها وتلاعبه وتقص عليه، وترد على أسئلته التي تعن له في الطريق، وأحيانا يبكي فتلجأ لكل الحيل والألعاب لإرضائه،.. تطعمه وتهدئه، وتبعث بشعره الناعم بأناملها، فيغفوا بين ذراعيها كملاك صغير، وينهض في اليوم التالي فتغمره بقبلاتها، وتمرغ وجهها في صدره حتى تملأ ضحكاته الجميلة قلبها وأجواءها وطريقها، وفي مكان يقال له الأبواء بين مكة والمدينة شعرت آمنة بأجواءه مضنية، فتوفقت المطايا، ونزلت آمنة عن ظهر الراحلة ونزل صغيرها وقد تلقت عيناه بها، وهي تتوجع وتئن أمامه . . ."[٨٦] وهكذا في جميع عناوين الكتاب بين الكاتب أحداث السيرة في أسلوب يلائم العصر، مع أنه علق على كل حادثة تخريج

[٨٦] نفس المرجع. ص٢٦.

الأحاديث، ولكنه يترك للقارئ الحرية في القبول والرد، إذ إنه لم يحكم على كثير منها بصحيحة أو ضعيفة بصيغة العزم، إلا فيما رواه البخاري ومسلم.

ومحمد بن عبد الله العوشن في كتابه 'ماشاع ولم يثبت في السيرة النبوية' ينتقد كل أحداث مشهورة في السيرة حسب معيار علم الأسانيد، فيُعنْوِن لكل حادثة واهية عنوانا ويذكر تحته الرواية ثم يذكر الجزء الصحيح منه وما ضعف، فمثلا تحت عنوان "اشتراكه ﷺ في حرب الفجار" يقول الكاتب "قال ابن إسحاق: " هاجت حرب الفجار ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة" قال ابن هشام: فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معها من كنانة، وبين قيس عيلان.. . وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم، أخرجه أعمامه معهم، وقال رسول الله ﷺ:" كنت أنبّل على أعمامي. أي أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموها بها"[٨٧]، ثم يذكر الكاتب عدم ثبوتها بدليل أقوال القدماء والمحدثين، فيقول "وابن إسحاق ذكر القصة بدون إسناد. وذكرها الذهبي عنه كما في السيرة من 'تاريخ الإسلام' وابن كثير كما في 'البداية والنهاية'. ورواه ابن سعد عن الواقدي وفيه : "قال رسول الله ﷺ، وذكر الفجار،فقال : قد حضرته مع عمومتي ورميته فيه بأسمائهم، وما أحب أني لم أكن فعلت" والواقدي متروك. وسكت عنها الشيخ الألباني في تعليقه على 'فقه

[٨٧] العوشن،محمد بن عبد الله. *ماشاع ولم يثبت في السيرة النبوية*. الرياض:دار الطيبة. د.ت.ص١٦.

السيرة' للغزالي، لكنه لم يدرجها في 'صحيح السيرة النبوية'. ولم يذكره محمد بن رزق الطرهوني في 'صحيح السيرة' فدل على عدم صحتهما عندهما".[٨٨] ويذكرالكاتب ملاحظة لكل من الإقتباسات والأقوال، هكذا يقنع محمد بن عبد الله العوشن القارء بأن جميع المرويات في كتب السيرة لم تصح ولم تثبت.

وهذه الأعمال كلها كافية لتدل نشاطة منهج التصحيح في السيرة في العصر الحديث، وما بذل الكتاب من جهد في سبيله.

الدراسات الأكادمية حول السيرة

وإن كانت المؤلفات في السيرة مستفيضة في العصر الحديث، وإنّ الدراسة عنها أيضا حظيت مكانها، وهذه الدراسات تأتي تحت عناوين مختلفة، مثل الكتب البيبلوغرافية، والكتب المفردة، والمقالات والفصول، ثم إن الكتب المفردة تتنوع أنواعا ككتب مفردة للسيرة، وكتب خاصة بسيرة الرسول ﷺ.

ومن مؤلفات البيبلوغرافية'معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ' لصلاح الدين المنجّد، نشر هذا الكتاب سنة ١٩٨٢م، واعتذر الكاتب في مقدمته باستحالة الضمّ كل ما ألف عن الرسول ﷺ، ولم يقتصر على المؤلفات المتعلقة "بذاته الشريفة" بل ورد فيه "ما يتصل به وهو كثير كالعصر الذي نشأ فيه، والبلد الذي تشرف بمولده، والمدينة التي هاجر إليها، والدولة التي أسسها، والقرآن الذي

[٨٨] نفس المرجع. ص ١٦.

أوحي إليه، والحديث النبوي الذي علّم، وجّه، وهدى به. والصحابة الكرام الذين ناصروه وأيّدوه وصحبوه" [٨٩].

كتاب المنجّد يشتمل على اثني عشر قسما والقسم الثالث من الكتاب مخصص لحياة الرسول ﷺ بالمدينة، وفيه أتى الكاتب بالسيرة النبوية، والمغازي، والهجرة النبوية، والكتاب غير محكم الترتيب، وتختلط فيه التصانيف القديمة بالحديثة مراعة للترتيب الأبجدي، وفي أثناء الكتاب عجز الكاتب عما وعد في المقدمة "فذكرت أسماء المؤلفات في كل فرع مرتبة على الحروف الأبجدية، مع أسماء مؤلفيها وتواريخ وفياتهم"[٩٠] ولكن الكاتب نسي في متن الكتاب لذكر وفيات المؤلفين في مواضيع، كما في صفحة ١٠١، و٢٤٣، و٣٤٥، في الكتاب.

أما الأسلوب الذي قدم الكاتب به المعلومات فهو على الصورة الآتية:

ترجمة بالمؤلف بقدر ما تمس إليه الحاجة، والتعريف بالكتاب شكلا ومضمونا وهنا ذكر حجم وشكل الكتاب، وسبب التأليف، ومواضيع الكتاب، ومنهجه في ذلك، وعلاقة الكتاب بعلم التحقيق.

[٨٩] المنجّد،صلاح الدين. *معجم ما ألّف عن رسول الله ﷺ*. ط١. بيروت:دار الكتاب الجديد. ط١. ١٩٨٢. ص ١٠.

[٩٠] نفس المرجع. ص ١٠.

وكتاب 'أضواء على كتب السيرة النبوية' لعلي العريبي يعد من قبيل الدلائل البيبلاغرافية، وهو يحتوي تعليقات مسهبة على بعض المصادر. يصرح الكاتب في المقدمة القائدة التمجيدية، التى اتبعها في الكتاب " هذه الدراسة هي عبارة عن مقالات كتبت في أوقات مختلفة، وليس من هدفنا في هذا الكتاب تقييم كتب السيرة. وإنما هو إصرار على المشاركة في الكتابة حول شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، والانخراط في سلك محبّية عن طريق الكلمة الطيبة النافعة"[٩١]. ومن هذا التقرير يتجلى أن الكاتب أعرض التحقيق والنقد، وإنما قصد التعبد والتمجيد.

والمؤلف قسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام، وسماها أطوارا، وهي : طور النشأة والازدهار، وطور التلخيص والشرح، وطور الانبعاث والتجديد. وفي طور النشأة والازدهار تكلم الكاتب عن طبقة الرواة الأوائل قبل ابن إسحق الذين لم تُعثر على مدوناتهم، ثم ذكر بعض السيرة المشهورة كسيرة ابن هشام وغيرها.

أما الكتب المفردة في الدراسة عن السيرة تنقسم إلى ثلاثة أنواع، وهي دراسات في كتب السيرة على الوجه العموم، ودراسات أفردت لبعض كتب السيرة دون غيرها، ودراسة الشعر الذي دار على شخصية الرسول ﷺ.

[٩١] العريبي،علي. *أضواء على كتب السيرة النبوية*. الدار التونسية. ١٩٩١ . ص ١٧و١٨.

والكتب المفردة في دراسة السيرة كثيرة، وأشهرها كتاب فاروق خور رشيد وأحمد كمال زكي، باسم 'محمد في الأدب المعاصر' نشر سنة ١٩٥٩، وقد قسم الكاتبان الكتاب إلى قسمين، وفاروق خور رشيد أخذ على عاتقه الآثار النثرية، فحين اضطلع أحمد كمال زكي بالآثار الشعرية.

وفي القسم النثري اختار فاروق خور رشيد أربعة كتب، هي : عبقرية محمد للعقاد، ومسرحية محمد لتوفيق الحكيم، ومحمد الرسالة والرسول لنظمي لوقا وعلى هامش السيرة لطه حسين، سواء في القسم النثري والشعري اختار الكاتبان المؤلفات التي ألفت على أيدي الكتاب المصريين فحسب. وخورشيد اكتفى عمله في الكتب المختارة بمحض التلخيص والتنويه.

ومحمد حامد الحضيري قدم رسالة دكتوراه سنة ١٩٧٨، باسم "السيرة النبوية في الأدب العربي الحديث". وفيه خمسة فصول، في الفصل الأول تكلم عن "مصادر سيرة الرسول"ﷺ وذكر ثلاث كتب مشهورة في السيرة: سيرة ابن هشام، وتاريخ الطبري، وطبقات ابن سعد. والفصل الثاني "إحياء السيرة النبوية في التاريخ والأدب" اقتصر الكاتب بدراسة أعمال لأدباء وشعراء في مصر، مثل هيكل والعقاد ومحمد عبد الله السمّان. والفصل الثالث "السيرة النبوية في الأدب القصصي" جعله الحضيري مسرحا لذكر لطه حسين، وعبد الحميد جودة

السحار، وعبد الرحمن الشرقاوي. والفصل الرابع "السيرة النبوية في الأدب المسرحي" وهذا الفصل كما خصص لدراسة مسرحية 'محمد' لتوفيق الحكيم، والفصل الخامس " السيرة النبوية في المحاولات الملحمية": دراسة عن "كشف الغمة في مدح سيد الأمة" لمحمود سامي البارودي، وبعض شعر أحمد شوقي وأحمد محرم عن الرسول ﷺ.

وكتب خاصة بسيرة الرسول ﷺ ومنها دراسة لسامي سليمان أحمد : كتابة 'السيرة النبوية عند رفاعة الطهطاوي، دراسة في تشكيل السردي' وهذا الكتاب يقدم معلومة أساسية عن كتاب الطهطاوي، وقد حاول الكاتب فيه إثبات العلاقة بين الرواية التاريخية والتعليمية من جهة و'نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز' للطهطاوي من جهة أخرى، لأنهما ظهرا في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر. ومن كتب السيرة أكثر دراسة في العصر الحديث وهو كتاب 'حياة محمد' لمحمد حسين هيكل، ومنه "نقد كتاب حياة محمد" لعبد الله القصيمي، و'كتاب هيكل، وحياة محمد، منهج في دراسة التاريخ الإسلامي' لحسين فوزي النجار.

والمقالات والفصول أيضا اهتمت بالدراسة في السيرة، وغمرتها نزعة التمجيد. وعلى كل حال مع التفنن في كتابة السيرة في العصر الحديث نمت وتطورت الدراسات حول كتب السيرة في كمية وافرة. فالعصر الحديث حافل بأنشطة

مختلفة في مجال السيرة، حينما ساهم فيه كثير من المؤلفين منتهجين شتى المناهج سعى طائفة من الكتاب لاستعداد دراسة حول كتب السيرة كما وكيفا.

أعلام السيرة في العصر الحديث

وكثرت المصنفات في سيرة الرسول ﷺ في العصر الحديث من مصنّفات القدامى خلال قرون، وشهد العصر الحديث عودة قوية إلى كتابة سيرة الرسول ﷺ ولم تنحصر الكتابة في السيرة عند العلماء المسلمين ومؤرخيهم فحسب، بل اضطلع فيها الأدباء المرموقون في أوائل القرن العشرين، وعلماء النصارى والمستشرقون أيضا لعبوا دورا بارزا في كتابة السيرة، وكذلك اتبعت الشيعة في العصر الحديث في سيرة الرسول ﷺ غير المنهج الذي نهجه السنة، وكانت الكتابة شائعة في جميع أقطار البلاد العربية، بل تعداها إلى البلاد غير العربية مثل الهند.

أما باكورة التأليف في سيرة الرسول ﷺ، في العصر الحديث فكانت من عمل محمد بن عبد الوهاب (ت. ١٧٩٢) في كتابه'مختصر سيرة الرسول'ﷺ وهي مجرد تلخيص أمهات الكتب الأقدمين، ثم تأتي 'السيرة النبوية والآثار المحمدية' لمفتي الشافعية بمكة أحمد بن زينى دحلان (ت. ١٨٨٦م) وكتاب رفاعة رافع الطهطاوي (ت.١٨٧٣) 'نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز' مثّل دليلا هاما لنقطة التحول في تاريخ التأليف في سيرة الرسول ﷺ، ورد الطهطاوي في كتابه على افتراءات

الغرب على شخصية الرسول ﷺ واستخدم المنهج العلمي والاجتماعي الملائم بين العقل والقلب، فليس بين السيرة الحلبية لنور الدين الحلبي (ت ١٦٣٤) التي هي آخر ما صنّف في السيرة من المتأخرين فترة طويلة إذ جاء بعده سيرة الرسول لمحمد بن عبد الوهاب (ت. ١٧٩٢).

والعقد الثالث من القرن العشرين صار مسرحا لتيار التصنيف في سيرة الرسول ﷺ في العالم العربي، وبعد البواكير يأتي الأستاذ محمد الخضري بك بكتابه 'نور اليقين في سيرة سيد المرسلين' ثم توالت الكتب بعده منذ العقد الثالث من القرن العشرين، ككتاب 'محمد المثل الكامل' لمحمد أحمد جادالمولى و'على هامش السيرة' لطه حسين و'عبقرية محمد' لعباس محمد العقاد و'حياة محمد' لتوفيق الحكيم و'محمد' لتوفيق الحكيم و'محمد' لمحمد رضا و'خاتم النبيين' لأبو زهرة و 'السيرة النبوية دروس وعبر' لمصطفى السباعي و'السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث' لمحمد على الصلابي و'السيرة النبوية' لأبو الحسن علي الحسني الندوي و'الرسول' لسعيد حوى و'مختصر سيرة الرسول'ﷺ لعبد الله بن محمد بن عبد الوهاب.وهذه الكتب مؤلفة في مختلف بلاد العالم .

و'نور اليقين' للخضري موجز جدا هو أثر من آثار القدماء في طرائق التأليف في السيرة النبوية، واتبع الكاتب منهج السردي التاريخي، وقد ظهر هذا الكتاب قبيل ظهور المذاهب الحديثة في كتابة التراجم والسير، وبنفس السبب أنه التزم طرق

القدامى من المؤرخين العرب والمسلمين، وهو يسرد الحوادث وفق السنة من الهجرة، ويقف كثيرا عند الغزوات والسرايا شأنه في المسائل الفقهية والتشريع الإسلامي، وقراءة هذا الكتاب تسهل فهم منهج الكتّاب الذي نهجوه في كتابة السيرة النبوية في العصر الحديث.

مختصر سيرة الرسول ﷺ لعبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ت.١٨٢٦)

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة ١٩٩٤م. وهذا الكتاب يعين القارئ لاستخلاص فكرة عامة عن حياة الرسول ﷺ سريعا مركزا على أهم أحداثها، والكتاب كما يشير عنوانه مختصر من سيرة ابن إسحاق إذ معظم الرواية من ابن إسحاق، ولم يتعرض المؤلف لتنقيح الرواية وتعقيبها. ولم يقف طويلا لتحليل الحوادث غير أنه أتى ببيان شافي لبعض الحوادث والغزوات مثل حديث الإفك، وأسهب في بعض المسائل الفقهية مثل التمتع والقران في الحج وذلك في فصل حجة الوداع. واعتمد على زاد المعاد لابن القيم في التفسير والتحليل، ومن هذا القبيل الكتاب تحفة لمكتبة سيرة الرسول ﷺ، وهو يسهّل على الدارس أن يجمع رواية ابن إسحاق في طريق أيسر.

نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز لرفاعة الطهطاوي (ت.١٨٧٣)

بعد ما كانت السيرة مجرد السرد التاريخي للوقائع والأحداث،جاء الطهطاوي في بداية العصر الحديث بأسلوب فريد في السيرة، واستخدام المنهج العقلي في تحليل الوقائع والأحداث، وكتب سيرة الرسول ﷺ من خلال المعرفة العقلية، واستخدم المنهج الاجتماعي أيضا، بدلا من سرد الأحداث سرداً تاريخياً، مهّد لذلك بدراسة الواقع الاجتماعي والاقتصادي الذي كان قائما في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الدعوة الإسلامية وبعد ظهورها.

والكتاب آخِرُ ما كتبه الطهطاوي، ويُعَد من أهم كتابه، وفي هذا الكتاب نفسه وضع أساس أسلوب الحديث في الكتابة العربية، وهذا الأساس قصد البساطة والسهولة وابتعاد عن التعقيد والتقعر، والتحرر الكامل من الزخرفة اللفظية. وقد نشر الكتاب تباعا في مجلة روضة المدارس. ولم يتم الطهطاوي الكتاب قبل أن وافته المنية، وأتمه بعده ابنه علي فهمي، وأنجز نشرها كاملة بعد وفاة الطهطاوي بعامين كاملين.

وجاءت الطبعة الجديدة مصورة عن طبعة مكتبة الآداب المصرية، منقوصا منها الجزء الذي كتبه ابنه. والكتاب ينضم مقدمة للدكتور سامي سليمان أحمد،

أستاذ النقد العربي الحديث بجامعة القاهرة، تحت عنوان 'رفاعة الطهطاوي ومدخل حديث لكتابة السيرة النبوية'.

وكتاب 'نهاية الإيجاز في ساكن الحجاز' قسمه الطهطاوي إلى عدة أبواب، وجعل في كل باب عدة فصول. فالباب الأول خصصه لمولد الرسول ﷺ إلى بعثته، وفي هذا الباب عدة فصول، الفصل الأول في مولده الشريف ونسبه الشريف، والفصل الثاني في ذكر عمل مولده الشريف واحتفاله، وعما جرى إثر مولده، وما بعده من أحداث. ويبحث في الفصل الثالث زواجه ﷺ من خديجة بنت خويلد ﷺ، وأولاده ﷺ منها، وفي الباب الثاني يبحث الكاتب عن مبعثه ﷺ ودعوته الناس إلى الإسلام، وعن هجرته إلى المدينة، وقسم هذا الباب أيضا إلى عدة فصول ففي كل فصل يتداول عن رسالته والهجرة إلى الحبشة، والهجرة إلى الطائف، والإسراء والمعراج. وفي الباب الثالث تناول هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وفيه أيضا عدة فصول، والفصل الأول يتحدث عن بواعث الهجرة والأسباب الممدة لها. والفصل الثاني وهو وصف لهجرته إلى المدينة مع صاحبه الصديق ﷺ، ووفي الفصل الثالث من هذا الباب يبين الطهطاوي الأحداث التي ظهرت بعد الهجرة. والباب الرابع تركه للحديث المفصل عن الظواهر التي حدثت بعد الهجرة إلى وفاته صلى الله عليه وسلم. فتناول الفصل الأول السنة الأولى من الهجرة وما فيها من

الغزوات. والفصل الثاني تناول السنة الثانية للهجرة وما فيها من الغزوات. وهكذا الفصول الثالث والرابع والخامس إلى التاسع، وفي الفصل العاشر يبين عن وفود العرب على النبي ﷺ، وضمّ إلى نفس الباب حجة الوداع. أما الباب الخامس وفيه الحديث عن وفاته ﷺ، والوصف عن أخلاقه وصفاته ومعجزاته وأزواجه وأعمامه وعماته وأخواله وخدمه، وهذا الباب فيه أربعة فصول، أما الباب السادس يتكلم فيه عن الوظائف والعمالات البلدية خصوصية وعمومية، أهلية داخلية وجهادية وجاء فيه ستة فصول، والباب السابع عن الحديث عن العمالات المتعلقة بالأحكام الخاصة بالإمارة العامة على النواحي والقضاء وما يتعلق به من إشهاد الشهود وكتابة الشروط والعقود والمواريث والنفقات والقسام وناظر البناء للتحديد وذكر المحتسب والمنادي ومتولي حراسة المدينة والجاسوس لأهل المدينة والسجان ومقيمي الحدود، وفيه ثلاثة فصول. وهكذا يتقدم الكتاب إلى اثني عشر باب وعدة فصول.

'حياة محمد' لمحمد حسين هيكل (ت .١٩٥٦)

جمع هيكل في هذا الكتاب جميع نواحي حياة النبي ﷺ في واحد وثلاثين فصل، وأشار إشارة جلية إلى جميع أحداث السيرة، واعتبر القرآن أصدق مراجع السيرة، وكان موقفه المنهجي في تمحيص رواية سيرة الرسول ﷺ عرضها على القرآن الكريم ومقارنتها به ثم بالصحيح الثابت من السنة.

ركّز هيكل اهتمامه في استخلاص النتائج من الأحداث فلا يفوته ما يؤثر عليها من آثار نفسية واجتماعية. فمثلا يقول في سياق حديثه عن رضاعة النبي صلى الله عليه وسلم في البادية " وأقام محمد في بني سعد إلى الخامس من عمره، ينهل من جو الصحراء الطلق روح الحرية والاستقلال النفسي ويتعلم من هذه القبيلة لغة العرب مصفاة أحسن تصفية "[٩٢].

'محمد' لتوفيق الحكيم(ت. ١٩٨٧)

كتب توفيق الحكيم سيرة الرسول ﷺ في إطار مسرحي، وهو أول أديب عربي اتخذ هذا الشكل الفني لسيرة الرسول ﷺ، وكتب سيرة الرسول ﷺ في قالب أدبي فني. ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٣٦م، واعتمد الكاتب في تأليف الكتاب على كتب السيرة والتاريخ والتراجم وأنه اقتبس جميع التفاصيل من كتب القدماء، فقد جاء الكتاب في أحسن شكل وأروع أسلوب وأحسن ترتيب، ويقول الأستاذ رجب البيومي "أن قصة نبي الإسلام محمد ﷺ لتوفيق الحكيم قصة إسلامية فهذا لا مجال للخلاف فيه، فالقصة نموذج مشرق للفن الإسلامي الملتزم، وقد راعى فيها الكاتب الكبير ما تتطلبه الدقة الواعية من التزام أحداث السيرة المطهرة، كما جاءت في الكتب المعتمدة لدى الباحثين" [٩٣].

---

[٩٢] هيكل، محمد حسين.*حياة محمد*. ص ١٢٩.

[٩٣] البيومي، محمدرجب. *بين الأدب والنقد*. مصر:دار المصرية اللبنانية. ١٩٩٧.ص ٩٤ .

خاتم النبيين للإمام أبو زهرة (ت. ١٩٧٤)

كتاب 'خاتم النبيين' نشر أولا عام ١٩٥٥م، في ثلاثة أجزاء. وهذا الكتاب فتح بابا للدراسة والإستنباط من السيرة النبوية، واعتمد الكاتب في كتابته على المصادر الأصلية المتنوعة، ولم يكتف الكاتب عند سرد النصوص بلاتمعن، بل أتحف القارئ من حين إلى آخر بلمسات إيمانية معبرة، وإشارات تربوية مفيدة، وفي الكتاب ثلاث تمهيدات وذلك في كل جزء من أجزائه، أول تمهيد في بداية الجزء الأول، وفيه الموضوعات مثل حياة النبي ﷺ من ولادته ثم بعثته، وصبره وصبر أصحابه حتى هاجروا من مكة إلى قيام الدولة الإسلامية، "أذكر حياة النبي ﷺ من ولادته التى أحاطتها الخوارق، وحياته التي كانت كلها إرهاصات بالنبوة، حتى بعثه الله تعالى بشيرا رسولا، وأوذي هو وحواريوه في الله، وصبر وصابر، حتى كانت الهجرة التي أنشئت بها مدينة الإسلام ودولة الإيمان" [٩٤].

وهكذا يبين في الجزء الثاني والثالث الوقائع والأحداث تحت عناوين لافت الأنظار وتشوق النفوس، أما بداية الكتاب وختامه فقد اختار الكاتب طريقة مختلفة، وأول الكلام في أول الصفحة بتسميتها "الافتتاحية" وفي هذا الافتتاحية اختار طريقة مختلفة عن الآخرين، فيسميها "محمد رسول الله وخاتم النبيين" أولا يحمد

[٩٤] أبو زهرة .*خاتم النبيين*.ج١. القاهرة:دار الفكر العربي. ٢٠٠٨ .ص٧.

الله سبحانه وتعالى على الفضل باكمال الدين وإرسال محمد ﷺ في سطور سبعة، ثم يعنون عناوين جميلة ذات موضوعات مهمة بقوله "يارسول الله" ثلاث مرات وفي الرابع بعنوان "يارسول الله يا خير البشر" ثم في الآخر بعنوان " يا رب العظيم" وفي العنوان الأول يقول" فأنى لأمثالنا أن يكتب في شأنك وأن يألو إلى شأوك، وإن ذلك أمر فوق المنال، ويعلو على مدارك الخيال، من أجل هذا نضرع إلى الله أن ينالنا بغفرانه، وأن تساميناً محاولين الوصول إلى الكتابة فيك، فالمعذرة قائمة، والقصور ثابت، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها"[٩٥]

أما ختام الكتاب وبعنوان "أما بعد" وكتب فيه سطورا أدبية تخلب القلوب وتوجهها إلى وجهة صحيحة فيقول "فهذه سيرة النبي ﷺ خاتم النبيين، لا ندعى أننا وصلنا إلى الغاية من تصويرها أو توضيحها أو أزلنا غشاوة عنها ولا ندعي أننا تساميناً حتى أدركناها وعلمنا أسرارها وكنهها ونورها في هذا الوجود ولكنا رأيناها فوق طاقتنا وأدركنا منها ما استطعنا إدراكه وسددنا وقاربنا وإذالم تبلغ الشأو ونصل إلى الغاية فإننا قصدنا وأردنا واحتسبنا النية ومثلنا كمثل من أراد أن يبلغ قمة تتصل بالسماء فعجز عن بلوغها فرضي لأن يقف على السطح ويرى النور

[٩٥] نفس المرجع.ص٥.

فوقها فحسبه منها المشاهدة دون الوصول ولقد رأينا فيما رأيناه قمة العلم النبوي وإن لم نستوعبه واستغرقنا نور الهداية وإن لم ندرك كل جرى.. ."[٩٦]

والكاتب اعتنى أن يرتب الأحداث حسب وقوعها، ويقول "وقد ذكرنا أن كتّاب السيرة لم يذكروا الأخبار مرتبة بترتيب الوقائع، وقد ذكروا انشقاق القمر بعد الإسراء والمعراج، ونحن رجحنا كما رجح ابن كثير أن الإسراء كان بعد وفاة أبي طالب وخديجة أم المؤمنين ﵂، إذ أنها توفيت قبل أن تفرض الصلوات الخمس والصلوات لم تفرض خمسا إلا في المعراج"[٩٧]

وأبوزهرة أتحف مكتبة السيرة النبوية بعمله الرائع الجميل، وهو صاحب الفصاحة والإنشاء والبلاغة، وله أسلوب متين جذاب، وراعى الذوق الأدبي في كتابتها، وقدمها من خلال أعمق المعاني، وأصفى العبارات، وقدم المعلومات في صورة أدبية، وقام أفكاره القيمة العالية بعبارة أدبية مشرقة لاتكون مغلقة غامضة ولا مبهمة ولامعقدة ولا غريبة، وفي وصف بلاغة النبي ﷺ وفصاحته وصفها بعاطفة جياشة جذابة.

[٩٦] أبو زهرة. خاتم النبيين. ص ١١٠٧.

[٩٧] نفس المرجع. ص٤٠٩.

'السيرة النبوية دروس وعبر' لمصطفى السباعي (ت. ١٩٦٤)

وكتاب 'السيرة النبوية دروس وعبر' وهو ملاحظة أعدها د. السباعي لإلقاء المحاضرات أمام طلبة كلية الشريعة بجامعة دمشق، وأنهم أظهروا رغبتهم الشديدة فيها وكانوا ينتظرون أشد الانتظار لاستماعها بعد نهايتها "وبعد.. . فهذه مذكرات كتبتها على عجل وشدة من المرض بعد أن ألقيتها محاضرات مفصلة على طلاب السنة الأولى في كلية الشريعة، وتوخيت فيها أن أبرز أوضح مظاهر الأسوة في سيرة الرسول الكريم ﷺ، مما ينبغي على كل مسلم وداعية إلى الله عزوجل، وعالم بالشريعة، وحامل لفقهها، أن يتتدبره ويجعله نصب عينيه، ليكون له شرف الاقتداء برسوله ﷺ، وليفتح أمامه باب النجاح في الدعوة بين الناس، وباب القبول والرضى من الله جل شأنه"[٩٨].

يصور الكاتب في هذا الكتاب الذي لا تتجاوز صفحاته على مائة صفحة موجزا سيرة الرسول ﷺ، وقد رتبها بعاطفة دينية وحب عميق للرسول ﷺ، وأكمل جميع الخصائص النبوية للدعوة الإسلامية، وأكد بقوله أن الحياة النبوية أسوة حسنة للدعاة والهداة، والنجاح والفوز منوط باتباعها. وأبدع في بيان الوقائع التاريخية والأحداث المتعلقة بحياة النبي ﷺ بيانا قويا واضحا، معتمدا على الروايات

[٩٨] السباعي،مصطفى. *السيرة النبويّة دروس وعبر*. القاهرة:مكتبة الفنون والآداب. ٢٠١٤. ص٣.

الصحيحة، يجعل القارئ مطمئن النفس. واختار لبيان الأحداث أسلوبا سهلا علميا مؤثرا، يتفق مع ذوق أذهان أبناء العصر الحديث، واتخذ أيضا أسلوب داعية، فأضاف في جميع الفصول بعد سرد الأحداث التاريخية حظه الخاص، لعنوان الدروس والعظات والعبر تحت الأرقام المختلفة، ووجه القارئ إلى درس السيرة النبوية على ضوء الدعوة والداعية.

وانتقد المستشرقين والكتّاب الغربيين، وعرض مقاصدهم الفاسدة ومكرهم لتشويه الشخصية المطهرة، واعتنى أيضا بالمرأة المسلمة ويرشدها إلى الابتعاد عن الحضارة الغربية، ويطلب منها الاشتغال بالدعوة الإسلامية. وأسهب في الكلام في غزوات النبي ﷺ وبين مقاصدها، وهي في حد قوله إحياء الدعوة الإسلامية وطريق لتنفيذ الأحكام الإلهية بين عباده، ووسيلة لاستأصال الظلم والفساد والفتنة من المجتمع الإنساني. فالدكتور مصطفى السباعي قدم السيرة النبوية عاطفيا حاسميا مظهرا نزعاته الدينية وحماسه الإسلامي.

'محمد رسول الله والذين معه' لعبد الحميد جودة السحار(ت. ١٩٧٤)

السحار ألف هذا الكتاب في صورة قصصية، وكان في أمنيته منذ أن بدأ الكتابة أن يكتب سيرة الرسول ﷺ في أسلوب قصصي يجذب القارئ ويجعله يعيش مع الأحداث التي عاشها أصحاب النبي ﷺ، وأخذ الكاتب في هذا الصدد أن يكون عمله خاليا من الزلات، لأنّ إلباس السيرة لباس القصة أمر شاق، لاسيما إذا

كانت عن الرسول ﷺ، وبحسن نيته وإخلاص محبته للرسول ﷺ فاز الكاتب أن يجعل هذا اللون من السيرة خالية من الأخطاء، وبعيدا عن الملام.

كتب السحار قصة الإسلام منذ أيام إبراهيم عليه السلام إلى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، في عشرين جزءا. ففي الجزء الأول يقص قصة خليل الله إبراهيم عليه السلام وفي الجزء الثاني قصة هاجر أم إسماعيل عليه السلام، ثم الأجزاء المتتالية قصة بني إسماعيل، والعدنانيين، والقريش، وفي الجزء السادس يبدأ الكاتب عن مولد الرسول ﷺ، واتخد للجزء الثامن عنوانا "اليتيم"، ويتناول الجزء الثامن قصة خديجة بنت الخويلد، وفي الجزء التاسع "دعوة ابراهيم" يقص الكاتب بداية الدعوة الإسلامية، والجزء العاشر فموضوعها الأحداث التي وقعت في عام الحزن، والمشاكل التي واجهها الرسول ﷺ، وقصة الهجرة مبينة في في الجزء الحادي عشر من الكتاب، وتشتمل الأجزاء من الجزء الثاني عشر إلى الجزء الثامن عشر الوقائع والغزوات، ويحتوي الجزءان الآخيران على القصص من الأيام الأخيرة للرسول ﷺ إلى وفاته. ومرجع الكاتب في هذه المهمة القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، وقصص من التوراة، وكتب التاريخ القديمة والجديدة.

والقراءة في فقرات الكتاب تظهر مهارة الكاتب في صوغ هذه الأحداث الجليلة في قالب قصصي، فمثلا قوله في أحداث عام الحزن (إنّ قلب محمد إلى أهله ليس له عون إلا عون ربه، وإيمان بإلهه، وترتجف بوادره من هول ماكان بينه وبين رسول ربه في غار حراء، وقد أشفق على نفسه من ضخامة المسئولية التي وضعت على كاهله، فقد أمر وهو الأعزل من كل سلاح أن يقف في وجه الفساد الذي استشرى في الأرض وأن يتحدى الجبابرة والعتاة والمفسدين، حتى يتم الله نوره ولم يخفف من حدة الهلع الذي نزل بقلبه إلا أنه وعد بنصر من عند الله"[٩٩]

'فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة' لمحمد سعيد رمضان البوطي (ت. ٢٠١٣)

وسعيد رمضان البوطي في كتابه 'فقه السيرة النبوية' ينهج منهجا يساير مع العصر الحديث، وفي ختام آخر كل فصل يحلل الحوادث ويلخص العبر والعظات، والكتاب يقرب إلى المنهج الموصوعي التحليلى، وحينما يذكر عن زواجه ﷺ بخديجة أم المؤمنين يرد على الذين يهاجم الرسول ﷺ، في شأن الزواج، ولكنه لا يمعن في الجواب بل يلحظ أن النقاش في الاتهامات أيضا نوع من زيادة التهمة " ولسنا نرى الإطناب في الدفاع عن زواجه عليه الصلاة والسلام، على نحو ما يفعل كثير من الباحثين، إذ لا نعتقد أن ثمة مشكلة تحتاج إلى النظر أو

[٩٩] السحار،عبد الحميد،. *محمد رسول الله والذين معه*. ج ١٠. ص ٨.

البحث، وإن أوهم خصوم الإسلام ذلك. ورب حق من حقائق الإسلام، لا يطمع خصومه لإبطاله، بأكثر من استجرار المسلمين إلى مناقشة دفاعية في شأنه"[١٠٠]

واختار الرواية على منهج يلائم علم أصول الحديث على حد قوله يقول في مقدمة الجزء الثاني "ولقد سلكت فيه الطريقة التي سلكتها في الجزء الأول فأفردت أبحاث السيرة، على شكل نصوص، اعتمدت فيها أولا على صحاح الستة، ثانيا على ما صح من أخبار السيرة في كتبها، وأهم ما اعتمدت عليه من ذلك سيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد"[١٠١]

[١٠٠] البوطي، محمد سعيد رمضان. *فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة*. ،ط١. ج١. بيروت: دار الفكر. ١٩٩١.ص ٥٤ .

[١٠١] البوطي، محمد سعيد رمضان . ج٢ .ص ٤.

'فقه السيرة' لمحمد الغزالي (ت. ١٩٩٦)

بين المؤلف في مقدمة الكتاب مقصده من تأليف الكتاب "إن المسلمين الآن يعرفون عن السيرة قشورا خفيفة، لاتتحرك القلوب، ولا تستثير الهمم، وهم يعظّمون النبيّ ﷺ وصحابته عن تقليد موروث ومعرفة قليلة، ويكتفون من هذا التعظيم بإجلال اللسان، أو بما قلّت مؤنته من عمل"[١٠٢].

لأن المؤرخين المحدثين مالوا إلى التعليل والموازنة، وربط الحوادث المختلفة في سياق متماسك، ويتبع الغزالي "وقصدت من وراء ذلك أن تكون السيرة شيئا ينمّي الإيمان، ويزكّي الخلق، ويلهب الكفاح، ويغري باعتناق الحق والوفاء له، ويضم ثروة طائلة من الأمثلة الرائعة لهذا كله"[١٠٣].

وتتضح خصائص كتابة السيرة في العصر الحديث من قراءة أمثال هذه الكتب، وهناك كتب عديدة في هذا المجال كتبها أعلام الأدب العربي في هذا العصر مبينين جوانب من حياة رسول الله ﷺ المختلفة حسب نزعاتهم النفسية، ومقاصدهم النبيلة، مستخدمين في عمليتهم أساليب الكتابة المستحدثة، ملائما متطلبات الظروف والأوضاع.

[١٠٢] الغزالي، محمد. *فقه السيرة*.ط٣. دمشق: ص ٦.

[١٠٣] نفس المرجع. ص ٦.

الفصل الثاني
المدارس والمناهج في كتابة سيرة الرسول ﷺ
في العصر الحديث

وقد أثرت اتجاهات كثيرة ومدارس مختلفة في كتابة السيرة في العصر الحديث، وكانت بداية الوعي الإسلامي في العصر الحديث علي يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه مختصر السيرة النبوية، وكتاب رفاعة الطهطاوي، 'نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز' وهذان الكتابان تركا طريقا جديداً في تأليف سيرة الرسول ﷺ يتبعه المحدثون. وكتاب 'السيرة النبوية' لأحمد بن زيني دحلان المكي في ثلا ثة أجزاء ترسم صورة مابين الجديد والقديم في كتابة السيرة إذ يعنون الكاتب فصلا فصلا ولكنه يتعب القارئ بذكر السند والرواية.

وأهمية هذه الكتاب من أنها ضمن أول ما تم تأليفها في العصر الحديث في سيرة الرسول ﷺ بعد انقطاع قرن عن كتابة السيرة. وهذا يؤكد حقيقة كونية بأن المسلمين كان اتصالهم بسيرة الرسول ﷺ، وثيقاً كلما علا شأن الإسلام وارتفع شأن المسلمين، وكلما انقطع المسلمون عن دراسة السيرة أدى إلى خمولهم

الفكري وانحطاطهم الأخلاقي وتأخرهم الحضاري. وقد كانت طريقة المؤلفين في التأليف في بداية هذا العصر على طريق كتب الأقدمين، وكانت طريقتهم في إظهار السيرة مقلدين طريقة الأقدمين في التناول والمعالجة.

تنوع المناهج في كتابة سيرة الرسول ﷺ

بعد الهجمة الشرسة من المبشرين والمنصّرين على بلاد الشرق الإسلامي، في العقد الثالث من القرن العشرين، نهض الدعاة والمفكرون والكتاب والأدباء والعلماء. وتفكروا في صياغة السيرة في قالب جديد، وانتهجوا مدسة جديدة فيها، وصار المنهج العلمي التحليلي من مفضليات الكتاب، ولقد نالت هذه المناهج قمة عظمتها، وأوج عطائها في العصر الحديث علي يد مهرة من الأدباء العظماء الذين ألفوا في سيرة الرسول ﷺ بشكل أدبي، وتمايز كل منهم عن الآخر، حسب براعته وأسلوبه وثقافته، فأبرزوا جوانب عظمة الرسول ﷺ،في البلاغة والبيان بأسلوب ساحر جذاب. وهذه الطريقة اعتنت بجوانب عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم في البلاغة والبيان. ومن أشهرهم، محمد جاد المولى في كتابه'محمد المثل الكامل' وكان محمد جاد المولى من الذين تلقى العلم في أوروبة وعاد إلى مصر ولم يفتن عن أصله ودينه، كان مفتشا للغة العربية بوزارة المعارف العمومية، وضع كتابين: أولهما 'محمد المثل الكامل' والآخر: 'محمد الخلق الكامل'، تناول فيهما حوادث

من حياة الرسول ﷺ منذ ولادته حتى وفاته ﷺ. وصادف الكتاب قبولاً ما لم يكن يتوقعه معاصروه من قادة الثقافة.

واختص مصطفى صادق الرافعي في كتابه 'إعجاز القرآن' موضوع البيان النبوي بنحو ٧٠ صفحة تحت عنوان "رسول الإنسانية وبلاغة الرسول". وأفرد فصلا كاملا عن "الأدب المحمدي" في الجزء الثالث من كتابه: 'وحي القلم'. لقد وصل الرافعي ما انقطع من مواصلة البحث منذ عصر الجاحظ والشريف الرضي.

ونضجت مدرسة باسم الدفاع عن السيرة النبوية،أو المدرسة العقلية الاصطلاحية، هذه المدرسة كان لها الحظ الوافر في الدفاع عن سيرة الرسول ﷺ، وبيان حقيقة الإسلام والرد علي طعن المستشرقين وما يثيرونه من أباطيل حول شخصية الرسول ﷺ. وإنّ حملة أوروبة للتبشير والدعوة إلي تنصير العالم الإسلامي صارت الدافع وراء هذا النوع من التأليف، وقد أرصدت هذه المدرسة الرد العلمي على أمثال هؤلاء المتجاهلين المغتابين وما يثيرونه من طعن وشبهات صادرة من حقد على الإسلام ورسوله ﷺ، وكان للإمام محمد عبده فضل السبق في هذا المجال وتابعه في ذلك تلاميذه في العالم العربي والإسلامي. كتاب 'رسالة التوحيد' لمحمد عبده وكتاب 'الوحي المحمدي' لمحمد رشيد رضا و'سيدنا محمد ﷺ ' له أيضا، وكتاب 'السيرة المحمدية تحت ضوء الفلسفة والعلم الحديث'

للأستاذ محمد فريد وجدي، وكتاب 'خاتم النبيين' للإمام محمد أبو زهرة، وكتاب'الظاهرة القرآنية' لمالك بن نبي، وكتاب 'السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة' لمحمد أبو شهبة كلها من الكتب المشهورة المتداولة أكثر في هذه الاتجاهات.

وقد تطورت مدرسة باسم مدرسة فقه السيرة أو المدرسة الحركية، والمدرسة الحركية امتداد طبيعي لأفكار المدرسة العقلية الإصلاحية، ولقد احتفلت هذه المدرسة احتفالاً خاصاً بسيرة الرسول ﷺ وببيان الجانب الفقهي والحركي منها، نظرا لأنها تمثل الجانب العملي من السنة وفيها تتجلي شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم كداعية إلى الله وقدوة حسنة وقائد، وداعياً إلى الله وبشيراً ونذيراً، وفيها التطبيق العملي الحي للمبادئ القرآنية. وفيها يتجسد القرآن حياً، وفيها نبض الحياة بمواقفها الصعبة، والفرح والحزن وأوقات الشدة، وأوقات اللين والنصر والهزيمة، وتميزت هذه المدرسة بالمنهج التحليلي، حيث يقوم الباحث بإيراد نصوص السيرة وأحداثها، ثم دراستها وتحليلها ومحاولة النظر في فقهها واستنباط الفوائد والدروس والعبر منها، وهو ما يعبر عنه في أحيان كثيرة بفقه السيرة، ويدخل في ذلك ما كان شاملا للسيرة أو لجزء أو أجزاء منها. ولم يعتمد الكتاب في هذا الاتجاه على كتب الأقدمين في السيرة فحسب، بل زادوا على ذلك استفادتهم من كتب الفقه والحديث وشروحه، وكذلك حاولت هذه المدرسة

إعادة قراءة سيرة الرسول لاستخراج الدروس العملية التي تصلح كعلاج لمواطن الضعف والخلل في جسد الأمة العربية والإسلامية.

وكتاب 'نظرات في السيرة' لحسن البنا، و'فقه السيرة' للإمام محمد الغزالي، و'السيرة النبوية دروس وعبر' للدكتور مصطفي السباعي، و'الأساس في السيرة وشيئ من فقهها' لسعيد حوى، و'فقه السيرة' لسعيد رمضان البوطي، و'السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث' لعلي محمد الصلابي، و'المنهج الحركي للسيرة النبوية' و'فقه السيرة النبوية' لمنير غضبان من أشهر الكتب المعدودة في قبيل هذه المدرسة.

وطائفة من الكتاب تمثلوا المدرسة التاريخية الحديثة، التي تهتم بالأحداث والوقائع التاريخية في حياة الرسول ﷺ على حدتها. ومنهم عبد الوهاب النجار في 'قصص الأنبياء' ومحمد الخضري في 'نور اليقين' والدكتور حسين مؤنس في كتابه'دراسات في السيرة النبوية' والدكتور أكرم ضياء العمري في 'المجتمع المدني في عهد النبوة' خصائصه وتنظيماته الأولى' .

أما المدرسة العسكرية الإسلامية فقد اهتمت بدراسة الجانب العسكري وما نتج عن هذه الإستراتيجية العسكرية الجهادية القتالية من فنون القيادة والإدارة والسياسة في سيرة الرسول ﷺ،وغزواته ومعاهداته. وبينت هذه المدرسة فلسفة

القتال في الإسلام وأهدافه، والذي لم تنحصر في الجانب القتالي والجهادي فقط، بل أوضحت النظرة الواسعة والأهداف الكبرى، واهتمت أيضا الجانب القيادي للرسول ﷺ.

ومن أصحاب هذه المدرسة عبد الحي الكتّاني، وهو محدث ومؤرخ ورحالة مغربي صاحب كتاب 'نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإداري' وهو أشهر كتب السيرة النبوية الذي يهتم بدولة الرسول ﷺ، وكتاب 'الرسول القائد' و'قواد النبي صلي الله عليه وسلم' لمحمد شيت خطاب وكتاب 'من معارك الإسلام الفاصلة' للأستاذ محمد أحمد باشميل، وكتاب 'مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة' لمحمد حميد الله الحيدري، وكتاب 'العبقرية العسكرية في غزوات الرسول' للأستاذ محمد نوح كلها خير مثال للمدرسة العسكرية الإسلامية.

وفي مرحلة ثورة يوليو ١٩٥٢ التي وقعت في مصر وما بعدها تأثرت كتابة السيرة بفكر الثورة القومي العربي والاشتراكي،حتى عرفت بمدرسة الثورية والاشتراكية في السيرة، فألف بعض رجال الثورة في السيرة، مثل فتحي رضوان كتابه'المحمد الثائر الأعظم'، وخالد محمد خالد 'معا على الطريق: محمد والمسيح'، وهذا الكتاب دعوة إلى وحدة روحية واجتماعية بين المسلمين والنصارى"هذا ما أريده تماما... أن أقول للذين يؤمنون بالمسيح، وللذين يؤمنون بمحمد: برهان إيمانكم إن كنتم

صادقين، أن تهبّوا اليوم جميعا لحماية الإنسان.. . وحماية الحياة"[١٠٤]. وخلال قيام الاتحاد الاشتراكي في مصر ظهر كتاب 'محمد رسول الحريّة' لعبد الرحمن الشرقاوي، وكتب محمود الشلبي 'اشتراكية محمد'.

وأصدر رابطة العالم الإسلامي كتاب'السيرة النبوية في القرآن الكريم' وكاتبه عبد الصبّور مرزوق المصري. وشوقي ضيف كاتب أديب ناقد لمع بقلمه في مجال الدراسات الإسلامية ولم يفته الكتابة قي سيرة الرسول، وكتابه 'محمد خاتم المرسلين' آخر ما كتبه المؤلف.

المنهج الأدبي في سيرة الرسول ﷺ

إن الإحياء والنهضة الحديثة للأدب العربي أصبح فرصة لتهذيب الأدب العربي مما لاقى من الضعف في العصور الماضية، وأتوا الكتاب إلى الأدب العربي بأنواع نثرية جديدة لم يسبق إليها، وهذا التجديد والتنوع في الأسلوب النثري، شمل سيرة الرسول ﷺ أيضا، وألف الكتّاب في سيرة الرسول ﷺ في منهج يناسب ركب التجديد، وصاغوها صياغة نثرية حديثة على اعتقاد أنها وفاء لحاجات المجتمع. فسيرة الرسول في العصر الحديث تغلب في تناولها الصورة الأدبية، فجاء منها في مختلف الأثواب، كالقصة والرواية والمسرحية، والتراجم الأدبية.

[١٠٤] خالد محمد خالد. *معا على الطريق*. .. محمد والمسيح. ط ٧.

عندما تسربت القومية المصرية إلى قراء مؤلفات الإسلاميين في العصر الحديث تكاتف المسلمون من كافة المذاهب للدفاع عن الإسلام، وأدت هذه الأفكار إلى أن أضاف إليها صبغة دينية، وقومية، كان لاندفاعها ولمبالغتها تأثير على الحياة السياسية في مصر، كما تأثّر في التكوين العقلي والنفسي والخلقي للشباب، وتشكلت هناك جمعيات مثل " جمعية الشبان المسلمين" و"جمعية مكارم الأخلاق الاسلامية" و"جمعية نشر الفضائل الإسلامية" و"جمعية إحياء السنة" وهذه الجمعيات تحولت إلى جمعيات يتعايش فيها كل من الدين والوطنية جنبا إلى جنب، ونشأت جمعيات أخرى لها ثنائي، ديني وسياسي، في الوقت نفسه، هما "جماعة الإخوان المسلمون" و"جمعية مصر الفتاة". و"جماعة الإخوان المسلمون " أسست سنة ١٩٢٧م، أما "جمعية مصر الفتاة" قد تم تأسيسها سنة ١٩٣٣م على يد المحامي أحمد حسن، واتخذت هذه الجمعية اسم "الحزب الوطني الإسلامي" سنة ١٩٤٠م، وقد قامت هاتان الجمعيتان في سبيل الدفاع والحماية عن الإسلام، والحضارة الإسلامية، وهاجموا السياسة التي تتبعها الدول الكبرى في البلدان الإسلامية الخاضعة لسلطانها، وتصدت أمام الفوضى العادات في البلاد الشرقية، وأقامتا الثورة ضد بعثات التبشير بالغة الحدة، لاسيما في شهر مارس وأبريل من سنة ١٩٢٨، وهي السنة التي عقد فيها المؤتمر العالمي للأعمال التبشيرية جلساته في القدس، وحينا بعد حين كانت البعثات التبشيرية تتهم بأنها

تعتمد على أعمال لتبعث الحيرة والبغضاء، وتعدت هذه التهمة إلى المدارس الأجنبية العلمانية منها والتبشيرية. وأنها تنشر تعليما معاديا للإسلام، وأنها تجعل الشبان المصريين ينحرفون عن طريقتهم المثلى، فاشتد الهتاف بتطوير منهج التعليم المصري، وفتحت مدارس جديدة ليكون المسلمون بعيدين عن الدعايات الفاسدة عن دينهم، التي ينشرها المدلسون الأجانب، حتى تمكن عند المسلمين لذة إسلامية في قراءة النصوص الإسلامية.

وقد سبّبت الدعاية على الإسلام لنشأة جيل جديد، وتطور تيار قوي ضد الأجانب بين الطلاب وحرم الجامعات بالمدن والقرى، ولا يزال هذا التيار يتزايد يوما بعد يوم حتى انفجرت الحرب العالمية الثانية، وعلى هذا الطريق عمل الكثيرون على أن يتبوّأ الدين في حياة البلاد السياسية مكانة بارزة."ولهذا قفد رأينا سلامة موسى عام ١٩٣٥ يصرح بأن الإسلام هو دين بلادي ومن واجبي أن أدفع عنه"[١٠٥]

[١٠٥] الكريم، سامح. *إسلاميات*.ص ٣١.

نقطة تحول السيرة إلى المنهج الأدبي

وكان عناية الكتاب في سيرة الرسول ﷺ في بداية العصر الحديث، اتخاذ منهج للحياة من حياة الرسول ﷺ "وإن أهم ما كتب في بداية النهضة عن السيرة النبوية مادونه رفاعة رافع الطهطاوي الذي عده الدارسون فاتحة جديدة لكتابة السيرة، وقد امتاز الطهطاوي بما أثبته من أعمال الرسول ﷺ في بناء دولة الإسلام الأولى. إن ماكتبه رفاعة حول سيرة الرسول كان في غالب الأحيان، أدخل في باب التاريخ منه إلى الفن الأدبي"[١٠٦].

وأن سيرة الطهطاوي مدخل جديد إلى سيرة الرسول ﷺ، غير أنّ أفكاره التي بسطها في الكتاب يندرج في باب التاريخ منه إلى الفن الأدبي، وهو ارتكز على المواد التاريخية، وبغير تحقيق. هذا في القرن التاسع عشر الذي كان التاريخ يغلب كتابة سيرة الرسول، أما في القرن العشرين وقد شهدت السيرة لتطور واسع، فجاءت في الأدب القصصي والروائي، والمسرحي، فظهرت محاولات لرسم شخصية الرسول في الصورة المستحدثة، من ألوان النثر العربي المعاصر.

وهناك عوامل وأسباب ساعدت في تنشيط كتابة السيرة في المنهج الأدبي والتحليلى، منها:

[١٠٦] الحضري، محمد حامد .*السيرة النبوية في الأدب العربي الحديث*. جامعة القاهرة.ص١٩.

١. **الحركة التبشيرة وازدياد أعمالها يوميا**، وكانت الصحف تروي أخبارها في ثلاثينات القرن العشرين، وتدعم هذا النشاط الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وجاوز هذا النشاط من القاهرة إلى بور سعيد وغيرها من المدن المصرية، وكانت الصحف وقتئذ يبالغ في وصف العمل التبشيري، وتذكر الإغرءات المادية التي تقدمها أصحاب التبشير لاعتناق المسيحية، وقد كان محمد حسين هيكل، وعباس محمود العقاد أشد الناس تحمسا لمقاومة هذا التبشير، فاندفعوا في مقاومتها بالطريقة العلمية المثلى وفكروا وتدبروا فوجدوا أن إعادة كتابة التاريخ الإسلامي بمنهج يقتنع به المسلم وغير المسلم خير وسيلة للدفع هذا الضرر، يقول عباس محمود العقاد " ولا يقال عن هؤلاء الكفرة في عداوتهم للإسلام جماعة المؤمنين المحترفين سماسرة التبشير، الذين يتخذون تشويه الإسلام صناعة يستدرون بها الرزق ويتوسلون بها جاه الرئاسة وسمعة الصلاح، والتقوى بين المتعصبين والجهلاء في البلاد الأوربية والأمريكية. فهؤلاء أصحاب مصلحة في تشويه الدين الإسلامي وتمثيل المسلمين على الصورة التي تذكي عند القوم جذوة التعصب وغلى لهم في الجهالة والغفلة"[١٠٧].

٢. دخول بعض الكتابات الأجنبية عن الإسلام إلى مصر: وهذه الكتب جاءت مع الحركة الاستشراقية العالمية، وقد بدأ هذا العمل في البلاد الأوربية في أوائل

[١٠٧] العقاد، عباس محمود. *ما يقال عن الإسلام*. وكالة الصحافة العربية.٢٠١٨.ص٦٥.

القرن الثامن عشر، وتلك الحقبة التي بدأت أوربة الاتصال بالعالم الخارجي، وقصد المستشرقون في بحثهم التراث الإسلامي، ونتيجة لذلك نشرت بعض الكتب تشوه الإسلام، وتسيئ إلى رسوله ﷺ، وأيضا كانت هذه الكتب مليئة بالتعصب الديني وكثير من التعصب القومي، فلما نشأ في مصر جيل يقرأ الكتب في اللغة الأجنبية، ولم يجدوا ما يسد مسده في اللغة العربية، والكتب المؤلّفة عن حياة الرسول ﷺ، لاتقوم مقام تلك الكتب، فبدأ "كتاب أدباء هذا الجيل يتعلمون منهجهم في الكتابة وفي نفس الوقت يتصدون للكتابة في الإسلام بهذا المنهج، بذلك قضوا على زعم هؤلاء المستشرقين أنهم هم وحدهم الذين يستخدمون المنهج العلمي في كتابة التاريخ الإسلامي"[١٠٨].

٣. كتابات المتعصبين للغرب وطنيا وجنسيا: وكان هؤلاء يقولون إن المسلمين العرب عوّلوا في خدمة دينهم وفي خدمة لغتهم على المجتهدين من الآريين، وهؤلاء الفئة من الكتاب الغربين الذين يضمرون السوء نحو الإسلام ألفوا عن الإسلام وعن المسلمين وعن العرب كانوا ممن يدينون بالمذاهب الفاشية أو النازية في السياسة والاجتماع.

٤. كتابات طائفة تشوب كتابتها الغرض حينما يتحدثون عن البلاد الإسلامية، وهؤلاء الكتاب يقدمون كتاباتهم إلى القراء ألف ليلة وليلة ورباعيات عمر الخيام،

[١٠٨] الكريم، سامح. *إسلاميات*. ص ٣٥.

ورحلات الرواد عبر القرون الوسطى، وهؤلاء الصنف من القراء يشتاقون أن يسمعوا أخبارا غير الذي ألفوه، ولكن في الصورة التي تعودوا الإستماع إليه، وبدأ هؤلاء المشوهون في رواية أخبارهم وأعاجيبهم ينالون من الإسلام ورجاله شيئا فشيئا، فولجوا إليه من كل مدخل.

٥. فراغ المكتبات من الكتابات الإسلامية المقنعة، وله سببان: **الأول** عدم المفكرين النابغين المجيدين في الكتابة يستطيعون الصمود أمام هذه الحروب الضاربة، مثل جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، والذين قاموا بالكتابة في ذلك العهد، كانوا مفكرين يستخدمون السياسة الغالبة على دولهم. **والثاني:** انصراف الأدباء المفكرين إلى الكتابة السياسية والأدبية، والعشرينات والثلاثينات من القرن العشرين عصر أزمة سياسية في مصر، وقد عطل الدستور وفرضت على الناس دكتاتورية الأقليات السياسية، وألغيت الصحف، وقيدت على الحريات. فانصرف الكتاب في هذه الفترة إلى الصحافة. ومن ناحية أدبية كان هم أكثر المفكرين والأدباء النقد والأدب، فقد كانت هذه الفترة إحياء للآداب العربية كما حدث للآداب الأوربية، وعنه يعبر طه حسين في تقديمه لكتاب "فجر الإسلام".

٦. اللياذ بالعقيدة الدينية تحرزا من المذاهب المادية، وللأستاذ العقاد مقالة شاملة تظهر هذه الظاهرة، نشرته روز اليوسف يقول فيها "إن السبب العالمي

الأكبر لهذه الظاهرة هو فشل الفلسفة المادية في إقناع العقول وإرضاء النفوس وطمأنينة الضمائر بعد احتياجها العالم زهاء قرن كامل، واعتزاز الناس بها في غير طائل، وانتظارهم منها التعطيلات والتفسيرات... وأما السبب الشرقي فهو اليقظة العربية واللياذ بالعقيدة التي تعيد ذكرى المجد القديم، وتحمي أصحابها من غارات أعدائها في العصر الحديث، ففي الحجاز وفي اليمن والعراق وسوريا وغيرها من البلدان الإسلامية،... يحيط بهذه الأسباب جميعا سبب شامل ذلك هو الفزع من الشيوعية والاعتصام منها بالعقائد الروحية التي لا تسيغ المذاهب المادية". [١٠٩]

٧. التفات المسلمين المثقفين إلى قراءة الكتب العربية: بعد ما كانوا يقرؤون الكتب الأوربية، وكان هذه الفرقة اتجهوا إلى الفلسفة وأهملوا التفكير في الأديان كلها وفي الرسالة الإسلامية وصاحبها، فاقتحم إلى ميدان الكتابة كثيرون مستدركين أن أعمالهم هذه تبطل ما يقصد الاستعمار من تأييد للطاعنين في الإسلام تحت اسم حرية الرأي. وليس هناك ضرر للإسلام من انصراف متعلميها إلى كتابات عن الإسلام إلى مؤلفات غير المسلمين.

٨. تحدي الحركة المحافظة: وقد عادت هذا الفكر إلى مصر في النصف القرن التاسع عشر، وذلك الوقت الذي تمر مصر لمرحلة عسير لولادة فكر مصري متميّز، فقامت طائفة من أبناء مصر تصد هذا التيار من الجمود.

[١٠٩] نفس المرجع. صفحة ٣٨.

٩. رغبة الكتاب والأدباء في إيجاد وسيلة لربط حاضر الأمة بماضيها، فكروا في ذلك كثيرا، فاتجهوا إلى الفرعونية يطلبون فيها الاتصال بالحاضر، فما وجدوا ذلك هناك، وأيقنوا أن الإسلام هو الأفضل والخير من جانب امتداد إلى الحاضر، يقول الهيكل في مقدمة كتاب 'حياة محمد' " خيل إليّ كما خيل إلى أصحابي أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى هذا النهوض، ولكن ما في الغرب غير صالح لأن ننقله فتاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب، وثقافتنا الروحية غير ثقافة الغرب" [١١٠]

١٠. الأسباب الشخصية، وذلك أن معظم الكتاب كانوا من الذين حفظوا القرآن في صغرهم، كما يبين ذلك طه حسين في "الأيام" وعباس محمود العقاد في "أنا" ومحمد حسين هيكل في كتابه " مذكرات في السياسة" ويضاف إلى ذلك الدكتور أحمد أمين والأستاذ توفيق الحكيم، وهذا يعني أن للوراثة وظروف النشأة شيئا لايستهان به في هذا، ويعترف عباس محمود العقاد هذا في مقدمة كتابه فاطمة الزهراء " ترد الإشارة إلى الوراثة في مواضع شتى من هذه الصفحات التالية، ونعوّل عليها في مناسبات شتى لتفسير بعض الأطوار ومنها أطوار الجماعات أو أطوار الحركات التاريخية، وأراني أهم بأن أضرب المثل فأبدأ بنفسي وبأثر الوراثة في كتابة هذه الصفحات وكتابة كثير من الصفحات في

[١١٠] هيكل، محمد حسين .*حياة محمد*.ص٦.

الموضوعات الإسلامية"[١١١] . فالعقاد يؤكد أن للوراثة وظروف النشأة أثرا فيما قدم بعد ذلك من الكتابة في الإسلام.

١١. مصادفة هذا الكتاب للحصول والاطلاع على الحضارة الغربية، والدكتور طه حسين والأستاذ عباس محمود العقاد والدكتور محمد حسين هيكل كانوا ممن تشبعوا بالحضارة الغربية، إما بسبب السفر كما في شأن طه حسين ومحمد حسين هيكل، أو بالاطلاع على هذه الحضارة من خلال الكتب كما حدث في شأن عباس محمود العقاد.

وفي هذه الظروف وبهذه الأسباب فكر هؤلاء الكتاب ومن أمثالهم إعادة كتابة التاريخ الإسلامي مستخدمين الأدوات الغربية في السرد والبحث.

[١١١] العقاد،عباس محمود. *فاطمة الزهراء والفاطميون*. ط٥. الإدارة العامة للنشر. ٢٠٠٦.مقدمة

سيرة الرسول ﷺ في القرآن الكريم

ومن الاتجاهات الحديثة في كتابة السيرة ما قام بعض الكتاب بسرد أحداث السيرة من القرآن الكريم والقرآن ليس فيه ذكر الأعلام والتاريخ وهو مصدر أولي من مصادر السيرة.

واستنبط طائفة من الكتاب أحداث السيرة من آيات القرآن، ونظموا هذه الآيات كالتالي في القلادة. إن القرآن الكريم من أهم وأصدق مصادر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، فالقرآن الكريم رسم صورة واضحة، وأمينة لشخصية الرسول ﷺ في جميع أحواله وحالاته، ورغم أن القرآن الكريم أحد مصادر الأصلية للسيرة النبوية، لم يهتم العلماء باستخلاص هذه السيرة من مجمل الكتاب العظيم، وتفصيلها، وهو منحى جديد في دراسة السيرة النبوية جدير بالاهتمام. إن القرآن الكريم ليس كتاباً في السيرة،غير أنه عالج قصص الأنبياء وسيرتهم ودعوتهم وقومهم وما لاقوه منهم من عداء واستنكار، ليست هذه القصص والأخبار بعيدة عن سيرة النبي ﷺ، بل هي وثيقة الصلة بها غير منفصلة عنها. خاصة إذا علمنا أنها كانت لإيناس الرسول ﷺ وعدم وحشته من جفاء قومة وقسوتهم، وعدم استعجاله لثمرة دعوته.

والذين اشتهروا بالكتابة بهذاالنوع الجديد في كتابة سيرة الرسول ﷺ هم :

محمد عزه دروزة 'سيرة الرسول كما وردت في القرآن الكريم، صورة مقتبسة من القرآن الكريم، عصر النبي وبيئته قبل البعثة' وعبد الصبور مرزوق 'السيرة النبوية في القرآن الكريم' وقد اشترك بهذا البحث الأمانة العامة للرابطة في المؤتمر العالمي الثالث للسيرة النبوية الذي عقد بمدينة الدوحة عام ١٤٠٠هـ، ومحمد الراوي 'الرسول في القرآن الكريم' وعبد الكريم زيدان 'المستفاد من القصص القرآني للدعاة'.

نماذج من بعض الآيات القرآنية

ومعظم آي القرآن لها اتصال بأحداث السيرة ومنها الآيات والأحداث التالية:

وقد تعرض الوحي لمسألة سابقة للبعثة النبوية، كما اتصل الوحي بكثير من الأحداث والقضايا المتعلقة بسيرة الرسول ﷺ، وأيضا أرشد الوحي إلى قضية سابقة للبعثة النبوية، فأشار القرآن الكريم إلى حال العرب في الجاهلية، فتحدث القرآن عن الأمة الأمية في قوله تعالى :"هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" –سورة الجمعة: ٢.

وتحدث القرآن عن طفولة النبي ﷺ وحاله قبل النبوة، في قوله تعالى"وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى، فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ"- سورة الضحى: ٧ – ٩.

وتحدث القرآن الكريم عن أمّيَّته صلي الله عليه وسلم، في قوله تعالى: "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ" - سورة الأعراف: ١٥٧.

أما بعثته ﷺ، وبدء نزول الوحي عليه، فإليه يشير تفسير قوله تعالى" اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ" – سورة العلق: ١.

وقد ورد في القرآن الكريم كل ألوان السيرة التي عكف المؤرخون والأدباء والشعراء عليها، فنجد في القرآن المغازي، والشمائل، والمعجزات، وجوانب من حياة الرسول ﷺ الخاصة.

وتحدث القرآن الكريم عن غزوات رسول الله ﷺ فورد فيه ما يقارب ٢٨٠ آية، فتحدث القرآن عن غزوة بدر الكبرى، وغزوة أحد، وغزوة الأحزاب، وقد وصف القرآن الكريم حال المسلمين في تلك الغزوة فقال عز وجل: -"إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا" – سورة الأحزاب: ١٠-١١.

و عن غزوة تبوك في سورة التوبة: ٤١–٦٦ وغيرها كثير.

وصوّر القرآن الكريم حال الرسول ﷺ وما لاقاه من أذى، وتعذيبه في سبيل نشر العقيدة الإسلامية. وشمل القرآن على شمائل الرسول ﷺ، ولقد بين القرآن

وأجمل في ذكر شمائله ﷺ وأثني الله عز وجل أحسن الثناء على أخلاق رسول الله ﷺ إذ يقول "وإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ" - سورة القلم: ٤. وعن رحمته صلى الله عليه وسلم يقول القرآن :"فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ" – سورة آل عمران: ١٥٩.

وفي ختم الرسالات بالرسول ﷺ يقول القرآن، "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ" - سورة آل عمران: ١٤٤. هكذا هدى القرآن الكريم بآياته الكريمة إلى أحداث السيرة وشمائله ﷺ، ولله الحمد والمنة.

دور كتاب النصارى في كتابة السيرة

وقد ساهم النصارى العرب في كتابة السيرة حتى تعد أعمالهم اتجاها جديدا فيها.

واهتم المثقفون المسيحيون بسيرة الرسول ﷺ في العصر الحديث، ومن أبرزهم لبيب الريّاشي في كتابه 'نفسية الرسول العربي' ونصري سلهب، الكاتب اللبناني، في كتابه 'في خطى محمد'. وقبل كتابه في محمد ﷺ، كتب نصري سلهب 'في خطى المسيح'.

و نصري سلهب يروي السيرة بضمير الغائب ولا يتحمل النفس مشقة "الإسناد" ولا يهمه تبيان مظان الأخبار، إلا نزرا قليلا. وقد ورد في بعض المواضع استنادا يسيرة على سيرة ابن هشام، مثل الخبر عن نزول الوحي "فلنصغ إلى النبي يتكلم، موردين، بدورنا، ما أورده ابن هشام، عن ابن اسحق، عن ملايين المؤمنين، عن الصحابة"[١١٢]. ويقول سلهب في موضع آخر "بأنه ينقل نقلا لفظيا عن ابن هشام كما جاء في الخبر عن إسلام عمر"[١١٣]. وقلما يستند إلى المصادر العربية الحديثة، وهي أكثر عددا من مؤلفات القديمة في السيرة.

والمقصد الذي حمله كتاب السيرة من العرب النصارى غير تاريخية، وهو التضحية بالتاريخ والتحقيق، يقول نصري سلهب في مدخل السيرة "فليس كتابي هذا بحثا علميا، أوتاريخيا، ولا سرد أحداث ووقائع، إنما أردته وأريده شهادة مسيحي في دين منزّل من لدن الله، من السماء، فأسهم من خلاله، في اطلاع إخوة لي مسيحيين على حقيقة هذا الدين، وما يحتوي من ثروات روحية وخلقية، وعلى ما أدى للإنسانية عبر العصور من جلّي الخدمات"[١١٤]. وقد قسم الكتاب أربعة عشر فصلا ومدخلا، تحدث فيه عن تاريخ الجمود الديني الذي أساء فهم

[١١٢] سلهب، نصري. *في خطى محمد*. دار المحجة البيضاء للطباعة. ٢٠١٠، ص ٨٥.
[١١٣] نفس المرجع. ص٢٠٥.
[١١٤] نفس المرجع. ص ١٧.

الإسلام. وقد اختار للفصول عناوين أدبية مثل " مسرح الأحداث" و"حروب الإيمان" غير أن المضامين رهينة بالتاريخ.

ولبيب الرياشي في كتابه 'نفسية الرسول العربي، محمد بن عبد الله السوبرْمَن الأول العالمي' يقدم جوانبا من السيرة، وهو يعرض عن التحقيق في مواطن مسألة تتطلب التحقيق، ويقول عن رسل الرسول إلى الملوك " إني لا أبحث عمّن أذعن من الملوك والأباطرة والأمراء وآمن أم أكره بعد زمن على الطاعة، إن ذلك من موضوع التاريخ والمطالع يعلمه أو يراجع علمه، ولكني أبحث عن نفسية الآمر والمبشر، والمنذر، والرسول، عن فلسفة نفسية"[١١٥]

كتابة الشيعة في سيرة الرسول ﷺ

ومن الاتجاهات الحديثة في كتابة السيرة ماكان من الشيعة مختلفة من كتابة السنة. وألف الكاتب اللبناني الشيعي هاشم معروف الحسني 'سيرة المصطفى رؤية جديدة' (١٩٧٥م)، والكتاب يخالف في كثير من المسائل في السيرة المؤلفة بأيدي كتاب السنة. في مثل النبي الوصي، والموقف من الصحابة، واستند الكاتب في سيرته إلى مصادر قديمة وحديثة، أما القديمة أكثرها من تاريخ اليعقوبي، وهو الكتاب الذي صبّغت صبغة شيعية، ولم يفته ذكر المصادر الأخرى مثل سيرة ابن

[١١٥] الريّاشي، لبيب. *نفسية الرسول العربي محمد بن عبد الله السوبر من الأول العالمي*. ط٤. بيروت: دار ريحاني للطباعة والنشر. د.ت.ص ٦٦.

هشام، وطبقات ابن سعد، ولكنه أخذ منها ما لا ينافي مقالات الشيعة، وإذا تعلقت الرواية بمسائل الخلاف بين السنة والشيعة فإن الحسني يرد تلك المرويات جملة، "كوسمةرواية الطبري في زواج الرسول من زينب بنت جحش بالموضوعة"[١١٦]. وهكذا لعبت الشيعة دورهم في كتابة سيرة الرسول ﷺ. وساهموا في الكتابة.

وفي خلاصة القول كما كثرت المؤلفات في السيرة في العصر الحديث في جميع أقطار العالم العربي وغيرالعربي من الهند إلى المغرب، تنوعت الأسلوب وكثرت الدوافع وراء كتابة السيرة، فمنها ما هي دعوية ومنها ماهي سياسية واجتماعية.

[١١٦] هاشم معروف الحسني. *سيرة المصطفى نظرة جديدة*. ط١ بيروت: دار القلم. د.ت. ص ٤٥١.

الفصل الثالث
القضايا الإنسانية والتربوية
في سيرة الرسول ﷺ

أصبح العصر الحديث مسرح امتحانات الإمكانية في كتابة السيرة الموضوعية بمنهج علمي، وتفسيرا لاتجاهات متباينة في السيرة، وساعدت القراءة بإمعان النظر في سيرة الرسول ﷺ في العصر الحديث، لاكتشاف القضايا المحيطة بسيرة الرسول ﷺ، مثل القضايا الإنسانية والتربوية، والاجتماعية والاقتصادية، والأدبية، واتجه كثير من كتّاب سيرة الرسول ﷺ، إلى منهج مختلف وأسلوب ممتع، والتزم كتاب السيرة المنطقية والموضوعية في تأليف السيرة لأنهم كانوا معترفين بأن محمد ﷺ مرسل من قبل الله عزّوجلّ، فلا يجوز أن تنحصر دراستها في الجوانب الإنسانية المجردة ولا في الفتح الإسلامي، ولكن يجب أن تدرس سيرة الرسول ﷺ من شتى جوانبها : "نشأته وأخلاقه، وحياته الشخصية والبيتية، وصبره وكفاحه، وسلمه وحربه، وتعامله مع أصدقائه وأعدائه، وموقفه من

الدنيا وأهوائها وزخرفها، دراسة موضوعية تتوخى الصدق والدقة بناء على المنهج العلمي الذي يقضي باتباع قواعد الرواية والإسناد وشروط الصحة فيها "[١١٧].

وعالج كتاب السيرة في العصر الحديث مختلف القضايا التي تحيط بالسيرة، ومنها القضايا الإنسانية التي تحرض الإنسان على تحلي بالصفات الإنسانية التي تجعله قابلا للحكمة وراء خلقه. كلمة الإنسانية تتردد كثيرا، ويطالب بها كثيرا، وكأن هذا معنى مفتقد يبحث عنه، وكأن الناس قد تحولوا إلى وصف آخر غير أنهم بشر، فقبل النبوة، ووقت النبوة، وبعد النبوة جاء الرسول ﷺ، من سبب الإنسانية، ولحفظ شرف الإنسان في حياته، وفي دينه، ومعاملاته كلها، أي بُعث لصنع إنسان جديد، وفي هذا قام البحث في سيرة الرسول ﷺ.

ولم تكن نبوة محمد ﷺ، رحمة للجنس البشري فحسب، بل لكل الحيوانات وهو القائل "في كل كبد رطب أجر"، واعتنى الإنسان الذي كان يعبد الأصنام، ويسرق الأموال، ويظلم الناس، وخلّصه وأخرجه إلى إنسان جديد.

ومنها القضايا التربوية، إنّ مسألة تربية النفس الإنسانية عمل شاق، لاسيما إذا كانت بين أمة مثل الأمة الجاهلية، إنما استطاع الرسول ﷺ أن ينجح في مهمته

[١١٧] البوطي، محمد سعيد رمضان. *فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة*. ص ٢٨

هذه بشخصيته المتجددة، وفي كل موقف من مواقف الحياة كان يرى أنه إنسان يقدم أفكارا يناسب عصره، وبعدعصره، مهما تقدمت بها الزمان.

تستحق طرق الكتّاب ومنهجهم،دراسة واضحة في بيان الصفات الإنسانية التي اتصف بها الرسول ﷺ، والمنهج الأخلاقي الذي قدمه للمجتمع الإنساني، ومنهجه التربوي الذي استخدمه حتى وصل بالإنسانية إلى مرتبة عالية.

أخلاق الرسول ﷺ

صارت أخلاق الرسول ﷺ وشمائله نصب عين عند بعض كتّاب السيرة من قديم، وكتاب 'الشمائل المحمدية' لعيسى الترمذي، و'دلائل النبوة' للبيهقي وكتاب ' الشفا بتعريف حقوق المصطفى' للقاضي عياض من الكتب التي تظهر الجانب الخلقي من حياة الرسول ﷺ. وأتحف بعضهم جزءا من كتابهم لوصف أخلاقه، وأفاض ابن تيمية في كتابه ' الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح' عن أخلاق الرسول ﷺ في الجزء الخامس من الكتاب، وقال إن أخلاقه ﷺ جزء من نبوته، " وسيرة الرسول ﷺ وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته، وأمته من اياته وعلم أمته من آياته ..."[١١٨]. وا تفق الكتاب على أسمى خلقه حيث اجتمعت في شخص سيد الخلق مكارم أخلاق جميع الأنبياء والمرسلين، فعندما سئلت عنه عائشة ﷺ قالت كان خلقه القرآن، وإنه لم يذكر خلقا محمودا مع ما كان له

[١١٨] ابن تيمية. *الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح*. ج ٥. مطابع المجد. د..ت. ص ٤٣٧.

الحظ الأوفر منه إذ أنهم يعرفون عنه أنه لا يرضى أن يكون أحد أرقى منه تصرفا وسلوكا.

وفي العصر الحديث قام محمد لطفي جمعة بالتفريق بين أخلاق الجاهلية، والأخلاق التي جاء بها الرسول ﷺ لأن مكارم الأخلاق انبعثت من الحديث النبوي، ولم تنبعث من النصوص الجاهلية، والرسول ﷺ يقول إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق."فمكارم الأخلاق التي خلت منها الحياة الجاهلية سبعة، عفوك عمن ظلمك، وإعطاؤك من حرمك، وصلتك من قطعك، وحلمك على من أغضبك، وأصل السبعة قوله تعالى لنبيه ﷺ :(خد العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين - سورة الأعراف- ١٩٩)"[١١٩].

والمثل الأعلى هو جماع الم.حاسن والكمالات مجردة من الشوائب التى تنتقص الإنسانية، والرسول ﷺ، هو الشخصية التاريخية الواحدة التي أوضحت كل معالمها، والتي سجل معاصروها كل أقوالها وأفعالها، كما يقول أمين دويدار"لأن سيرته معروفة، وسجل حياته كامل غير منقوص وسنته القولية والفعلية يتمم بعضها بعضا، وكأن كل مطلب الحياة الإنسانية قد عمل حسابه، وهو النبي

[١١٩] جمعة، محمد لطفي. *ثورة الإسلام وبطل الأنبياء*. ص ٥٦٣.

الوحيد الذي مارس بالفعل كل المبادئ التي كان يلقنها للناس ولن تجد في القرآن حكما أمرا لم يفعل به النبي محمد"[١٢٠].

هذا الرجل الكامل الذي يتحدث عنه أمين دويدار ذكره أيضا محمد حسين هيكل بأنه الرجل الكامل في القرآن الكريم، وكل من تحدث عن الرسول ﷺ قرن بينه وبين القرآن الكريم، واستند إلى قول عائشة ﷺ، " القرآن". والآيات القرآنية كثيرة مستفيضة في الأخلاق وكمالية الإنسان، وما من خصلة منها إلا والرسول ﷺ، عمل بها واقتدى بها، وقد نهى الله عن قتل الأولاد مخافة الفقر، ونهى عن القرب من الزنا، وعن قتل النفس التى حرم الله قتلها، وعن قرب مال اليتيم، وقد أمر الله بالوفاء بالهعد، وإتمام الكيل والميزان، ونهى عن اتباع ما ليس به علم، وعن الكبر والخيلاء والحث على التواضع. ولم يفت كتّاب السيرة أن يشيروا توافر هذه الأخلاق في الرسول ﷺ، وعلقوا عليه مثل قولهم "وإذا تحققت هذه الصفات في إنسان كان كاملا، فذا شخصية كاملة" [١٢١]

فالآيات من سورة الإسراء اللاتي تحرض مكارم الأخلاق وتنهى مساويها، أوردها محمد حسين هيكل أيضا وعلق هيكل "وحسبنا أن نذكر أنه ما حضّ كتاب على الخير والفضل ما حض القرآن، وما سما كتاب بالنفس الإنسانية ما سما بها القرآن،

[١٢٠] دويدار،أمين. *صور من حياة الرسول*. القاهرة:دار المعارف. ١٩٨٧. ص ٦٢٦.

[١٢١] الإبراشي،محمد عطية. *عظمة الرسول* ﷺ.ط٢. مصر: دار القلم. ١٩٦٦ . ص ١٧١.

وما تحدث كتاب عن البر والرحمة وعن الإخاء والمودة، وعن التعاون والوفاق، وعن الصدقة والإحسان، وعن الوفاء وأداء الأمانة، وعن سلامة القلب وصدق الطوية، وعن العدل والمغفرة، وعن الصبر والثبات، وعن التواضع والإذعان... وعن كل رذيلة ومنكر، ما نهى القرآن، وبالقوة والإقناع والإعجاز التي نزل بها الوحي عن النبي العربي" [١٢٢]. وأكد هيكل أن البلاد التي لا تعنى بمكارم الأخلاق هي التي تنتشر فضائحها، ذلك لأنهم يحرصون على المال والسلطة أكثر من حرصهم على الخلق القويم. وهذا الذي يقرره هيكل كوجه للمقارنة بين الأخلاق الإسلامية التي تقوم على نظام روحي مجرد من المادة، وبين الأخلاق المادية التي تعني في كل أمورها بالمنافع المادية، دون الالتفات إلى مكارم الأخلاق أو إلى الفضائل، إن كمالية شخصية الرسول ﷺ ينبع أساسا من مصدره الرباني، أي من القرآن الكريم، والقرآن الكريم اعتنى بسمو الإنسان، ورقى أخلاقه بعيدا عن المصالح المادية. هكذا يركز هيكل على شخصية الرسول ﷺ وميزاتها.

و أبو زهرة في كتابه يلفت النظر إلى أخلاق الرسول ﷺ،"لقد تحدث بعض الكتاب الخوارق التي صاحبت الدعوة المحمدية فقال :إن من أعظم الخوارق التي لمحمد ﷺ أخلاقه، فكانت في ذاتها أمرا خارقا للعادة بين بنى الإنسان، فهي أعلى من أخلاق الملائكة، لأن الملائكة حسنت أخلاقهم بمقتضى كونهم "لايعصون الله

[١٢٢] هيكل، محمد حسين . *حياة محمد*. ص ٥٣٦ .

ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون"-سورة التحريم : ٦. فمحمد بين الناس الإنسان الذي تتجلى فيه الإنسانية الكاملة".[١٢٣] وأبو زهرة يبذل كثيرا من صفحات كتابه للبيان ميزات أخلاقه ﷺ.

بعض الكتاب كعبد الحليم حفني يعد أخلاق الرسول ﷺ، من حيث زعامتها في الخلق، والذي دفعه إليه من أن المسلمين والعرب منهم خاصة في أشق مراحل حياتهم، وقد تداعى إليهم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فأخلاق الرسول ﷺ، ومميزاته صارت موضوعا لكثير من كتاب سيرة الرسول ﷺ في العصر الحديث، ولم يحركوا أقلامهم في سيرته ﷺ، لمجرد سرد الحوادث في حياته ﷺ، بل توخوا أن يكون عملهم دليلا ومرشدا للقراء في حياتهم، مقتبسا النور من حياة رحمة للعالمين ﷺ.

وكما كان أخلاق الرسول ﷺ، نالت أهمية أصحاب السيرة، فإن إرشاداته التربوية أيضا نالت اهتمامهم البالغ، وبعض المؤلفين اتجهوا إلى بيان ما اشتملت عليه السيرة من دروس تربوية، وانتهجوا منهجا لتوضيح التعليمات التربوية في سيرة الرسول ﷺ، وفي مقدمتهم سعيد حوى. وفي سيرته يتضح أنه شخصية كبيرة قدم أمام العالم المنهج التربوي. والأخلاق الواجبة في التربية مثل الرحمة،

[١٢٣] محمدأبو زهرة،. *خاتم النبيين*.ج ١. ص٢٤٢

والصبر، والتواضع، والحلم والعفو، وقوة الشخصية إلى غير ذلك من الأخلاق التي كانت متوفرة غزيرة عند الرسول ﷺ.

المنهج التربوي في سيرة الرسول ﷺ

والمراد بالمنهج التربوي تلك الكتب التي ألفت لبيان منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في التربية، إنّ سيرة الرسول ﷺ خير دليل على أسس القواعد التربوية، والأحاديث الصحيحة المستفيضة خير شاهد لهذا، حتى إن المحدِّثين أيضا أوردوا هذا النوع من الأحاديث تحت تراجم تشير إليها، وشرّاح الحديث أسهبوا في كلامهم عند شرح الأحاديث، متأثرين بأصحاب السيرة في الحديث ولم يتركوا هذا المجال إلا طرقوا بابه، بل أضافوا إليها من المعلومات والإرشادات حسب حاجة العصر والبشر.

وقد جاء الرسول ﷺ مربيا ومعلما، والناحية التربوية والتعليمية كانت الجانب الكبير من حياته، يقول سعيد حوى "إذ أنه الجانب الذي ينبع عنه كل خير، ولايستقيم أي جانب من جوانب الحياة سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا أوعسكريا أو أخلاقيا إلا به، ولا يؤتى الإنسان ولا تؤتى أمة، ولا تؤتى الإنسانية إلا من التفريط في العالم الصحيح والانحراف عنه"[١٢٤]. فسعيد حوى إنه يرتبط كل

[١٢٤] حوى، سعيد. *الرسول ﷺ*. مكتبة النور على الشبكة.٢٠٠٦. ص ١٧٣.

تقنيات التربوية الحديثة بمنهج التربوية عند الرسول ﷺ، وما من متطلبات للتربية إلا وقد استكملها الرسول ﷺ. والكاتب يبين آثار التربية النبوية عند الصحابة وفي التوجه الاجتماعي في العمل العام، فمثلا في الصحابة يذكر عمر بن الخطاب وكان قبل إسلامه قبليا في أفكاره وعاطفته لاهيا مدمنا، ولما اعتنق الإسلام وتربى في مدرسة النبوة ارتقى بشرفه وبكرمه إلى المنزلة العالية، وصار مثلا للعدل والحزم"ما كان ليكون شيئا لولا أنه تربى في حجر رسول الله فأخذ منه العلم والحكم والتربية"[١٢٥]. ومثل هذا الانقلاب الذي وقع عند أصحاب الرسول ﷺ وقد أشار إليه كثير من كتاب السيرة، وأرادوا أن يكون عملهم تطبيقيا يستفيد منه الأمة.

فقد كان فقه الرسول ﷺ، في تربية الأمة وإقامة المجتمع الإسلامي شاملا ومتوازنا، وخاضعا لسنن الله في المجتمعات وإحياء الشعوب، عامل الرسول صلى الله عليه وسلم، مع هذه السنن في غاية الحكمة وقمة الذكاء، كسنة التدرج، والتدافع، والابتلاء، والأخذ بالأسباب، وتغيير النفوس، وغرس في نفوس أصحابه المنهج الرباني، والدكتور علي محمد الصلابي في مقدمة كتابه يشير إلى مدى تربية الرسول ﷺ، "إننا في أشد الحاجة لمعرفة المنهاج النبوي في تربية الأمة، وإقامة

[١٢٥] نفس المرجع. ص ١٧٤.

الدولة، ومعرفة سنن الله في الشعوب والأمم والدول، وكيف تعامل ﷺ مع هذه السنن في غاية الحكمة وقمة الذكاء"[١٢٦]

وللدكتور منير محمد الغضبان، دور كبير في تعميم هذه المدرسة، فأصّل هذا اللون من الكتابة في سيرة الرسول ﷺ، وكتب المنهج التربوي للسيرة النبوية التربية الجهادية، المنهج التربوي للسيرة النبوية التربية القيادية، المنهج التربوي للسيرة النبوية التربية الجماعية. وللأستاذ عبدالحميد جاسم البلالي كتاب 'وقفات تربوية من السيرة النبوية'، وقد حوى هذا الكتاب ٣٣ وقفة تمثل عناوين مستنبطة من أحداث السيرة ومضامينها.

الاتجاه السياسي في سيرة الرسول ﷺ

وفي فترة الضعف السياسي في تاريخ العرب الحديث، نشرت بعض كتب في سيرة الرسول ﷺ، وقد احتل الاستعمار أكثر مناطق العربية، فساءت أوضاع البلاد العربية، ومع ذلك أفسدت الحرب العالمية الأولى أحوال معاش سكان العرب، يقول فهمي جدعان "الشعور بأنّ ثمّة همّا مشتركا وداء عميقا تعاني منه جميع الأقطار العربية والإسلامية، هو داء التقهقر والانحطاط، وسبق الغرب عالم

[١٢٦] الصلابي، علي محمد. *السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث*. مكتبة الفنون والآداب. مؤسسة اقرأ. ٢٠١٣. ص٦.

العرب والإسلامي، بل وتهجّمه عليه بقصد تمزيقه وإبادته. إنّ هذا الهمّ معادل تماما للرغبة في التقدم، وفي قطع المسافة التي تفضل العالم العربي الإسلامي المقهور عن العالم الغربي القاهر"[١٢٧]

وخاضت جماعة من كتاب السيرة المعارك السياسية ضد الاحتلال، ومنهم من تزعّم المعارك مثل الشيخ عبد العزيز الثعالبي صاحب 'معجز محمد' وهو من أعضاء المؤسسين للحزب الدستوري التونسي، وقد اتخذ بعض الأعلام المجدّدين سيرة الرسول ﷺ منبرا لبسط آرائهم الإصلاحية والسياسية، كما نشر محمد حسين هيكل حياة محمد، أول مرة في جريدة السياسة الأسبوعية.

وقد اعتبر جماعة من كتاب سيرة الرسول ﷺ في العصر الحديث الدعوة الإسلامية دعوة إصلاحية لأوضاع العرب الدينية والاجتماعية والسياسية، يقول معروف الرصافي عن دعوة محمد ﷺ "إنها ليست بدينية محضة، بل يريد أن يحدث نهضة كبرى أوموجة عربية كبرى تكون دينية اجتماعية سياسية، يقوم بها العرب في بدء الأمر على أن تكون لهم السيادة فيها على غيرهم من الناس، ثمّ يكون نفعها عاما شاملا للناس أجمعين"[١٢٨].

[١٢٧] جدعان، فهمي. *أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث*. ط٤. الشبكة العربية للأبحاث. ٢٠١٤.ص ١٨٤ .

[١٢٨] الرصافي،معروف. *كتاب الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس*. منشورات الجمل. ٢٠٠٢. ص٢٧.

وحكم الفرنسيون بالإعدام على مؤلف كتاب 'محمد رسول الله وخاتم النبيين'، الشيخ محمد الخضر حسين، لمناهضته للاستعمار، وقد مازجت السيرة الشخصية للكاتب سيرة رسول الاسلام حيث تتخلل شواغل الحاضر، وشواغل الكتاب مسائل التاريخ والسيرة. حتى إن حوادث الحاضر جعلت المثقفين العرب يستدعون شخصية الرسول ﷺ، ولذلك كانت شخصية محمد ﷺ قائمة في الوجدان العام للأمة، والوجدان الخاص للشعراء يستدعيها الجميع ويستشرفون صفاتها، ويبين محمد الخضر حسين في مقدمة سيرة الرسول ﷺ أنّ مشاريع الاستعمار الثقافية هي التي حرضته على تأليفه "أما بعد فقد كثر ما وقع في أيدينا من صحف يضعها أولئك الذين سمّوا أنفسهم "المبشرين" ويتعرضون فيها لدين الإسلام بكلمات خبيثات يبتغون بها إخراج أبنائنا وبناتنا من نور الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال. ما أراه في تلك الصحف من زور وبهتان، ثم ما أذاعته الصحف السيارة في العهد القريب من قصص محاولة تلك الطائفة لتنصير بعض الفتيان أو الفتيات، قد دعيانى إلى تحرير رسالة في سيرة رسول الإسلام ﷺ ودلائل نبوّته السنية"[١٢٩]

وخالد محمد في كتابه 'معا على الطريق: محمد والمسيح' يرشّح بأهداف سياسية وهو يقول في مقدمة الكتاب "هذا ما أريده تماما.. أن أقول للذين يؤمنون بالمسيح،

[١٢٩] حسين، محمد الخضر. *محمد رسول الله وخاتم النبيين*. سوريا: دار النوادر. ٢٠١٠. ص ٥.

وللذين يؤمنون بمحمد : برهان إيمانكم إن كنتم صادقين، أن تهبّوا اليوم جميعا لحماية الإنسان وحماية الحياة"[١٣٠]. ومثل هذا الكتاب ألّف في ظل قيادة الاتحاد القومي، وقد انصب في ذلك الزمان جهد الساسة والمثقفين على توحيد طوائف الشعب المصري، المسيحيين والمسلمين، من أجل البناء الوطني والقومي. ولم يكن مؤلفو السيرة في العصر الحديث منعزلين عن مجتمعاتهم وتياراتهم السياسية والفكرية، فاستلهموا الفكرة القومية ليبثوها في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، بل جعلوا منها منبرا للتعبير عن المشاغل القومية " إلى متى يظل كسرى يحكم أجزاء من البلاد؟... إلى متى تظلّ بعض هذه الأرض تحت سيطرة الروم؟ متى إذن يلقي العرب كلّ هذه الأغلال ويصبحون أحرارا في أرضهم، إخوانا يعمر الحب قلوبهم؟"[١٣١] وهذه العبارة تدل حاضر العرب السياسي في القرن العشرين، لقد استعملت كتب السيرة شخصية الرسول ﷺ، في التاريخ الحديث تحقيقا لأخوة دينية بين النصارى والمسلمين، تحقق بدورها سيادة قومية للأمة العربية.

وكما حتمت ظروف سياسية مخصوصة، على بعض كتاب السيرة العرب المحدثين أن يفسّروا سيرة الرسول ﷺ تفسيرا قوميا، باعتباره منقذ العرب من

[١٣٠] خالد محمد خالد. *معا على الطريق*. ص٩.

[١٣١] الشرقاوي، عبد الرحمن . محمد رسول الحرية.ط١. القاهرة: دار الشروق ١٩٩٠ ص ١٢٥.

"احتلال" فارس وبيزنطة، فإن تيارات فكرية مناوئة للفكر القومي ولحكم القوميين لبعض الأقطار العربية، جاءت السيرة في الرد على الدعوة القومية، يقول مصطفى السباعي "إن رسول الله ﷺ قد فاجئ العرب بما لم يكونوا يألفونه، وقد استنكروا دعوته أشد الاستنكار، وكان كل همهم القضاء عليه وعلى أصحابه، فكان ذلك ردّا تاريخيا على بعض دعاة القومية الذين زعموا أن محمدا ﷺ، إنّما كان يمثل في رسالته آمال العرب ومطامحهم حينذاك، وهو زعم مضحك تردّه وقائع التاريخ الثابتة كما رأينا. وماحمل هذا القائل وأمثاله على هذا القول إلا الغلو في دعوى القومية، وجعل الإسلام أمرا منبثقا من ذاتية العرب وتفكيرهم، وهذا إنكار واضح لنبوة الرسول ﷺ، وخفض عظيم لرسالة الإسلام"[١٣٢] وسعيد رمضان البوطي يستعمل نفس المعاني بألفاظها إذ يقول في معاداة قريش لدعوة محمد ﷺ حين صدع بها "وفي ذلك الرد القاطع على من يحاولون تصوير هذا الدين بشرعته وأحكامه، ثمرة من ثمار القومية، ويدعون أنّ محمدا عليه الصلاة والسلام إنما كان يمثل بدعوته التي دعا إليها، آمال العرب ومطامحهم في ذلك الحين. وليس الباحث بحاجة إلى أن يتعب نفسه بأي ردّ أو مناقشة لهذه الدعوى المضحكة عندما يطلع على سيرة النبي ﷺ "[١٣٣]

[١٣٢] السباعي، مصطفي. *السيرة النبويّة دروس وعبر*. القاهرة:مكتبة الفنون والآداب. ٢٠١٤. ص ٤٩.
[١٣٣] البوطي، سعيد رمضان . *فقه السيرة النبوية*. ص ١٠٠ .

وسيرة الرسول ﷺ الحديثة تاريخ قديم في ظاهرها، وتعبير عن شواغل حادثة في باطنها. ولما كانت سيرة الرسول ﷺ، في ذاتها مشتملة لأبواب من صراع الرسول ﷺ مع يهود المدينة، فقد التقى التاريخان القديم والحديث في التشنيع على اليهود وغدرهم، وامتزج ذلك بوصف جورهم في الزمن الحديث، واغتصابهم لفلسطين، وإخراجهم العرب من ديارهم، وجاوز بعض الكتاب ذلك الوصف فدعوا إلى حرب اليهود والتجهز لقتالهم.

يقول الكاتب الفلسطيني محمد عزّة دروزة " ومن العجيب أن يقرأ المرأ اليوم آيات القرآن المدنية في أخلاق اليهود بوجه عام، وعاداتهم ومكايدهم ودسائسهم وأنانيتهم، وزهوهم واستحلالهم لكل ما في أيدي الغير، وضنّهم بأي شيئ مفيد للغير، وعدم إخلاصهم في محبة أو موقف ولاء للغير، وحسدهم لأي نعمة وخير، وتشجيعهم لكل حائد وحاسد ومنافق ودساس ومتآمر... ثم ينظر المرء إليهم اليوم فيكاد يرى إجمالا صورة طبق الأصل، جبلة خاصة، وترفّع عن الاندماج الصادق مع من يعيشون معهم من الأمم وأهل الأوطان، ودسّ ومكر وكيد، وجحود وحجاج ولجاج، وندب وعويل بدون مبرّر، وشره شديد إلى ما في أيدي الغير، ومحاولة للإستيلاء على الكل، والتأثير في الكل"[١٣٤] .

[١٣٤] دروزة، محمد عزّة. *السيرة النبويّة دروس وعبر*. القاهرة:مكتبة الفنون والآداب. ٢٠١٤. ص ٥٤و٥٥ .

ومحمد عزّة دروزة من الذين انخرط في النضال الوطني الفلسطيني مبكرا وكان أحد قادة ثورة ١٩٣٦ على المحتل البريطاني، راعي المشروع الصهيوني بأرض فلسطين. بكون خطاب سيرة الرسول ﷺ وخطاب التاريخ عامة وثيق الصلة بالحاضر، لأن المؤرخ يقيم في الحاضر، فزاد بعض كتاب السيرة في العصر الحديث توثيق العرى بين الشاهد والغائب، توثيقا لبس في أحيان كثيرة طابعا "مباشرا" صريحا.

ومقصد كتّاب سيرة الرسول ﷺ من التشنيع على اليهود، وفضح الفكرة الصهيونية هو مقصد سياسي حديث يتمثل في إدانة إسرائيل واغتصابها لأرض فلسطين والتنكيل بأهلها، وفقرة من كتاب عبد الرحمن الشرقاوي خير دليل على هذا "وتحت تأثير هذه الأسطورة عاش في خيبر يهود استقروا جيلا بعد جيل. وأصبحت خيبر ملاذا لكل يهودي لا يطمئنّ به مكانه... وهكذا لجأ إليها فلول يهود بني قينقاع وبني النضير، وانضموا إلى سكانها الأصليين وأخذوا يعملون على تكوين دولة ضخمة تبسط نفوذها على الجزيرة العربية كلها"[١٣٥].

ولم يقتصر الكتاب على وصفهم لمكر اليهود ودسائسهم في التاريخ، ولا عند فضح الفكرة الصهيونية، بل دخلوا إلى صراع مباشر مع إسرائيل، وجاوزوا الخطاب من الإشارة إلى التصريح ليسفر عن محتوى سياسي محض، إذ يذكر الشيخ

[١٣٥] الشرقاوي، محمد عبد الرحمن. *محمد رسول الحرية*. ص ٢٨٠ و٢٨١.

مصطفى السباعي في فصل "معارك الرسول الحربية" "ونحن اليوم نعيش في عصر النفاق الأوربي في ادعاء الحضارة والرحمة الإنسانية وحب الخير للشعوب، وهم يخرّبون البلاد، ويسفكون دماء العزّل من الشيوخ والنساء والأطفال، ولقد عشنا – بكل أسف – عصر قيام إسرائيل على أرض فلسطين السلبية، وعلمت الدنيا فظائع اليهود الهمجية الوحشية في دير ياسين، وقبية، وحيفا، ويافا، وعكا وصفد، وغيرها من المدن والقرى"[١٣٦].

فمن البيّن بأنّ السيرة الحديثة تحمل في طيّها سيرة للعرب في هذا العصر، وإنها سير مثقلة بهموم الحاضر، وتضطلع بوظائف متضافرة كالحث على قتال إسرائيل. ويرى السباعي في تعليقه على حادثة الإسراء والمعراج، أن واجب الدفاع عن فلسطين "دفاع عن الإسلام نفسه، يجب أن يقوم به كلّ مسلم في شتى أنحاء الأرض، والتفريط في الدفاع عنها وتحريرها، تفريط في جنب الإسلام، وجناية يعاقب عليها كلّ مؤمن بالله ورسوله"[١٣٧]

ومما اضطلع به كتّاب السيرة في العصر الحديث الرد على الاشتراكية والشيوعية. أما الاشتراكية وما في معناها كالشيوعية، فإنها تدّعي الدفاع عن حقوق الضعفاء لكنّها تقتلهم في حروبها، فالزكاة أفضل من الاشتراكية وبديل عنها. يقول الرياشي

[١٣٦] السباعي، مصطفى. *السيرة النبوية*. ص٥٦.

[١٣٧] نفس المرجع. ص ٥٨و٥٩.

في كتابه "... لو فعلوا تلك الفعلة النبيلة، وقدّموا الزكاة والصدقة والكفارة، وأنصفوا كما أمر، لوفروا عليهم ثورات العمال المستمرة، وبدع البولشفيك، وسواهم وسفك دماء خصوم هذه البدع"[١٣٨] وهيكل أيضا يدخل إلى هذه المسألة إذ يقول "وفي القرآن اشتراكية لم تبحث بعد، وهي اشتراكية لا تقوم على أساس من حرب رأس المال ونضال الطوائف، شأن الاشتراكية اليوم في الحضارة الغربية، وإنّما تقوم على أساس خلقي سام يكفل إخاء الطوائف وتكافلها وتعاونها على البرّ والتقوى لا على الإثم والعدوان"[١٣٩]

وإن كتاب السيرة الذين ردّوا على الاشتراكية لم يظهروا وعيا دقيقا للمفهوم، واكتفوا منه ببعض المعالم كادعاء الدفاع عن حقوق الفقراء ونضال الطوائف، وقد خلط أولئك الكتاب بين النظريات الاشتراكية والتجارب الاشتراكية التي قامت في العقود الأولى من القرن العشرين، وخاصة ثورة ١٩١٧ بروسيا. فالاشتراكية فكر سابق لماركس، والتجارب الاشتراكية كالثورة البلشيفية فهي تأويل مخصوص لفلسفة ماركس، وانجاز لها في ظرف تاريخي معلوم.

إنّ ردود كتّاب السيرة في العصر الحديث على الاشتراكية، ليس له معنى أن كلهم كانوا ضد الاشتراكية، وبعضهم بشّروا بها لا سيما في عهد الرئيس عبد الناصر

[١٣٨] الرياشي،لبيب. *نفسية الرسول العربي محمد بن عبد الله السوبر من الأول العالمي*. ص ٣١.

[١٣٩] هيكل،محمد حسين .*حياة محمد*. ص٥٤١.

(١٩٥٢- ١٩٧٠) ومحمد شلبي صاحب كتاب 'اشتراكية محمد'، وعبد الرحمن الشرقاوي صاحب كتاب 'محمد رسول الحريّة'. يمثلان هذا النوع من السيرة.

فشهد العصر الحديث في العالم العربي لكتابة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، في مختلف الإتجاهات والمنهج، تظهر الأوضاع الاجتماعية الراهنة، وتبرز الصورة التاريخية، وترد على الشبهات حول شخصية الرسول ﷺ وحقائق الإسلام. ونهضت لسد التيار المادي الذي طلع في هذا العصر.

الباب الثالث
المناهج الحديثة في كتابة سيرة الرسول ﷺ في مصر

- الفصل الأول: عوامل تطور كتابة سيرة الرسول ﷺ في مصر
- الفصل الثاني: المناهج الجديدة في كتابة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في مصر

الفصل الأول

عوامل تطور كتابة سيرة الرسول ﷺ في مصر

نهضة مصر

كانت مصرفي سبات في مجالها الأدبي، واستيقظت من سباتها وهبت نحو النهضة منذ مطلع القرن التاسع عشر، وذلك من حملة فرنسا بقيادة نابليون عليها في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، وإن الجيوش المستعمرة في الحقيقة لا تأتي بأمر فاضل حتى وإن كان مصبغة بالثقافة والفكر.

لقد أفسد الفرنسيون بوعي المصريين بعد ما لاقوا من عنف المقاومة وشدة البأس، فحاولوا استمالة بعض رجال الدين بطرق مختلفة، نظرا لمعرفة الفرنسيين شدة اتصال المصريين بالدين، وأدخلوا مع ذلك إلى مصر الطباعة والصحافة، ولم يكن لأهل مصر عهد بتلك من قبل، في حين كان يرى البعض بأن مجيء الطباعة إلى مصر لم يكن عملا فاضلا أو مساهمة جليلة في تاريخ الثقافة المصرية، لأن الفرنسيين جاؤوا بها إلى مصر لأغراض استعمارية، بغرض نشر المنشورات والبيانات التحذيرية والإنذارية، من التصدي للقوات الفرنسية، فلا يستطيع أن يعد اهتمام جندي معتدي صانع ثقافة ونهضة وأن عمله صالح للأمة وللشعب.

الطباعة والصحف

والطباعة في مصر نشطت على يد محمد علي كصناعة، واحتلت مطبعة "بولاق" مكان أول مطبعة مصرية، في عام ١٨٢٠م، والسبب الذي أدى إلى إنشائها هو توفير احتياجات الحكومة من مستندات وأوراق رسمية وما ماثل ذلك، وهناك شبه بأسباب نشأة مطبعة بولاق مع أسباب تواجد المطبعة مع الحملة الفرنسية إلى درجة كبيرة، وقد تم إنشائها لغرض خدمة دوائر الحكومة، غير أن المطبعة المصرية اتخذت جانبا جديدا نحو البناء الثقافي إذ تهيّأ فيها طباعة بعض الكتب وصار هذا بداية الانفتاح الثقافي.

وفي عام ١٨٢٨م شهدت مصر مولد الصحافة، وأول صحيفة مصرية هي صحيفة "الوقائع المصرية"، وكانت للمصرين معرفة بفن الطباعة قبل هذا التاريخ بأعوام كثيرة بطريق الجريدة الفرنسية "التنبيه"، وكان الفرنسيون يستخدمونها من أجل أهدافهم الاستعمارية، وزرع روح اليأس والهوان في قلوب المصريين.

وقد لعبت جريدة "الوقائع المصرية" دورا هاما في ازدهار الصحافة وبداية ظهور الصحف المستقلة في مصر، حيث صدرت جريدة "نزهة الأفكار" لإبراهيم المويلحي ومحمد عثمان جلال عام ١٨٦٩، ثم جريدة "الأهرام" للأخوين بشارة

وسليم تقلا عام ١٨٧٥م، ثم جريدة المقتطف عام ١٨٧٥م لنفس الأخوين، كذلك صدرت عدة جرائد أخرى في خضم تلك الفترة، كجريدة المقطم والمؤيد والعروة الوثقى.

انتشار الطباعة في مصر خلق جوا ثقافيا متميزا، حيث ظهرت الصحف والكتب المطبوعة، مما عمل على ظهور الحركات التجديدية في الشعر نهايات القرن التاسع عشر، ودخول أنواع أدبية جديدة على البيئة العربية، فكانت الصحف تطالع قرائها بالفنون القصصية كفن القصة القصيرة والمسرحية، وقد ساهمت هذه الفنون في التدخل الثقافي داخل المجتمع المصري حتى وصل إلى الأوساط العامة.

تطور الفنون النثرية

وفي مناخ هذا التطور برزت فنون جديدة على البيئة الأدبية في مصر وقتئذ، ففن المقالة وجد ضالته في عالم الصحافة، وأن هذا الفن كان موجودا عند العرب قديما، ولكن بصورة غير هذه، فكان وجودها كفن نثري ضمن فنون المقامة والخطابة والرسائل وغيرها من الفنون النثرية، لكن المقالة الحديثة منشئها الاتصال بأوربا. وساهم هذا المتسع الفكري في ازدهار فن المقالة، فتقدم كبار الكتاب إلى المقالة وأبدعوا فيها، ومع المتغيرات السياسية في العالم العربي وظهور الحركات الاستعمارية وتوسعها داخل البلاد العربية، وصارت المقالة سلاح

المثقفين لدفع قوى الاستعمار، وكتّاب المقالة مثل عبد الرحمن الكواكبي، اتخذ المقالة سلاحا للمقاومة ولخلق روح الحماسة بين الأمة.

وبتطور فن المقالة ظهرت فنون أدبية أخرى كفن القصة الحديثة القصة القصيرة والتي بدأت في الانتشار بشكل كبير، فظهرت أعمال قصصية كأعمال 'تخليص الإبريز في تلخيص باريس' لرفاعة الطهطاوي و'حديث عيسى بن هشام' للمويلحي، وأثناء ذلك ظهرت فنون الرواية القصة الطويلة وكانت بدايتها على يد محمد حسين هيكل. وتبعا لكتابة المقالة والقصة القصيرة اضطلع في مصر جيل يكتبون السيرة لا سيما سيرة الرسول ﷺ مسايرة مع العصر واستجوابا للظروف.

جيل جديد من كتاب سيرة الرسول ﷺ

كانت مصر مهد الحضانة للأدب العربي في العصر الحديث في تغيراتها وتجدداتها، فإن أدب السيرة أيضا لبس ثوبه الجديد على أيدي الكتاب المصريين. ولاقت المؤلفات والدراسات في سيرة الرسول ﷺ في العصر الحديث اختلافا مذكورا بينها وبين كتب السيرة عند المتقدمين كسيرة ابن هشام وزاد المعاد في الأسلوب وفي منهج الكتابة،وقد أولع الكتّاب في العصر الحديث بشغف شديد على تأليف السيرة بمنهج جديد، ويقول محمد فريد وجدي في بداية مقدمة كتابه 'السيرة

المحمدية في ضوء العلم والفلسفة' "في هذا اليوم فاتحة العام الهجري الحافل بالذكريات الخالدة عن الدعوة الإسلامية في دورها الحاسم نبدأ في نشر دراسات متتابعة في حياة خاتم المرسلين محمد ﷺ على أسلوب جديد تحت ضوء العلم والفلسفة"[١٤٠] وهذه العبارة تشير إلى ما اتخذت كتب السيرة في بداية العصر الحديث الفرق بينها وبين كتب سيرة المتقدمين والمتأخرين منهجا وأسلوبا.

وتعد محاولة طه حسين في كتابه'على هامش السيرة' في العصر الحديث محاولة لتأصيل فن السيرة الأدبية، واتخذ المنهج الروائي، ثم تبعه كل من الكتاب مثل عبد الرحمن الشرقاوي في كتابه 'محمد رسول الحرية' وعبد الحميد السحار في كتابه'محمد رسول الله والذين معه' ومحمد شوكة التوني في كتابه 'محمد في طفولته وصباه' ومعروف الأرناؤوط في كتابه 'سيد قريش' وبنت الشاطئ في كتابها 'مع المصطفى'.

وقدرة الأدب في تحسّس المشاعر وتحريكها جعلت السيرة تحتضنه، ووقع الإئتلاف التام وحدث التفاعل المنشود، واتفق مع السيرة العنصرين الأساسيين للعمل الأدبي هما، التجربة الشعورية، والعبارة الموحية عن هذه التجربة. وهذه المشاعر هو المكون الحقيقيّ للسيرة.

[١٤٠] وجدي، محمد فريد. *السيرة المحمدية في ضوء العلم والفلسفة*. الدار المصرية اللبنانية. ١٩٩٣. المقدمة

وقد تحرى الكتاب في العصر الحديث سرد حوادث السيرة معرفية يعللها الأولية، لأنهم رأوا بأن مجرد سرد أطوار النبوة بغير تعريف ماهية النبوة في ذاتها لا يقنع القراء، والوحي وأساليبه، والاتصال بالملأ الأعلى مباشرة بواسطة الملك غير معتادة للطريقة المعلومة، فالعقل لايسلمه بغير أدلة تلائم خطورة الاعتقادية، فيرى طائفة من كتاب السيرة أن تكون كتب سيرة الرسول ﷺ تحت أدلة العلم والفلسفة ليسع إيراد الأدلة العقلية. ومحمد فريد وجدي يشير إلى عاقبة السيرة إذا فقد فيه إقناع العقل "إن الكثرين ممن تناولوا منا السيرة المحمدية بالكتابة جعلوا معتمدهم الأساليب الخطابية، والبيانية، ولم يعنوا أقل عناية بحاجة العقول القوية المجبولة علة التشكك والتثبت، فأسرفوا في إهمال الناحية الإقناعية، وتهافتوا على الناحية التسليمية، فجرهم هذا الموقف إلى قبول كل ما وضعه الخرّاصون من المبالغة التي ضاهأوا بها ما ورد من أمثالها عن الأمم المختلفة، معاصرين بذلك كل ما ورد في الكتاب من وجوب مجانية الغلوّ في القول، وضرورة التثبت في النقل، والتمحيص في الرواية، فجاءت السيرة المحمدية زاخرة بالأقاصيص الخرافية، والروايات الموضوعة، والأشعار المصنوعة"[١٤١]

[١٤١] نفس المرجع. ص ٤٠.

صياغة السيرة في ثوب جديد

إن الباحث ليجد مشقة في أسلوب العرب في كتابة التاريخ، تدرجوا من كتابة حوادثهم من الحوليات، وذكروا الوقائع من مختلف جوانبها، وخلطوا الدين بالعلم، والأدب بالسياسة والشعر، وصارت مسئولية الباحثين كبيرة عسيرة، واضطر أن يكون عالما بكثير من العلوم من تفسير وحديث وتاريخ وفقه وأدب وفلسفة وتصوف وعلم الكلام. والقارئ أيضا في هذا العصر أصبح حائرا أمام هذا البحر الزاخر، فقرائتها عسيرة وفهمها شاقة، لاسيما إذا لم يملك الوقت لقرائة المتون المطولة، والتجأ إلى قرائة التاريخ الإسلامي بصورة مبسوطة غير مغلقة على ذهنه في كتابة المستشرقين والمبشرين، وأخذوا من كتبهم التاريخية ما أرادوا بأسلوب مبسط سهل، وهذا التفت كتّاب العرب المحدثين إلى إعادة التاريخ الإسلامي وسيرة عظماء الإسلام بأسلوب يجاري متطلبات العصر الحديث قلبا وقالبا، واستطاع القارئ العربي التعرف على الشخصية العربية عبر هذه الكتب، ووجد القارئ ما يشفي غلته ويجبر ما أصابه من نقص. وعصم هذا العمل العقل العربي، من دسائس المستشرقين ضد الإسلام من قصد حينا ومن دون قصد أحيانا.

وأدرك الكتاب حاجة إعادة كتابة السيرة من جديد بأسلوب معاصر، ومنهج مبتكر، فاعتمدوا على العرض والتحليل، وكان الشيخ محمد عبده قدوتهم في هذه

المهمة "ولعل هذا ما تنبه إليه الأستاذ الإمام محمد عبده، حين أخذ على عاتقه، مهمة البعث الجديد لتاريخ الإسلام، وجلاء صورته. فكانت كتاباته بمثابة الصورة المثلى لما يكون عليه الأسلوب، من الدقة والوضوح، كما كانت في نفس الوقت الرد المفحم على خصوم الإسلام، هؤلاء الذين تفننوا في الهجوم على الإسلام ونبيه الكريم" [١٤٢].

وبروز محمد عبده في مسرح الكتابة نالت الفكر العربي الثقة بالعقيدة، ودفعها إلى طريق العمل، ورافق هذا محاولات رشيد رضا على نطاق واسع، وقدم استجوابات شديدة ضد الاستعمار وضد التعليم الذي تشف عليه المدارس الأجنبية، والبعثات التبشيرية المسيحية، ومجلة "المنار" التي نشرها رشيد رضا كسبت قراء في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وكتابه "الثورة المحمدية " قد نفد نسخاته خلال أسابيع من نشرها، وأعيد طبعه مرات كثيرة. فالمؤلفات مثل هذه سنحت الفرصة لبعث القومية العربية لدى قرائها، وأيقظت فيهم الحماسة والقوة، "وتكاتف المسلمون من كافة المذاهب للدفاع عن الإسلام"[١٤٣]

[١٤٢] الكريم، سامح. *إسلاميات*. ص ٢٢.

[١٤٣] نفس المرجع. ص ٢٧.

كتابة السيرة في سبيل الدفاع عن شخصية الرسول ﷺ

وعلى جانب ما ذكر أعلاه، إن بعض الصحف هاجمت تحت ستار ادّعاء العالمية على القرآن، وعلى حياة محمد ﷺ، وهيّأت الحجة المنطقية للمبشرين الاستعماريين، وسبّب هذا لتوليد تيار شديد معاديا للأجانب، وأدرك دعاة التجديد ضرورة تقديم براهين أكيدة، فظهر أدب اتخذ من الدين ملحما له، وساهم في هذا اللون الأدبي الجديد كبار كتاب مصر المحدثين وفي مقدمتهم محمد حسين هيكل وعباس محمود العقاد وأحمد أمين وتوفيق الحكيم، وساهم كل حسب مواهبه وثقافته الخاصة. وأقبل الناس على هذه الكتب بنهم وافر، حتى إن جميع نسخ 'حياة محمد' لمحمد حسين هيكل نفدت في نفس عام صدوره، وكذلك أعيد طبع 'عبقرية محمد' و'على هامش السيرة' عدة مرات.

وقد توقف الاهتمام بكتابة تاريخ الإسلام فترة من الزمن، وفي الثلاثينيات من القرن العشرين نشرت في عام واحد أكثر من عشرين كتابا في تاريخ الإسلام، وأن هذه الكتب كلها ألفت على المنهج الحديث في كتابة التاريخ، وصدور هذا العدد من الكتب في أقل من عام ظاهرة اجتماعية تستحق البحث والدراسة، وفوق هذا أن هؤلاء المؤلفين ليسوا من رجال الدين ولم يكونوا متفرغين للكتابة في المسائل الدينية، ومتخصصين في الكتابة الدينية، وجمعت هذه الكتب منهجا علميا

واتخذت طريقة العرض والتحليل، وتجلت فيه صورة الإسلام نظاما ودينا ورجالا، ومع ذلك أبطلت افتراءات الخصوم.

عوامل التجديد في كتابة سيرة الرسول ﷺ

وقد مهدت لكتابة تاريخ رسول الإسلام ﷺ إلى المنهج الجديد عدة أسباب وعوامل، مثل ازدياد الحركة التبشيرية، ودخول بعض الكتابات الأجنبية عن الإسلام إلى البلاد الإسلامية، وكتابات المتعصبين للغرب وطنيا وجنسيا، وكتابات طائفة تشوه الإسلام ومبادئه، وفقدان الكتابات الإسلامية المقنعة بعدم المفكرين الأفذاذ، وبسبب انصراف الأدباء والمفكرين إلى الكتابة السياسية والأدبية. ومن الأسباب المهمة، استقلال مصر عن تركيا وبريطانيا، وصار تشجيعا لأصحاب الآراء المعتدلة، مثل طه حسين والعقاد وهيكل وأحمد أمين، ورغبة الكتاب والأدباء في إيجاد وسيلة لربط حاضر الأمة بماضيها سبب لا يهمل، وذلك أن الكتاب فكروا في ذلك واتجهوا إلى الفرعونية راجين الامتداد إلى الحاضر، فلما فشلوا في ذلك اقتنعوا بأن الإسلام هو الأفضل من ناحية الامتداد إلى الحاضر، والسبب الأخير هو وراثي وبيئة النشأة، وهو سبب شخصي أيضا، ومعظم الكتاب كانوا ممن حفظوا القرآن في طفولتهم.

وسط هذه الظروف والأسباب فكر جماعة من الكتاب إعادة كتابة التاريخ الإسلامي باستخدام الأدوات الغربية في البحث، والخطوة الأولى كانت باتفاق طه حسين مع أحمد أمين والأستاذ عبد الحميد العبادي على كتابة التاريخ الإسلامي من فجر الإسلام حتى آخر عصر الدولة الأموية، واختص كل منهم من جانب من هذا البحث، وكانت في حصة طه حسين الحياة الأدبية في الإسلام، وفي حصة أحمد أمين الحياة العقلية في الإسلام، وعبد الحميد العبادي تناول الحياة السياسية في الإسلام. وفي نفس الوقت ظهر دور محمد حسين هيكل في كتابه 'حياة محمد' ويقول "كان من أثر هذه الحركة التبشيرية وموقفي منها أن دفعني للتفكير في مقاومتها بالطريقة المثلى التي توجب على أن أبحث حياة صاحب الرسالة الإسلامية ومبادئه بحثا علميا، وأن أعرضه على الناس عرضا يشترك في تقديره الجميع" [١٤٤]

وكتّاب سيرة الرسول ﷺ في العصر الحديث في مصر ليسوا كلهم من المضطلعين في كتابة المسائل الدينية، غير أنّ كتبهم في السيرة تملئ الإيمان في القلب، وتزيد الحب للرسول ﷺ، حيث أصبح التأليف في العصر الحديث يجتذب أقلام الأدباء مثل طه حسين وتوفيق الحكيم، والمؤرخ جواد علي وصالح أحمد العلي، وأساتذة الجامعة كعائشة عبد الرحمن وعزّ الدين فرّاخ.

[١٤٤] هيكل، محمد حسين. *حياة محمد*. مقدمة

وأقبل الناس في العصر الحديث لقراءة السيرة التي ألفت في نسق جديد إذ طبعت 'حياة محمد' لهيكل (١٩٣٥) أربع عشرة مرة حتى سنة (١٩٨٢)، وطبعت 'محمد المثل الكامل' (١٩٣١) لمحمد أحمد جاد المولى مرات، وطبعت 'عبقرية محمد'(١٩٤٢) لعباس محمود العقاد، أكثر من عشر مرات. والطبعة الأولى لكتاب 'عظمة الرسول' ﷺ (١٩٦٦) لمحمد عطيّة الإبراشي، نفدت بثمانية أشهر، "وقد انتهت – ولله الحمد الطبعة الأولى من 'عظمة الرسول' في مدة لا تذكر، مع ضخامة العدد في تلك الطبعة"[١٤٥]

وكل هذه الحقائق وأمثالها تدل على أن هناك مد مديد في إقبال الناس على قراءة سيرة الرسول ﷺ، بسبب منهجها أسلوبها، ومختلف المناهج في تقديم موضوعاتها، حتى إن بعض النسخ كادت أن تنفد أثناء طبعه " نفدت طبعة هذا الكتاب الأولى بأسرع من كل ما قدّر لها. فقد صدر منها عشرة آلاف نسخة، نفد ثلثها بالاشتراك في الكتاب أثناء طبعه. ونفد سائرها خلال ثلاثة أشهر من صدوره. .. وموضوع الكتاب هو السبب الأول في الإقبال عليه لا ريب"[١٤٦]

[١٤٥] الإبراشي، محمد عطيّة. *عظمة الرسول* ﷺ.ط٢. مصر: دار القلم .مصر . ١٩٦٦.ص ٨.

[١٤٦] هيكل، محمد حسين. *حياة محمد*. ص ٣.

الفصل الثاني

المناهج الجديدة في كتابة سيرة الرسول ﷺ في مصر

هذّب الكتّاب المصريون الأدب العربي مما دخل إليها من الضعف في العصر الماضي، وتوجهوا إلى الأدب العربي بأنواع نثرية جديدة، وهذا التجديد والتنوع في الأسلوب النثري، كان قادرا أن تضم إليه سيرة الرسول ﷺ أيضا، وألف الكتّاب في سيرة الرسول ﷺ في منهج يناسب ركب التجديد، وصاغوها صياغة نثرية حديثة على اعتقاد أنها وفاء لحاجات المجتمع. فظهرت في سيرة الرسول ﷺ في العصر الحديث في مصر الصورة الأدبية في تناولها، فجاء منها في مختلف الأثواب، كالقصة والرواية والمسرحية، والتراجم الأدبية.

وكانت عناية الكتاب في سيرة الرسول ﷺ في بداية العصر الحديث، اتخاذ منهج للحياة من حياة الرسول ﷺ،" وإن أهم ما كتب في بداية النهضة في سيرة النبوي ما دونه رفاعة رافع الطهطاوي الذي عده الدارسون فاتحة جديدة لكتابة السيرة، وقد امتاز الطهطاوي بما أثبته من أعمال الرسول في بناء دولة الإسلام الأولى. إن ما كتبه رفاعة حول سيرة الرسول كان في غالب الأحيان، أدخل في باب

التاريخ منه إلى الفن الأدبي"[١٤٧] وكتاب رفاعة الطهطاوي، يظهر الأسلوب الأدبي مقرونا بالتاريخ، والذين جاءوا بعده من المبدعين انتهجوا منهجه في اتخاذ الألوان الأدبية في السيرة.

وإن سيرة الطهطاوي مدخل جديد إلى سيرة الرسول ﷺ، غير أنّ أفكاره التي بسطها في الكتاب يندرج في باب التاريخ منه إلى الفن الأدبي، وارتكز على المواد التاريخية، وبغير تحقيق، هذا في القرن التاسع عشر الذي كان التاريخ يغلب كتابة سيرة الرسول ﷺ، أما في القرن العشرين وقد شهد تطور واسع في معالجة سيرة الرسول ﷺ، فجاءت في صورة الأدب القصصي والروائي، والمسرحي، فظهرت محاولات لرسم شخصية الرسول ﷺ في الصورة المستحدثة، من ألوان النثر العربي المعاصر.

فقد كتب عبدالحميد جودة السحار، موسوعته الكبيرة'محمد والذين معه' وهى سلسلة كبيرة من عشرين جزءا من القطع الصغير، تتبع فيها ما سماه "التفسير الدينى للتاريخ" فى مقابل التفسير المادى الماركسى للتاريخ، أي عاد السحار إلى البدايات الأولى للوحي الإلهي للبشر المصطفين للرسالات السماوية، وما صاحبها من مذاهب أرضية ودينية وحضارات وممالك وإمبراطوريات ووثنيات وصراعات

[١٤٧] الحضري، محمد حامد. *السيرة النبوية في الأدب العربي الحديث*. جامعة القاهرة.د.ت. ص ١٩.

أخلاقية ودينية، وكيف جاءت الرسالة المحمدية لتؤكد رسالة ما سبقها من التعاليم والقيم الرفيعة التى أرستها الرسالات السماوية، ويؤكد مرارا وتكرارا أن الأنبياء والرسل وإن اختلفت شرائع الأقوام الذين أرسلوا إليهم دينهم واحد، وإلههم واحد وهم بعثوا كسلسلة متعددة الحلقات، بدأت من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، حتى تدرجت إلى أن وصلت فى قمة ذروتها إلى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد شهد العصر الحديث تجربة للعمل المسرحي في جانب من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، كما فعل عزيز أباظة في 'قافلة النور' ومحمد يوسف المحجوب في 'مولد الرسول' وأصحاب الفيل'و'الهجرة الأولى' و'هجرة الرسول' وذات النطاقين'وقد حقق الكاتب هدفه من كتابتها بالحوار الشعري المسرحي، وأنه أتقنه إتقانا دقيقا، في حسن الأساليب الشعرية التعليمية، وإن لم ترتفع إلى مستوى المسرحية الفنية المتكاملة، لأنّ المسرحية في حاجة ماسة إلى فصول تعتبر قضية واحدة من خلال قصة متكاملة. وإلى هذا الفراغ يجيئ توفيق الحكيم بمسرحيته 'محمد'

محمد حسين هيكل والمنهج الفكري

محمد حسين هيكل أديب مفكر مصري، الحياة الفكرية لدكتور محمد حسين هيكل بدأ ككاتب قصة، وختمها بقصة أيضا، فأول ما كتبه كانت قصة 'زينب' وآخرها

'هكذا خلقت' كانت باكورته القصصية دليل على نزعة التجديد عند هيكل، والكاتب الذي بدأ حياته هكذا يسهل عليه اقتحام ميدان السيرة التاريخية ويقدم أمثلة كبيرة، والسيرة قصة حياة إنسان فرد ترك من الأثر في الحياة ما جذب إليه التاريخ. وهي أقرب إلى القصة من التاريخ بمعناه العام حيث تحفل بالعواطف الجياشة، "والسيرة بعد كل هذا أقرب للقصة أكثر من قرابتها للتاريخ حيث تلمس الإنسان مباشرة، بينما في التاريخ نلمس هذا الإنسان عن طريق الأحداث التاريخية التي أحاطت به فمنها ما قيل أن الإنسان هو المؤثر ا-لحقيقي في مجرى التاريخ فإن المجتمع هو الذي يبرز التأثير التاريخي للفرد ويتفاعل معه، وهنا نتخذ من الأحداث محورا للتاريخ. بينما يكون هذا المحور في السيرة هو الإنسان نفسه "[١٤٨]

وجمع محمد حسين هيكل بين ميزة المؤرخ العالم، وميزة الأديب الفنان، وهو وضع لكتابة السيرة منهجا يعتبر أقرب المناهج إلى الطريقة العلمية في كتابة السيرة.

[١٤٨]- الكريم،سامح . *إسلاميات*.ص ٨٤.

مزايا كتاب 'حياة محمد'

معظم كتابات محمد حسين هيكل يظهر فيها الجانب الفكري، وهو يحتج بالعقل، ويعتمد على البراهين المنطقية، وبكتابه 'حياة محمد' اقتحم هيكل ميدان يتصل بقلبه وإحساسه ومشاعره اتصالا يعبر العاطفة الدينية إلى آفاق رائعة من عبادة الخير والحق والجمال، وهذا الكتاب أعظم تاريخ للرسول ﷺ ألف في اللغة العربية في العصرالحديث، وقد جذب هذا الكتاب الأنظار جذباً شديدا لأشياء لم تكن توجد لغيره من كتب السيرة، ويكفي للكتاب أن كان كاتبه الأستاذ الكبير الدكتور محمد حسين هيكل أحد زعماء الأدب المتخصصين في عصره، لأن يشد إليه انتباه المعرضين عن حياض السيرة المطهرة، الذين أولعوا بمؤلفات أعلام الأدب الأوروبي، والذين كثر فيهم الحديث، ونقل آثارهم الكتّات، أما الذين أحبوا التراث الإسلامي، وأعظموا الأدب العربي فقد كان صدور هذا الكتاب بهجة لنفوسهم، ومسرة لقلوبهم، ومورداً عذباً يستقون من سلسله الدافق ليكونوا سعداء.

ووجهة محمد حسين هيكل العقلية تتضح في مقدمة كتابه، وأرصد الإرهاصات التي سبقت النبوة، ويفسر سبب عداء المسيحيين مع محمد ﷺ، والطريقة التي انتهجه هيكل وهي الطريقة العلمية الحديثة، التي تقوم على الشواهد والبراهين، وهو الذي يرى واجب الباحث "ألا يثبت مسألة من المسائل وألا ينفيها قبل أن يصل

من تمحيصه وبحثه الذاتي الصحيح بأن اطمأن كل الطمأنينة إلى الوقوف على الحقيقة كاملة غير مشوبة بشائبة وشأن المؤرخ في ذلك شأن العالم في الأمور الطبيعية وغيرها"[١٤٩]

لم يقصد الدكتور هيكل التصنع لاستهواء القراء بحديثه عن رسول الله ﷺ، كما حاول بعض خصومه أن يظهروه، إذ عز عليهم أن ينضم إلى رجال البيان الإسلامي زعيم من أكبر زعماء الأدب في عصره، فيكون قوة دافعة نحو الإصلاح الحقيقي في الفكر العربي الحديث، كما كان سابقا لمن تابعوه في الكتابة النبوية من أعلام الأدب المعاصر متابعة جعلت السيرة النبوية المطهرة مورد بيان عذب لمن أراد أن يرد نمير السير الإنسانية في أصفى المناهل، وأعذب الحياض.

إن أفكاره، وأسلوبه التعبيري، صارت شفاء لصدور المؤمنين، ولهيبا لأكباد الجاحدين الحاقدين، إذ إن الكاتب الكبير قد رزق فيضا إسلاميا دافقا يجيش في نفسه، فينقله إلى قرائه في استرسال ناصع متمم الحلقات، لا يوجد فيه ثغرة توحي -بضعف، وذلك بقدرة المؤلف على الألفاظ، ومتانة اقتناعه بما يقول، وقوة إيمانه بما يسطر.

[١٤٩] هيكل، محمد حسين. *حياة محمد*. ص ٣٩.

وهو ق-د قرأ كثيرا وفهم، ووازن وناقش، واستمع إلى كل من الأعوان والخصوم، وغاص في الأمواج الزاخر، ليلتقط ما يطويه من درر، وعندما اتسعت أفكاره، وأصبحت ظاهرة واضحة عن رسول الله ﷺ يكتب فيه، كأنه غيث دافق ينهل منه يراعه ليحيي القلوب الميت، وليري الناس كيف كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، في مجال النضال في سبيل الحق، وتحدي العقبات العظيمة القوية.

تقدم المؤلف بكتابه الفريد إلى القراء، وفي صدره مقدمة تحليلية كتبها إمام زمانه الشيخ محمد مصطفى المراغي، شيخ الجامع الأزهر، وقد أحسن الدكتور هيكل الاختيار حين طلب من الشيخ مصطفى المراغي أن يقدم كتابه للناس، إذ إن خطه السابق البعيد عن الفكرة الإسلامية يوحى بالصدود لبعض من يتقيدون بالماضي دون نظر إلى تبدل الحاضر، وكان الشيخ المراغي ميزانا دقيقا للحكم .

ومقدمة المراغي مثال يتبع، لأنها لم تكن موافقة تامة لكل ما في الكتاب، بل إنه سلك مسلك النقد لما يخالف فيه المراغي صاحبه، وهذا المنهج صالح للاتباع لمقدمات العلمية في كل كتاب، فقد وقف الشيخ المراغي عند قول المؤلف"ولعلي أكون أدنى إلى الحق إذا ذكرت بأني بدأت هذا البحث في العربية على تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكرت ما بين دعوة محمد . عليه الصلاة والسلام . والطريقة العلمية الحديثة من شبه قوي، فهذه الطريقة تقتضيك إذا أردت بحثاً أن تمحو من نفسك كل رأي، وكل عقيدة سابقة في هذا البحث، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة،

ثم بالموازنة والترتيب، ثم بالاستنباط القائم على المقدمات العلمية، فإذا وصلت إلى نتيجة من ذلك، كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص، ولكنّها علمية، ما لم يثبت البحث العلمي تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها،- وهذه الطريقة هي أسمى ما وصلت إليه الإنسانية في تحرير الفكر، وها هي ذي مع ذلك طريقة محمد .عليه الصلاة والسلام - وأساس دعوته"[١٥٠]

وجاءت مقدمة المؤلف ليتحدث عما دعاه إلى تأليف الكتاب، فأشار إلى ما لمسه من محاولة استشراقية للقضاء على الروح المعنوية في بلاد الإسلام، والهجوم على رسوله ﷺ بشتى المفتريات والدعايات، متسربلة بثياب البحث المحايد، مع تعثت ظاهر، هو حجة العاجز حين لا يجد الدليل الواضح، فيلجأ إلى التكلف والافتعال، وكانت الطريقة العلمية هي السبيل الوحيد في هدم الحجة الباطلة، وتأييد الحق الثابت، وهو كما يقول : أن يمهد بعمله السبيل إلى كتابة صحيحة، وتاريخ نزيه لصاحب السيرة ﷺ .لأن التعمق في هذا المجال يكشف أسرار كثير من نواحي علم النفس، تؤكد صلة الإنسانية بالكون الأعظم، وتزيد المؤمنين استمتاعاً بظواهر الطبيعة، ووسائل القوة والحركة في الحياة. "ومن أجل ذلك كان خليقاً بكل من يتصدى للبحث في مثل موضوعه أن يتوجه به إلى الإنسانية كلها، لا إلى المسلمين وحدهم، فليست الغاية الصحيحة منه دينية محضة كما

[١٥٠] هيكل،محمد حسين. *حياة محمد*. مقدمة للأستاذ المراغي.

قد يظن بعضهم، بل الغاية الصحيحة أن تعرف الإنسانية كيف تسلك سبيلها إلى الكمال الذي دلها محمد ﷺ - على طريقه، وإدراك هذه الغاية غير ميسور إذا لم يهتد الإنسان إلى هذا السبيل بمنطق عقله، ونور قلبه، راضي النفس بهذا المنطق، منشرح الصدر إلى هذا النور، لأن مصدرهما المعرفة الصحيحة والعلم الصحيح"[١٥١]

فبعيدا من المقاصد القديمة والراهنة قصد الهيكل في كتابة السيرة أن تعرف الإنسانية كيف تسلك سبيلها إلى الكمال الذي دلها ﷺ على طريقه، -فهو في مخاطبة الإنسانية جميعها، بدون فرق بين المسلمين وغيرهم، ويستدل بالمنطق العقلي وحده، فيترك الاسترسال في حديث المعجزات الكونية، لا لأنه لا يؤمن بها، بل لأنه يخاطب من لا يؤمنون بالإسلام بمنطق العقل الذي يأبى التسليم بالخوارق. وإذا كان القرآن وحده هو الحجة العقلية أمام من يفكرون، فإن الاكتفاء به في مواجهة غير المسلمين مما يلزمهم كل إقناع صادق متى سلمت النفوس من الأكدار، وتعرت العقول عن غشوات الأغراض، واللجوء إلى الحجة العقلية وحدها أمام من لا يدينون بالإسلام هو أقرب طريق للإقناع.

[١٥١] هيكل، محمد حسين، *حياة محمد*، مقدمة للأستاذ المراغي

النقد الداخلي على كتاب 'حياة محمد'

وحين ظهرت الطبعة الأولى من'حياة محمد' ﷺ أخذ بعض النقاد على المؤلف اقتصاره -على المعجزة العقلية دون المعجزة الكونية، وصار هذا مجال نقد بين النقاد، وقد أشار إليه المؤلف في مقدمة الطبعة الثانية، ونقل ما قال صاحب "المنار" بصدده، إذ تعرض السيد محمد رشيد رضا إلى هذه المسألة فقال فيما رواه عنه المؤلف "أهم ما ينكره الأزهريون على هيكل مسألة المعجزات أو خوارق العادات، وقد حررتها في كتاب 'الوحي المحمدي' من جميع نواحيها ومطاويها في الفصل الثاني، وفي المقصد الثاني من الفصل الخامس بما أثبت به أن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على ثبوت نبوة محمد ﷺ - بالذات، ونبوة غيره من الأنبياء وآياتهم بشهادته لا يمكن في عصرنا إثبات آية إلا بها" [١٥٢].

ومعنى هذا الكلام أن معجزات الأنبياء مثل "انقلاب العصا حية" لدى موسى عليه السلام، "وإحياء الميت" لدى عيسى عليه السلام، و"انشقاق القمر" لدى محمد - ﷺ . لا يؤمن بها إلا من رآها في عصرها، أما الذين جاؤوا بعدهم المتتابعون من بني البشر فلا بد لهم من حجة دائمة تقنع من كان له عقل، وهذه الحجة لا بد أن تكون عقلية يدركها التأمل الفاحص، والفكر المستنير، والقرآن هو الحجة

[١٥٢] نفس المرجع. ص٥٢.

البالغة في كل يصدق النبوة في كل جيل، فإذا احتفل به هيكل دون المعجزات الكونية التي لا ينكرها، ولكن يعلم أن آثارها قد ذهبت بذهاب عصرها، فهو يأتي لأمر من بابه، إذ يتجه بكلامه إلى من لا يصدقون غير ما يتصورون.

وبعد قراءة ما تتوالى من الأخذ والرد حول هذه الخوارق الحقيقية ليس من اللازم تأييد وجهة نظر الدكتور هيكل في الارتكاز على العقل وحده، وإن كان هدفه إقناع الخصوم من الأعداء، لأن هؤلاء الخصوم في صميم اعتقادهم يرون أن العقل بمقدرته الضيقة لا يقدر على الاحتكام وحده في أمور كثيرة دون مساعدة الإلهام، وبنفس السبب إن الأعداء يؤمنون بمعجزات من سبق محمدا ﷺ من الأنبياء، ويعلمون تمام العلم أن وسع العقل البشري محدود، لا يتجاوز نطاقه المعلوم. وللعقل مصادره التي يعتمد عليها من الحواس والمقروءات والمسموعات، ولكن الحواس لا تعرف شيئاً عما وراء الغيب، أو ما يقال عنه وراء المادة، وكذلك المقروء والمسموع مما ينتهي إلى المشاهد المنظور، ما لم يأت به نبي بوحي من عند الله، فيكشف الأسدال عما لا تدركه الحواس، ولا يحيط به المقروء والمسموع.

وقد مرت قرون كثيرة على تأكيد نظريات علمية يؤمن بها العلماء أشد العلم، لأنها مرتكزة على أدلة يؤيدها العقل الظاهر بقياسه الواضح، ثم وجد من المكتشفات ما جعل هذه النظريات أساطير يرمى بها في سجل التفكير البدائي، مع أنها تُعزى لرؤوس مفكرة ذات ثقل رصين في ميزان التفكير الإنساني.

إن الأفضل للباحثين في المعجزات أن يعلموا أنها تتصل بقدرة الله عز وجل وقدرة الله فوق ما تحتمله العقول، فإذا سلّم بقدرة الله على نحو لا يقف أمامه حائل معجز، فيسلم العقل بكل معجزة يجريها الله لرسوله الكريم، وهذا التسليم وحده ضرب من ضروب الفكر الصحيح. وليس إيماناً أعمى يفقد الدليل، لأن الفكر الصحيح يعترف بقدرة فاطر السماوات والأرض، وفالق الحب والنوى، ومرسل السحاب بالرحمة والحياة، وخالق الإنسان من طين لازب، هذه القدرة القادرة لا يعجزها أن نيسر انشقاق القمر، أو أن تمد الجيش الإسلامي بجنود من الملائكة، أو أن ترسل على الأعداء طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فيكونوا كالعصف المأكول.

والدكتور محمد حسين هيكل لا يجحد شيئاً من الخوارق، ولكنه يسعى أن يقنع قوما يجعلون جحودها جحودا لنبوة محمد ﷺ، وهذا يظهر من قوله "لنفرض جدلا أنها لم تحدث ولم تقع! أما يكفي نجاحه وتوفيقه في أداء رسالة الإسلام لثبوت هذه النبوة، ثم ألا يكفي القرآن الكريم بإعجازه المبين"[١٥٣].

[١٥٣] نفس المرجع. ص ٥٤.

وقفة قاطعة عند التهم

وكتاب "حياة محمد" كبير الحجم نسبيا، في واحد وثلاثين فصلاً غير مقدمتين كبيرتين، وخاتمة في مبحثين ممتازين عن الحضارة الإسلامية، وموقف المستشرقين منها. حتى شمل للمناقشة المواضيع المشكوكة فيه من المستشرقين ومن ماثلهم، ومن تلك المواضيع " فرية تحريف القرآن" وفرية الصرع" والخوارق والمعجزات" و"من الذبيح" و"قصة ذهاب الخليل إلى مكة" و"وثنية خديجة" و"حادثة شق الصدر" و"قصة الغرانيق" و"الوحي" و"الإسراء والمعراج". وفي مثل هذه المواقع قام هيكل قيام مدافع بالحجج والبراهين، غير أن طريقته هذه لم يعجب بعض النواحي من الأمة، فقاموا ضده ردا وجوابا.

وهذا العصر جعل البيان الديني نموذجا يتبع، فبيان الدكتور محمد حسين هيكل في'حياة محمد' من نماذج الأسلوب الأدبي للدراسات الإنسانية، إذ يسرد حقائقه التاريخية في نسج قوي العرى، بالغ النفاذ، وإذا استطاعت عاطفته الدينية أن تتوهج في كثير من مواقف البطولة الرائعة، أوفي مناحي الإنسانية الناهضة بشتى الأعباء والآلام، فإن تفكيره الرصين قد ألزمه بإبداع الحجج الفاصلة، والبراهين النافذة، يقدمها هادئة دون صخب ولا انفعال.

وفي الفصل الأول يتحدث الكاتب عن بلاد العرب قبل الإسلام طبيعة وتاريخا، وتجارة واعتقادا، وأتقن في بيان العلاقات السياسية بين الجزيرة العربية وما يليها من الممالك والشعوب. ويتكلم في الفصل الثاني عن مكة والكعبة وقريش كلاما يناسب عناصره أتم التناسب، واتسعت دائرته حتى شملت ما يتطلبه الموقف من نقاط تاريخية تدخل في القديم من ناحية، وتمضي إلى الراهن من ناحية أخرى، وعرض حادثة ذهاب إبراهيم إلى مكة مع ولده إسماعيل وأمه هاجر، وقف لما يشك فيه المتشككون بشأنها،وهو يظهر في كثير من فصول الكتاب قوة نقدية في براعة قوية، ومناقشته القاطعة لما عرف بحادثة الغرانيق، ولما افتراه المفترون عن زواج الرسول ﷺ بزينب بنت جحش بعد طلاقها من زيد. ولما انشغل به السفهاء في تعدد زوجات رسول الله ﷺ، تدل على أنه كان مؤيدا بروح الحق.

والمولعون بالبحث في سيرة الرسول ﷺ بعد ظهور هذا الكتاب نهلوا من منهله، ويملؤون المجلات مرددين ما قاله، واعترفوا للكاتب مهارته، واستطاعوا أن يحافظوا على ديباجته البيانية البارعة، ولكن بعض منهم نقلوا الحجج الدامغة بتعبيرهم المتخاذل، جاؤوا بهيكل عظمى خالي من الدم واللحم، وتركوا ظلا من اليأس في نفس القارئ، وذلك لما لم ينسبوا قول هيكل إليه ليكون ما ينقلونه وحده هو الواحة الخضراء في صحراء قاحلة تمور بها الأعاصير قاذفة بالرمال.

فكما كان الكتاب منهجا متبعا في كتابة السيرة من حيث المضمون، وقد أرسى قواعده منهجه الأدبي في كتابة السيرة.

المنهج الأدبي في 'حياة محمد'

ومن ميزة كتاب 'حياة محمد' إنه ترك مجالا واسعا للتحليل الأدبي الرائع، وذلك يتضح حينما يتكلم الكاتب عن تأمل الرسول ﷺ في صدر شبابه "ومما زاده انصرافا إلى التفكير والتأمل اشتغاله برعاية الغنم في صباه. فقد كان يرعى غنم أهله، ويرعى غنم أهل مكة، وكان يذكر رعيه إياها مغتبطا، وكان يقول: "ما بعث الله نبياً إلا رعى غنما، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلي بأجياد"، وراعي الغنم الذكي القلب يجد في فسحة الجو الطلق أثناء النهار، وفي تلألؤ النجوم إذا جن الليل موضعاً لتفكيره وتأمله، يسبح معه في هذه العوالم، ويبتغي أن يرى ما وراءها، ويلتمس في مختلف مظاهر الطبيعة تفسيرا لهذا الكون وخلقه، وهو يرى نفسه ما دام زكي الفؤاد، عليم القلب بعض هذا الكون غير منفصل عنه، أليس يتنفس هواءه ولو لم يتنفسه قضى؟"[١٥٤]

أليست تحييه أشعة الشمس، ويغمره ضياء القمر، ويتصل وجوده بالأفلاك والعوالم جميعاً؟ هذه الأفلاك والعوالم التي يراها في فسحة الكون أمامه متصلاً

[١٥٤] هيكل نفس المرجع. ص ١١٦.

بعضها ببعض في نظام محكم و"لا الشمش ينبغي لها أن تدرك القمر ولا اليل سابق النّهار" - سورة يس : ٤٠.

ثم يقول هيكل متابعاً حديثه "إن حياة التأمل والتفكير وما تستريح إليه من عمل بسيط كرعي الغنم، ليست بالحياة التي تدر على صاحبه أخلاف الرزق، وتفتح أمامه أبواب اليسار، وما كان محمد ﷺ يهتم لذلك أو يعنى به، وقد ظل حياته أشد الناس زهداً في المادة، ورغبة عنها. وما إقباله عليها، والزهد فيها إلا بعض طبعه، وكان لا يحتاج من الحياة إلى أكثر مما يقيم صلبه، أليس هو القائل :

"نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع "؟ أليس هو الذي عرف عنه كل ح-ياته حرصه على شظف العيش، ودعوة الناس إلى خشونة الحياة؟ والذين يتوقون إلى المال، ويلهثون في طلبه، إنما يبتغونه لإرضاء شهواتهم، ولم يعرف محمد ﷺ طوال حياته شيئاً منها، واللذة النفسية الكبرى لذة الاستمتاع بما في الكون من جمال، ومن دعوة إلى التأمل، هذه اللذة العظيمة لا يعرفها إلا الأقلون، والتي كانت لذة محمد ﷺ منذ نشأته، ومنذ أرته الحياة في نعومة أظافره ذكريات بقيت مطبوعة في نفسه، داعية إلى الزهد في الحياة، وأولاها موت أبيه، وهو ما يزال جنيناً، ثم موت أمه وموت جده ! هذه اللذة ليست في حاجة إلى ثروة من مال، وإن تكن في حاجة إلى ثروة إنسانية طائلة، يعرف الإنسان معها كيف يعكف على

نفسه، ويعيش بها وفي دخيلتها، ولو أن محمداً ﷺ ترك وشأنه يومئذ لما نازعته نفسه إلى شيء من المال، ولظل سعيداً بهذا الحال، حال الرعاة المفكرين الذين ينتظمون الكون في أنفسهم، والذين يحتويهم الكون في حبة قلبه"[١٥٥]

ويجد القارئ أمثال هذه الوقفات الجميلة حين يتكلم عن قصة ابن أم مكتوم، وانصراف الرسول ﷺ عنه إلى كبراء قريش طامعاً في إسلامهم، وطرحهم الجمود البالي فهيكل يسأل، في ص١٧١صفحة، أحقاً إن السنين تنسي النفوس جمودها ومحافظتها على القديم البالي؟ إنما يكون ذلك عند الممتازين ممن تنزع نفوسهم للكمال، فما يزالون يقلبون الحقائق التي آمنوا بها من قبل، لينفوا ما يعلق بها من زيف بالغة ما بلغت تفاهته، وهؤلاء كان قلوبهم وعقولهم دائمة الغليان، تقبل كل جديد من الرأي يلقى إليها، فتصهره وتطهره، وتنفي خبثه، وتستبقي ما به من خير وحق وجمال، وهؤلاء يلتمسون الحق في كل شيء، وفي كل مكان وعلى كل لسان، بيد أنهم في كل أمة وعصر هم الصفوة المختارة، وهم لذلك قلة أبداً، وهم يجدون الخصومة ناشبة على أشدها بينهم وبين ذوي السلطان، إذ يخافون من كل جديد أن يجني على سلطانهم، ثم يستعدون السوام بتقديس الصروح التي نخر فيها السوس على من يدعو إلى الحق الصريح، والسوام ينصرونهم إذ

[١٥٥] نفس المرجع. ص ١١٨.

ينظرون إلى أرزاقهم التي في أيديهم، ولا يسهل عليهم أن يعلموا أن الباطل قريب الأمد، وأن الحق على وشك البزوغ.

. وهذه التحليلات كلها في أحداث السيرة شاهدة عين للقول بأن المؤلف عاش بقلبه أحداث السيرة، وامتلأ بها جنانه، واستنشقت رئتاه عبيرها المنعش، فكتابه الرائع، لم يترك مما عرف من هذه الأحداث شيئا، وقد مدح المادحون صنيعه مدحا لا مبالغة فيه.

توفيق الحكيم في مسرحية 'محمد'

المسرحية فن أتى إلى الأدب العربي متأخرا، بالنسبة إلى الفنون الأخرى، وتطور هذا الفن في مصر أكثر من البلدان العربية الأخرى، وذلك بعلاقة مصر بالأدب الغربي، ولما اعتلى إسماعيل باشا على عرش مصر بدأت النشاطات المسرحية في مصر تظهر بصورة أحسن، فأنشأت دار الأوبرا ومثلت فيها روايات غنائية إيطالية، وأنشأ يعقوب صنوع مسرحا بالقاهرة مثّل عليه كثيرا من المسرحيات المترجمة والموضوعة، ولم يكن يمثل باللغة العربية الفصحى، وإنما كان يمثل بالعامية الدارجة، ومجيئ توفيق الحكيم فتح بابا جديدا في المسرحية "وإذا تركنا المسرح إلى التأليف المسرحي وجدناه ينهض نهضة رائعة منذ العقد الرابع من هذا القرن إذ ظهر توفيق الحكيم فوثب به وثبة لم يكن يحلم بها كل من سبقوه، فقد

أرسى قواعده في النثر"[١٥٦].واحتفظ أصول الفن المسرحي وما تحتوي عليه من عناصره ومقوماته فهي أعمال مسرحية تامة، ولم يقلد كاتبا غربيا، واستمد من موهبه ومن بيئته وروحه المصرية العربية، "وقد يستمد في مسرحياته من التاريخ العربي، وهو دائما يمسح على عمله بتحليلات نفسية يصور فيها الطبيعة الإنسانية، ومن هنا كان صراع مسرحياته غالبا يدور بين العقل والغريزة الباطنية"[١٥٧].

والسيرة في العصر الحديث جنس شامل كالقصص الروائي، والتاريخ، والحديث النبوي، والخبر الشرعي، وبهذا التداخل في السيرة عجز بعض الباحثين عن بيان نوعية السيرة في 'محمد' لتوفيق الحكيم، وهو ضرب من الرواية لا يخضع لاسم من أسماء الفنون الأدبية، وهي ليست رواية ولا قصة، ولاترجمة تاريخية محضة، ولكن فيها مسة من هذه الفنةن بأجمعها. وهذه المسرحية ألفها توفيق الحكيم عام ١٩٣٦م، هي سيرة الرسول ﷺ في صورة حوارية، تتكون من خمسة فصول يبلغ عدد مناظرها ٩٤ منظراً لكل فصل من الفصول الخمسة عدد من المناظر.

[١٥٦] ضيف، شوقي. *الأدب العربي المعاصر في مصر*.ط١٠، مصر: دار المعارف.د.ت. ص ٢١٦.

[١٥٧] نفس المرجع. ص ٢١٦.

وقد سبق الأستاذ علي الطنطاوي توفيق الحكيم إلى هذا اللون من الأدب، إنّه كتب في "مجلة الرسالة" عام ١٩٢٩م بعض الفصول من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد كتبها على شكل حوار مسرحي.

وتأثر توفيق الحكيم بتمثيلية فولتير عن الرسول ﷺ، حينما كان دارسا في باريس، واستفزته الطريقة التي اتبعها فولتير، فبدأ توفيق الحكيم يفكر في كتابة سيرة الرسول ﷺ في أسلوب مسرحي عام ١٩٢٧م، غير أنه لم يقم بعمل جدي في هذا السبيل حتى عام ١٩٣٤م، إذ طلبت إليه "مجلة الرسالة" أن يكتب فصلا حول السيرة لينشر في عددها الممتاز عن هجرة الرسول ﷺ، التي تصدر في مستهل كل عام هجري. وأخذ يكتب سيرة الرسول ﷺ في أسلوب مسرحي نشر في فبراير عام ١٩٣٦. وقد اهتم توفيق الحكيم بسيرة الرسول ﷺ حينما كان بباريس، وأتاحت له الفرصة للإطلاع على العديد من كتب الإسلام المؤلفة بغير المسلمين، ومعظم هذه الكتب كانت تحتوي على هجوم وأكاذيب على الإسلام وعلى الرسول ﷺ، ومن مقدمة هذه الكتب كتاب "محمد" لفولتير.

وكتب توفيق الحكيم في إطار مسرحي، واتخذ هذا الشكل الفني لسيرة الرسول ﷺ. واعتمد الكاتب في تأليف الكتاب على كتب السيرة والتاريخ والتراجم وأنه اقتبس جميع التفاصيل من كتب القدماء، فقد جاء الكتاب في أحسن شكل

وأروع أسلوب وأتقن ترتيب، ويقول الأستاذ رجب البيومي "أن قصة نبي الإسلام محمد ﷺ لتوفيق الحكيم قصة إسلامية فهذا لا مجال للخلاف فيه، فالقصة نموذج مشرق للفن الإسلامي الملتزم، وقد راعى فيها الكاتب الكبير ما تتطلبه الدقة الواعية من التزام أحداث السيرة المطهرة، كما جاءت في الكتب المعتمدة لدى الباحثين" [١٥٨]

وأحب توفيق الحكيم أن تكون أحداث التاريخ التى يكتبها صحيحة، وبالغ في ذلك وجعل في هامش القصة ذكر المراجع وبعض فقرات الإيضاح، وقرأ المصادر الإسلامية قراءة دقيقة فقرأ سيرة ابن هشام وتفسيرها للسهيلي وطبقات ابن سعد، والإصابة لابن حجر العسقلاني وأسد الغابة لابن الأثير، وتاريخ الطبري وما سوى ذلك من الكتب التي تتعلق أدنى تعلق بسيرة الرسول ﷺ، واتخذ في قراءته طريقا غير طريق المؤرخ والفقيه والمحدث "قرأ الأستاذ توفيق الحكيم كتب السيرة وما تناولها من كتب التاريخ والطبقات والحديث والشمائل، بقريحة غير قريحة المؤرخ، وفكرة غير فكرة الفقيه، وطريقة غير طريقة المحدث وخيال غير خيال القاص وعقل غير خيال القاص والزندقة، وطبيعة غير طبيعة الرأي وقصد غير قصد الجدل، فخلص له الفن الجميل الذي فيها، إذ قرأها بقريحة الفنية المشبوبة، وأمرها على أحاسيسه الشاعر المتوثب واستلها من التاريخ بهذه

[١٥٨] البيومي، محمدرجب. *بين الأدب والنقد*، مصر:دار المصرية اللبنانية. ١٩٩٧ . ص ٩٤.

القريحة وهذا الأحساس كما هي، وطليعتها السامية متجهة إلى غرضها الإلهي محققة عجائبها الروحانية المعجزة"[١٥٩].

فتوفيق الحكيم صاغ التاريخ الصحيح لسيرة الرسول ﷺ في صورة حوار فني، وقول الكاتب نفسه يشهد على هذا"الوقائع الواردة في هذا الكتاب كلها صحيحة مروية في الكتب السابق ذكرها على أن ترتيب هذه الوقائع وتنسيقها لم يتبع فيه النظام الزمني المعروف في كتب التاريخ لما هو مفهوم، إن هذا الكتاب ليس عملا تاريخيا ولاعلميا، إنما هو عمل فني"[١٦٠].

مسرحية "محمد" لتوفيق الحكيم، مثال جيد صالحة لإضافة المنهج الجديد إلى سيرة الرسول ﷺ، وهي جواب كافي لسؤال كيف تكون السيرة إذا تم تحويلها إلى مسرح، إذ كان من العسير تحويل شخصيات السيرة إلى المسرحية، ومن طبيعة المسرحية "كان فن المسرحية أكثر فنون الأدب استعصاء على كاتبه وأشد حاجة إلى مهارة فنية تستطيع أن تؤلف بين عناصر هذا الفن المتشبعة من قصة وممثل ومسرح وجمهور وحوار، وأن تخضع في غير افتعال لقيود المسرح والتزامه، وأن

[١٥٩] الرافعي، مصطفى صادق. *وحي القلم*. ج٣. مؤسسة هنداوي. ٢٠١٧ .ص٤٣٣.

[١٦٠] الحكيم، توفيق، *محمد*. مكتبة مصر. د.ت. ص ٧.

تتعاون كل هذه العناصر في غير تضارب أوتنافر حتى يصل الكاتب إلى عمل فني متناغم"[١٦١].

والمسرحية أدب يقصد بها التمثيل، وهي قصة تكتب للتمثيل على المسرح، وشخصية محمد ﷺ، غير متمكن للتمثيل على المسارح لقداستها، فما الذي دفع توفيق الحكيم إلى صياغة قصة محمد ﷺ مسرحية، والحق أن مسرحية فولتير في محمدﷺ، هو الذي دفع توفيق الحكيم أن يكتب مسرحية محمد، وإنه دعا المؤلفين من المسلمين للرد على تللك العمل الغاشمة "فلم أر كاتبا من كتاب الإسلام قام في ذلك الوقت يدفع عن دينه هذا الهراء الذي قاله فولتير ويقذف في وجه هذا الكتاب بالحقائق الباهرة القاطعة، أو أن مؤلفا وضع كتابا يبرز فيه شخصية النبي العظيمة واضحة جلية" [١٦٢].

وموضوع المسرحية يظهر كتداول الصراع بين الإنسان وبين قوى الشر المتحكمة، فهذا ما يتميز به توفيق الحكيم في مسرحياته، وهو يعالج رسالة مختلفة في مسرحياته، ففي 'شهرزاد' وهي صراع الإنسان مع الطبيعة، وجعلها في 'أوديب' مسألة القدر، وفي 'إيزيس' مشكلة الإرادة، أما في 'اهل الكهف' جعلها الصراع بين الإنسان والزمان، وفي "محمد" إنها حوار لسيرة الرسول ﷺ، وظاهرة

[١٦١] العشماوي، محمد. *النقد المسرح*. ط١. دار الكتب الجامعية. ١٩٦٨.ص ٩.

[١٦٢] الحكيم، توفيق. *تحت شمس الفكر*. القاهرة: مكتبة الآداب. ص ٢٢.

الصراع غير موجود جليا فيها، وهو يقول في المقدمة "قصد بوضع هذه السيرة عام ١٩٣٦ في قالب الحوار، المحافظة على حقيقة الصور التاريخية، والحرص على إبرازها من واقع الحدث التاريخي نفسه، كما جرت به الألسنة طبقا لنصوص الكتب المعتمدة المشار إليها، ذلك تحاشيا من إرسال التعليقات والتفسيرات التي قد تغير عن غير عمد بعض الملامح "[١٦٣].

الإشكالية في المسرحية

ويوضح توفيق الحكيم في مقدمة مسرحيته، أنه لا يريد التأريخ ولا التحقيق، وإنما يتوخى أن يعرض صفحات من سيرة الرسول ﷺ، في قالب مسرحي ومعتمدا على النصوص الموثوقة بها، فهل من المحتمل أن يكون هذا العمل عملا ضعيفا إذ كان النبي ﷺ هو الشخصية المهمة في المسرحية، ولا يجوز للكاتب أن يأخذ الحرية الأدبية الفنية حيث يكتب عن شخصية مثل النبي ﷺ، ويقول توفيق الحكيم "إن الكلام الذي يجري على ألسنة الأشخاص في هذا الكتاب هو كلام تاريخي، وردت نصوصه في كتب معتمدة، هي على سبيل الحصر: سيرة ابن هشام وتفسيرها للسهيلي، وطبقات ابن سعد، والإصابة لابن حجر، وأسد الغابة لابن الأثير، وتاريخ الطبري، وصحيح البخاري، وتيسير الوصول، والشمائل للترمذي،

[١٦٣] الحكيم،توفيق.محمد .مقدمة.

وتفسسره للبيجوري"[١٦٤]. واعتماد الكاتب على الكتب التاريخية لايجعل عمله تأريخا، لأن المؤرخ في عمله يعتمد على التنقية والتمحيص، ويكون موضوعيا في عمله، أما المسرحية فهي عمل غير التاريخ، غير أن الكاتب لم يتستطع له من إقامة العنصر الصراعي قويا، كما فعل ونجح في أعماله الأخرى، لأن قدسية الرسول ﷺ تمنع ذلك، وهذا السبب نفسه أبعد الأدباء من التقديم على إنتاج المسرحية في سيرة الرسول ﷺ، لأن المسرحيات كانت متقنة إتقانا دقيقا، من حيث جودة الأساليب الشعرية التعليمية، لكن تجزئتها أبعدها عن فن المسرحية المتكامل، أي لم يحقق الأديب من خلالها أن تؤدي غرضا متكاملا من حيث أدب المسرحية الحديث، لأن المسرحية تحتاج إلى فصول تعالج قضية واحدة من خلال قصة.

تحليل مسرحية 'محمد'

وقد قسم الكاتب هذه المسرحية إلى خمسة فصول، ويحتوي كل الفصول مجموعة من الحوارات، وفقد فيها جمع الحوارات في صف تمثيلي واحد، والأدباء الذين نجحوا في عرض سيرة الرسول ﷺ في قالب مسرحي، لم يعالجوا حياة الرسول ﷺ من البداية إلى النهاية، وإنما أخذوا منها جزء، أو شخصية ثانوية تحرض على الخير أو تشمئز من الشر. ويسوق الحوار حسبما تقتضي أهداف

[١٦٤] نفس المرجع. مقدمة.

المسرحية، فمسرحيتان 'الحسين ثائرا'، و'الحسين شهيدا'، لعبد الرحمن الشرقاوي، وإن الكاتب أراد ونجح أن يساير مع سيرة الرسول ﷺ من خلال شخصيات أحفاد الرسول ﷺ. وتوفيق الحكيم أراد بعرض سيرة الرسول في قالب مسرحية أن يعين النهضة الحديثة واستلهام القيمة البطولة النادرة من خلال صورة يستهوي القلوب. وإنه اتخذ صورة المسرحية في إطار سيرة الرسول ﷺ، ونجح في تقسيم المادة من خلال الهيكل العام للمسرحية أي نجاح، وتم له الفن في صورة عامة، وأدخل خلال كل فصل كثيرا من المناظر حتى تتم فيها فنية الحوار، والحوار في المسرحية قادر لإظهار الصراع الذي هو الهدف في مسرحياته، ففي مسرحية 'محمد' إنه عانى أشد العناء لإظهار مهارته هذه، لأن الحوار الذي يجري على ألسنة الشخصية الهام لا يجوز فيه الكذب البتة، أو لا يجوز له تكوين الشخصية حسب شكل فنية مبدعة، ومحمد مندور يقول في هذا الصدد "حين فصل توفيق الحكيم وإن يكن مقسما إلى ثلاثة فصول وخاتمة يضم كل منها عددا من المناظر التي تبلغ في الفصل الأول ستة وثلاثين، وفي الثاني عشرين، والثالث ثلاثة وعشرين وفي الخاتمة ثمانية مناظر. إلا أن كل هذه الفصول والمناظر لايرتبط بعضها ببعض بأية رابطة سببية، بل هي مجرد استعراض لحياة النبي في صورة مناظر طويلة أوقصيرة، بحيث نستطيع أن

نقتطع أي منظر ونقرأه وإذا به لايعدو أن يكون خبرا تاريخيا صاغه المؤلف في صورة حوارية" [١٦٥]

ويتضح من هذه العبارة أن تمثيل مسرحية 'محمد' على المسارح عمل عسير، ومن هنا قال بعض النقاد إن دور توفيق الحكيم في المسرحية هو أنه جعل المسرحية شيئا يقرأ.

فقد نشطت كتابة سيرة الرسول ﷺ في مصر في العصر الحديث بصورة متميزة حيث تناول هذه المادة كبار الكتاب المصريين أمثال محمد حسين هيكل، وأحمد أمين ووعائشة عبد الرحمن،وقد اعتنوا في مؤلفاتهم المناهج المختلفة والقوالب المتنوعة في الكتابة، وصارت المناهج العلمية والفكرية والتحليلة عدة الكتاب إضافة إلى المنهج الأدبي، وامتازت مساهماتهم في سيرة الرسول ﷺ بأسلوب قصصي وروائي ومسرحي، ومنهم من جعل مؤلفاتهم فرصة لإزالة الشبهات التي وردت في كتب المستشرقين والغربيين حول الإسلام وحياة الرسول ﷺ.

[١٦٥] مندور، محمد. *مسرح توفيق الحكيم*.ط١.مصر: دار النهضة. ص١٤.

الباب الرابع

أعمال و أفكار طه حسين وعباس محمود العقاد

- الفصل الأول: القرن العشرون والحركة الفكرية العربية
- الفصل الثاني: حياة طه حسين وجدل الفكر العربي
- الفصل الثالث: عباس محمود العقاد الكاتب العبقري

الفصل الأول
القرن العشرون والحركة الفكرية العربية

العصر الذي عاش فيه الأديبان طه حسين وعباس محمود العقاد هو عصر شهدت فيه مصر الحركة الفكرية، وانغمس هذان الكاتبان في بحر الفكر التي ماجت حولهما، حتى تتمكن عندهم الآراء والأفكار .

أما طه حسين فهو ثائر وعنيد وصاحب أدب بأسلوب جميل، وحصل على الدكتوراه من جامعة القاهرة أولا، وبعد دراسته في فرنسا أصبح من الكتاب المعدودين في مصر، وشارك فى الحياة السياسية وصار رئيسا لجامعة القاهرة ووزارة المعارف، وساعدته الظروف أن يكون مشهورا حتى سمي بعميد الأدب العربي.

عباس محمود العقاد اشتهر بنفس العناد والكفاح وتحدي الظروف، وانهمك فى القراءة وطلب المعرفة، وكان أديبا وشاعرا نشيطا فى الحركة السياسية، وتميزه الأكبر أنه لم يحصل على شهادة دراسية عالية فوق الابتدائية. وعوّض هذا بسعة اطلاعه وبكثرة مؤلفاته، ونشاطه الثقافى وتكوين مدرسة أدبية من تلاميذه.

كلاهما - طه حسين وعباس محمود العقاد - تنافسا وتميزا فى مجال الأدب، وكانا معا من أعظم الأدباء والكُتّاب.

وقد وسعت دائرة الأدب في هذا العصر وانضم إليها كل من يكتب فى النثر والشعر والحياة الاجتماعية والتاريخ وشتى الفنون. ومنهم عبد القادر المازنى وعبد الرحمان شكري ومحمد حسين هيكل ومحمد فهمى عبد اللطيف ولويس عوض وكبار الصحفيين من الجيل التالى وأشهرهم أنيس منصور. هؤلاء الكُتّاب والأدباء عالجوا مواضيع شتى من الأدب والنقد والتاريخ والإسلاميات.

الظروف السياسية والاجتماعية

أمست الحياة العقلية في العالم العربي فى أواخر العصر المملوكي جامدة ومتأخرة، وفي العصر العثماني انحطت انحطاطا، وانعكس هذا على الكتابة الأدبية، فوصلت الى الحضيض، طغت العامية على الكتابة. أما الكتابات التى تمسكت بالفصحى فقد كانت محملة بأثقال من المحسنات البديعية اللفظية من السجع والتورية والطباق.

صحا المصريون على مدافع نابليون ولولاها لاستمروا فى سُباتهم حتى يجيئ احتلال غربى آخر. حرّك زلزال الحملة الفرنسية فى احتلالها لمصر ثم جلائها عن مصر ثم حكم الوالي محمد علي والنهضة المصرية فى عهده، الحياة العقلية فى مصر، ووصلت

أصداء هذا الزلزال وتوابعه بعد قرن من الزمان إلى فناء الأزهر الذى كان يسميه الإمام محمد عبده بالأسطبل والمخروب والمارستان. وبدأ محمد عبده فى أواخر حياته إصلاحا فى الأزهر والتفكير الدينى.

وفي القرن التاسع عشر بدأ عصر الخديوي إسماعيل والذى أصبحت فيه القاهرة مدينة تنافس مدن أوربا بعد أن كانت فى أواخر العصر العثماني قرية كبيرة متخلفة. وفي هذا الوقت تم افتتاح قناة السويس، وتكوّن في مصر أول برلمان، وكان فيها ثاني خط للقطارات في العالم، ووصل عسكر مصر إلى أواسط أفريقيا والصومال.

خافت إنجلترا هذا التقدمَ فأغرقت إسماعيل بالديون وعزلته وجاء ابنه توفيق خادما لها، وسرعان ما استغلت انجلترا الثورة العرابية على استبداد الخديوي توفيق لاحتلال مصر. ولكنّ الاحتلال لم يؤثر على الحياة الثقافية بل ربما جلب المزيد من الازدهار، وصبغه بالإنجليزية أكثر من الفرنسية. ويكفى أنه ظهرت فى مصر أثناء الاحتلال الإنجليزى صناعة السينما في مطلع القرن العشرين رائدة في بلاد الشرق كلها.

المفكرون المصريون

وانعكست هذه التطورات على الثقافة المصرية في القرن العشرين. فارتقت الثقافة المصرية وتأسّست الليبرالية المصرية بقيام ثورة ١٩١٩، والاعتراف باستقلال مصر مع بعض تحفظات، ووضع دستور مصر الليبرالى عام ١٩٢٣، والذى أسقطه العسكر عام ١٩٥٣ ولم تحصل مصر على دستور مثله حتى الآن. فتحقق ظهور الصحافة وانتشارها مع الفرق المسرحية، وانتشر دور السينما أو "الخيالة" وتطورت وسائل المواصلات والاتصالات، وكثر السفر إلى الغرب وإرسال عشرات البعثات لأوربة، وتمت هجرة الرواد فى الثقافة والفن من الشام الى مصر بأسباب اقتصادية وسياسية.

وفي هذا العصر ظهر أدب في مختلف فنونه، وبرز مصطلح الأديب للدلالة على صاحب أسلوب جذّاب رائع في النثر، وقد يكون أيضا شاعرا وروائيا وقاصا. ظهر أدباء وكُتّاب صحفيون، بعضهم يعمل بالسياسة، منهم محمد المويلحي ومصطفى لطفي المنفلوطي وأحمد لطفي السيد وإبراهيم عبد القادر المازني ومصطفى صادق الرافعي ومحمد حسين هيكل وجورجي زيدان وزكي مبارك والشيخ علي عبد الرازق والشيخ مصطفى عبد الرازق وسلامة موسى وأمين الخولي ومحمد أبو زهرة ولويس عوض.

وبرز من بينهم، لأسباب خاصة، طه حسين وعباس محمود العقاد. جمع بينهما العناد والإصرار والقدرة على التصادم مع الواقع، العقاد تفوق وهو لا يحمل شهادة سوى الابتدائية، وطه حسين تفوق على عائلته وعلى "الأزهر". وتفرّد كل منهما بميزتهما.

وقد ساد المناخ الثقافي الليبرالي قبل وصول العسكر للحكم عام ١٩٥٢. وهؤلاء الأساتذة العظام من الأدباء كان لهم جيل من التلاميذ ظلوا منارة فى عهد جمال عبد الناصر وأدرك بعضهم عصر أنور السادات وحسني مبارك، منهم خالد محمد خالد وأحمد زكي ومحمد زكي عبد القادر ومحمد فهمي عبد اللطيف ومحمد التابعي ومصطفى أمين وعلي أمين ومحمد حسين هيكل وأنيس منصور ومحمود أمين العالم ويوسف إدريس ونجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس وعبد الرحمن الشرقاوي والصاوي ومحمود السعداني.

منشأ التفكير عند طه حسين وعباس محمود العقاد

وعند العقاد يصدق معنى المفكر أتم وضوح، والعقاد هو الذي تفرغ للقراءة والكتابة، قرأ في كل النواحي الثقافية، من دينية وتاريخية وأدبية وشعرية وسياسية، وأخرج عصير قراءاته كتبا ومقالات بالمئات في مجلات مختلفة، وهي مكتوبة بالعربية والإنجليزية التى يجيدهما، فعلى سبيل المثال كتب عن رب العزة جل وعلا كتابه 'الله'، وكتب بعض دراسات قرآنية رشيقة عن الإنسان في القرآن،

وعن تأثير العرب في الحضارة الأوربية، وكتب في تاريخ أشخاص كثيرين: الأنبياء: محمد، المسيح، إبراهيم. عليهم السلام. كتب في مشاهير الصحابة: أبوبكر وعمر وعثمان وعلي وخالد بن الوليد وبلال وعائشة ومعاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهم. وكتب فى مشاهير الشخصيات التراثية: عمر بن أبي ربيعة وجميل بثينة وابن الرومي وأبو العلاء المعري والحسين بن علي وأبو نواس وابن سينا، بل كتب عن "جحا". وفي الشخصيات العالمية والمعاصرة كتب عن غاندي وهتلر وعبد العزيز آل سعود وفرنسيس بيكون ومحمد عبده وبرنارد شو ومحمد علي وبنامين فرانكلين وشكسبير. ولم يعرف العقاد التخصص، بل كان يقرأ ما أتاح له القرائة عن كل شخصية، ويكتب عنها كتابة سطحية، تعطي للقارء العادي فكرة عنه.

فمثلا في كتابه عن الحسين ومصرعه رد العقاد الروايات الخرافية عن خوارق رأس الحسين بعد قطعها. قراءاته المتعددة بالعربية والإنجليزية أتاحت له مصادر سطحية من المعلومات فكتب بنفس السطحية، ولكنه أحسن فى عرض ما لديه، مثل التاجر الذى يشترى السلعة القديمة ويحسن عرضها بصورة جذابة لعوام المشترين، فتروج بضاعته، لكنه لم يقدم لهم جديدا يصدمهم، بل قدم لهم ما يناسب عقليتهم وبصورة أخّاذة، ثم إن بضاعته كانت متنوعة من الغرب إلى

الشرق ترضي كل الأذواق ومختلف الزبائن، ممّن يحب محمد ﷺ والصحابة إلى من يعشق هتلر ومن شكسبير إلى عبد العزيز آل سعود.

رجع العقاد إلى المصادر التاريخية الأصلية حينما يكون باحثا فى كتاباته التاريخية عن الصحابة مثل طبقات ابن سعد، وتاريخ الطبرى وتاريخ المسعودى، وتاريخ ابن الأثير، وكان ذلك مع دراسة متعمقة سابقة لمناهج المؤرخين، ونوعيات مادة التاريخية، ومعرفة بالمصطلحات التاريخية للعصر الذى يكتب فيه، ودراسة متعمقة لنواحي العصر، ثم المعرفة التامة بكيفية التعامل مع الروايات التاريخية المتعلقة بالموضوع الواحد، ما بينها من تعارض كلي أو جزئي، وما بينها من تداخل. ثم يكتب دون وجل أو خوف، دون تقديس لتلك الشخصيات لأنها شخصيات بشرية. وهو يقرأ ما كتبه الأدباء الآخرون فى موضوع الصحابة، ويسلّم بكل الروايات المشهورة المتداولة ويعتبرها كلها صحيحة، ويقوم بالبناء على هذا فيما كتبه في "العبقريات"، لذا لم يصطدم بالفكر السائد، ولم يعارضه، بل قام بتنسيقه وتقديمه فى صورة رائعة للناس، فحاز على إعجاب الناس، حتى لقّبوه "مفكرا".

ويبرز طه حسين ملكته في التفكير حينما يبين العوامل المؤثرة في التاريخ، منها الأثر الديني وأثر العصبة القبلية وأثر العوامل الاجتماعية والاقتصادية، وهذه العوامل صارت محركة في كتابة طه حسين، ويفسر طه حسين كثيرا من الظواهر

السلوكية عند المسلمين والوقائع التاريخية بتأثير العقيدة، وله مستوين هما إما يتعلق بالأفراد وإما يتعلق بالجماعات، ويرى أن الإيمان قادر على تبديل طريقة الفرد تبديلا جذريا "أن الإيمان خليق أن يحوّل الأشياء إلى أضدادها والنفوس إلى نقائضها"[١٦٦] وهذا هو الذي خلق الشخصيات الإسلامية مثل أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وخالد بن الوليد.

طه حسين كتب 'على هامش السيرة' ولم يأت بجديد في كتاباته عن محمد صلى الله عليه وسلم. وتعامل مع كل روايات السيرة بالتسليم والموافقة. لم يناقش الروايات التى كتبها ابن إسحاق في سيرته ثم نقلها عنه ابن هشام فى سيرته، ولم يتوقف مع التطورات في كتابة السيرة والتي كانت تتلى وتتم إضافتها عبر القرون فى تزييف صورة الرسول ﷺ، فكل مَن كَتب في سيرة الرسول ﷺ بعد ابن إسحاق وابن هشام أضافوا المزيد، وربما كان المزيد من الروايات المصنوعة.

لم يدخل العقاد وطه حسين في موضوع الأحاديث، ولكن الشيخ محمد عبده كان قد مهّد لهما الطريق، وكان العقاد وطه حسين من المعجبين بالشيخ محمد عبده وكانا يخاطبان عنه بالإمام. هذا، مع التداخل الشديد بين كتاباتهما الدينية والتاريخية وموضوعات تلك الأحاديث التى نقدها الشيخ محمد عبده. وتعامل كل منهما مع

[١٦٦] حسين،طه . *على هامش السيرة*. ج١. دار المعارف. ٢٠١٨. ص ٨٩.

الأحاديث بمنطق الإيمان والتسليم. كانت علاقة هؤلاء الثلاثة بالأزهر طيبة على ما يرام. ولم يأتوا بما يخالف الفكر المألوف للأزهر حتى أعلن الأزهر عليهم حربا شعواء، تلك الحرب التي طالت الإمام محمد عبده نفسه مع قيمته وقامته. طه حسين اصطدم بالأزهر بكتابه 'في الشعر الجاهلى' عام ١٩٢٦. وتصدى للهجوم عليه والتحقيق الذي جرى معه، فقام بتغيير اسم كتابه إلى 'في الأدب الجاهلى'، وعاش آمنا من سطوة المعارضين له.

ونشأ في عصر هذين الأديبين اتجاهان متعارضان، طائفة تأثروا بالغرب بدرجات متفاوتة، ومنهم مصطفى لطفي المنفلوطي، كان متأثرا بالثقافة الفرنسية غير أنه قليل العلم بها، وبمساعدة أصدقائه المترجمين نقل بأسلوبه الرائع بعض الأدب الفرنسى. وتأثر طه حسين، بالفكر الأوروبي الفرنسي والمنهج الديكارتي، واتضح هذا في كتاباته الأولى لا سيما عن الشعر الجاهلي وكذلك في فكرته عن انحياز مصر إلى ثقافة البحر المتوسط. والعقاد أيضا من الذين أتقنوا الإنجليزية والفرنسية.

وطائفة من المحافظين، ومن جملتهم مصطفى صادق الرافعي، ساعد على سطوة هؤلاء. وإن مدرسة الشيخ محمد عبده في الإصلاح الديني أوقفها تلميذه رشيد رضا الذي صار عميلا لعبد العزيز آل سعود، وقد قام ومعه محب الدين الخطيب

بنشر الوهابية تحت مسمى السنة والسلف. ورشيد رضا هو مهندس تأسيس الجمعيات السلفية الوهابية في الشبان المسلمين.

فالتأمل في عصر العقاد وطه حسين يتضح أن إطلاق صفة المفكر من وجهة نظرية لا بأس به على إطلاقها على طه حسين والعقاد، وبعض الباحثين يضيفون أحمد أمين أيضا إلى تلك الزمرة.

الفصل الثاني
حياة طه حسين وجدل الفكر العربي

طه حسين كاتب من الطراز الأول في العصر الحديث، جمع في أسلوبه بين موضوعية العلم وذاتية الفن، يمتاز بتنويع العبارة وتصنيف الصور والأفكار، مما يطرد الضجر والملل عن القارئ، برز نشاطه الأدبي منذ أن تولى تحرير الصحف الأدبية بجريدة "السياسة" الأسبوعية فكان ينشر مقالات ممتعة عن الشعر كل يوم الأربعاء، ويلخص القصص من الأدب الغربي كل يوم أحد، ويجري حولها مناقشة أدبية، وكان محصول ذلك بحوثا مبتكرة في طبيعة الأدب العربي، فثارت ثائرة أعلام الكتاب العربي عليه، فصارت مبدأ الصراع بين زعماء القديم يقودها مصطفى صادق الرافعي، وأنصار الجديد يترأسه طه حسين نفسه، حتى كان مبعث الأدب العربي من جديد.

الولادة والنشأة

ولد طه حسين سنة ١٨٨٩م، في قرية من صعيد مصر قرب مدينة "مغاغة" الواقعة على الجانب الأيسر لنهر النيل، وأبوه حسين بن علي بن سلامة كان موظفا متواضعا في شركة زراعية من شركات السكر، وفي الثالث من عمره فقد

طه حسين بصره، وأبدله الله عن بصره ذكاء حادا وذاكرة قوية، حفظ القرآن الكريم بكُتاب من كَتاتيب قريته، وبعد ذلك حفظ "مجموع المتون" وقرأ بعض الكتب والأشعار من الأدب العربي القديم، حيث اكتسب التأهلات للالتحاق بالأزهر الشريف، والتحق به سنة ١٩٠٢م، وانقطع لدراسة العلوم الدينية واللغوية، وحضر في فترة تعليمه الأولى في الأزهر درسين من دروس الإمام محمد عبده، وأعجب بطريقته وأسلوبه، "ولاحظ أن الذين بكوه عند وفاته بإخلاص لم يكونوا من ذوي العمائم، وإنما كانوا من أصحاب الطرابيش، وأضاف أنه وجد بنفسه ميلا خفيا إلى أن يقترب من هؤلاء وأن يتصل ببيئاتهم بعض الاتصال"[١٦٧]، وكان أصحاب الطرابيش من أصحاب الإمام محمد عبده ومن تلاميذه، وقد برز منهم جماعة المثقفين ثقافة أوربية حديثة. وكان الشيخ السيد علي المرصفي أستاذه المفضل وقد أعجب به طه حسين أيما إعجاب، ويقرأ المرصفي على الطلاب "الكامل " للمبرد و"الآمالي" لأبي علي القالي، وحماسة أبي تمام، وفي هذه الأيام كان الأستاذ أحمد حسن الزيات، والشيخ محمود زناتي، من زملاء طه حسين في الأزهر، وجعل الشيخ المرصفي الأدب موضوعا مفضلا لدى الطلاب، فصاروا من عشاق الأدب إلى أقصاه، غير أن طه حسين أساء الاحترام إلى أساتذته الباقين،

[١٦٧] الشلق،أحمد زكريا. *طه حسين جدل الفكر والسياسة*. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة. ٢٠٠٨. ص ١٣.

حتى انتهى الأمر إلى فصله من الأزهر، ولا يزال طه حسين حيا بين أوساط القراء الأدب العربي بما كتب وبما نشر من الأفكار والآراء، وقد بات آثاره الأدبية جزءا أصيلا من ثقافة مصر.

طه حسين والكتابة

وأعمال طه حسين متوزعة بين الفكرية، والنقدية، والإثرائية، وله أيضا كتب مترجمة. وهذه الكتب متعة أدبية ولذة فكرية للقراء ولا يزال طالب الأدب العربي يقرأ كتب طه حسين بنهم استملاحا بها، ويجد فيها طريقة تذوق الأدب العربي الحديث.

كتب طه حسين الفكرية

وجه طه حسين اهتمامه حينما يكتب الحقائق التاريخية إلى زاوية فكرية، حيث إنه عرض تلك الحقائق مشفوعا بأفكاره الخاصة، ومن الكتب التي تعد من هذا القبيل،'على هامش السيرة'، و'الشيخان' و'الفتنة الكبرى عثمان' و'الفتنة الكبرى علي وبنوه' و'مستقبل الثقافة في مصر' و'مرآة الإسلام' و'فلسفة ابن خلدون الاجتماعية' و'نظام الاثنيين' 'و'آثار مصطفى عبد الرزاق' و'حديث المساء' و'غرابيل'.

كتب طه حسين في النقد

طه حسين من الذين أوتوا النقد الفطري في كل ما يعالج من المواضيع، سيان عنده فيه النصوص الأدبية والظاهرة الاجتماعية والسياية، ومن هذا كتبه 'في الشعر الجاهلي' و'في الأدب الجاهلي' و'الحياة الأدبية في جزيرة العرب' و'فصول في الأدب والنقد' و'حديث الأربعاء' 'وحافظ وشوقي' و'صوت أبي العلاء' و'مع أبي العلاء في سجنه' و'تجديد ذكرى أبي العلاء' و'مع المتنبي' و'من حديث الشعر والنثر' و'من أدبنا المعاصر' و'ألوان' و'خصام ونقد' 'من لغو الصيف' و'من الشاطئ الآخر' 'أدبنا الحديث وماله وما عليه' و'صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان' و'الحياة والحركة الفكرية في بريطانيا' و'قادة الفكر'.

كتب طه حسين الإثرائية

الكتب الإثرائية هي التي كتبها طه حسين في صورة القصة والرواية المحضة، ومنها كتبه 'المعذبون في الأرض' و'الأيام' و'أحلام شهرزاد' و'أديب' و'رحلة الربيع' و'أيام العمر' (رسائل خاصة بين طه حسين وتوفيق الحكيم) و'دعاء الكروان' و'شجرة البؤس و'الحب الضائع' و'الوعد الحق' و'في الصيف' و'بين بين' و'أحاديث' و'جنة الحيوان' و'ماوراء النهر' و'مدرسة الأزواج' و'مرآة الضمير الحديث' و'جنة الشوك' و'لحظات نقد وإصلاح' و'من بعيد'.

ومن أدب التمثيل الغربي كتب صوت باريس (قصص مترجمة)، ومن هناك قصص مترجمة، وأوديب وثيسوس: من أبطال الأساطير اليونانية.

على هامش مسير الحياة

وقد عمّر طه حسين ٨٤ عاما. شهد العقد التاسع من القرن التاسع عشر الميلادي لولادة عدد كبير من أعلام الفكر الأدبي في العالم العربي، وأثاروا ضجة في الحياة الفكرية بنتاجهم المتميزة، ومن أولائك أحمد أمين، وعباس محمود العقاد، وإبراهيم عبد القادر المازني، وأحمد حسن الزيات، ومحمد حسين هيكل، وتوفيق الحكيم. وصادف أن تكون ولادة الثلاثة، العقاد وطه حسين، وإبراهيم عبد القادر المازني، في عام واحد، وذلك عام ١٨٨٩م، وطه حسين كان أطولهم عمرا، والعقاد كان عمره ٧٥ سنة. وكلاهما مارسا مهنة التدريس، وقد تعرض طه حسين لعقبات من فقدان البصر، والفقر والجهل، وذهب إلى جامعة الأزهر فالجامعة المصرية. ثم ذهب إلى الجامعة الفرنسية، وعاد أستاذا وعميدا للجامعة المصرية، وقضى طه حسين معظم عمره أستاذا في كلية الآداب، وبلغ في السلك الجامعي قمته، وصار أستاذ الجامعة، وعين وزير التربية والتعليم إذ ذاك "وزارة المعارف". وكانت الجامعة المصرية وقتا طويلا كلية الآداب وحدها، وباقي الكليات والمدارس كانت تتبع الوزارة التي تنتسب إليها، فمدرسة المعلمين ودار العلوم كانت تحت وزارة المعارف، ومدرسة الحقوق كانت تحت رعاية وزارة

العدل، كما أن مدرسة الطب اتبعت وزارة الصحة، واتبعت مدرسة الهندسة وزارة الأشغال، والأساتذة والطلاب نالوا الشرف بانتسابهم إلى الجامعة، وكانوا يعتدون لهذا الانتساب، وكانت الجامعة علامة جديدة لنهضة العلم في مصر، فأحب طه حسين وزملاؤه أن ينتسبوا إلى الجامعة، أو بصيغة "جامعيون" كان يكره أن ينتسب إلى الأزهر ولا سيما بعد أن سقط في آخر الإمتحان. وكان مع ذلك يكره أسلوب الأزهر وطريقة الأساتذة في إلقاء الدرس، والذي أشاد به طه حسين من أساتذة الأزهر واستأثر به دون زملائه بهذه الإشادة الشيخ سيد على المرصفي، وكان يقرأ لتلاميذه من طلاب الأزهر كتاب: 'الكامل' لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، وأنه فسر غامضه في نشرة لهذا الكتاب سماها "بغية الأمل" وأيضا كان يقرأ لهم كتاب ديوان الحماسة لأبي تمام، والأستاذ الذي يمدحه طه حسين من أساتذته هو سيد بن على المرصفي، وفي الحقيقة ليس للمرصفي نبوغ أو عبقرية تفوق على أقرانه من شيوخ الأزهر، وطه حسين أظهر الميل الشديد إلى النقد، وانصرف عن الصرف والنحو مما كان ألف الأزهريون في دروسهم، وهذا الجانب في الشيخ المرصفي جعله محبوبا إلى طه حسين، وكان الشيخ المرصفي في درجة كبيرة في العلوم اللغوية، وأن سهمه من علوم النحو والصرف وفي علوم البلاغة كان أكثر. فعناية الشيخ باللغة وغريبها هي التي قربه طه إلى قلبه، وليس ثمة سبب آخر يبرر هذه الزلفى والإيثار به دون أساتذته. ولعل هناك سر آخر وهو

كره الأستاذ والطالب على طريقة الأساتذة في التدريس، ولاسيما علم الصرف والنحو. ومما لا شك فيه أن الشيخ المرصفي قد أثّر في نفس طه حسين أيما تأثير، حتى إن وجهة سلوك طه حسين فيها مس من الشييخ المرصفي، وهو الذي شجعه على الاستهانة بالأزهر وعلومه، بل حرّضه على العتاب على أساتذته وشيوخه. لم يبرز في طه حسين في هذه الفترة من الخصائص التي تدل على براعته وتفوقه في المجال العلمي، حتى في الأدب الذي درسه عند الشيخ المرصفي ولم يجد منه ما يشجعه على مواصلة الدراسة فيه، ومع ذلك أنه قد اعتاد الاختلاف أثناء دراسته إلى دور الصحف وحاول الاتصال بمحرريها، رغبة منه أن يكون كاتبا صحفيا ينقد الرجال والأعمال، والنزعة في النقد والخصومة كانت موجودة عند طه حسين منذ نعومة أظفاره، وساعده على ذلك حياته في القرية وظروفها التي عاش فيها، وتجربته في الأزهر وأساليب الجدل والمعارضة في العلوم زادتها تمكنا ورسوخا.

تجربة علمية

وخلال دراسته في الأزهر ذاق طه حسين طعم الرسوب، ولعل سبب ذلك تلك الظروف والملابسات والقلق التى كان يحياها، وهو مع ذلك عرف بالتمرد على الأزهر والأزهريين والسخرية الشديدة بشيوخه منهم. ويبين طه حسين في 'الأيام' بأن رسوبه في امتحان شهادة "العالمية" إنما كان انتقاما رد به أعضاء لجنة

الامتحان على التمرد عليهم، والسخرية منهم، ولبغضه لإدارتهم العتيقة وحصنهم الحصين. ولعل ذلك سببا من جملة الأسباب، وأنه ليس من السهل على أولئك العلماء أن يجيزوا هذا الطالب العاق لمعهده ولأستاذه وأن يعطوه الدرجة الكبري العلمية، ولعل سائل يسأل، وكيف استطاع طه حسين أن يصل إلى المستوى المطلوب الذي يجيز له التقدم على امتحان هذه الشهادة مع قصر المدة التي قضاها في الأزهر بعد رحيله من قريته إلى القاهرة؟.

والحقيقة أن ذلك لم يكن لنبوغ مبكر برزت معالمه في طه حسين، أو تفوق مذكور لفت إليه أنظار علماء الأزهر، وطه حسين نفسه أدرك بقدرته الذاتية على التقدم لذلك الامتحان، وطه حسين أوتي الفطنة والوعي مبكرا وقد عوضه الله عن بصره كثيرا من المواهب التي شق بها سبيله إلى الحياة، وقوة ذاكرته، وقدرته على الحفظ والاستظهار لايستهان به أحد أبدا، وقوة الإدراك باللمس وبغيره مما بقي من الحواس ظاهرة معروفة عند الذين فقدوا أبصارهم، وليس هذه المواهب هي التي أسرعت بطه حسين إلى امتحان الشهادة العالمية، وإنما كان السبب في هذه السرعة هو أن نظام هذه الشهادة لم يكن يوحد بين المتقدمين إليها، ولا من المواد التي يدرسونها، ولا عدد السنين التي يجب أن يقضوها في الأزهر. وهكذا

كسب طه حسين بحظ كبير من عناية الله، فنال في حياته الدنيا المنزلة والجاه، وظفر بما كان يرجو في الحياة بل أكثر مما كان برجو ويتمنى.

الأفكار السياسية عند طه حسين

تكونت في مصر في بداية القرن العشرين أحزاب سياسية متعددة، مثل "الحزب الوطني"، الذي أنشأه مصطفى كامل بالتفاهم مع عباس الثاني للوقوف في وجه اللورد كرومر وأصحاب هذا الحزب نادوا بجلاء المحتلين الإنجليز، و"حزب الأمة" الذي أسسه كبار الإقطاعيين بإشارة من اللورد كرومر، و"حزب الوطني الحر" الذي دعا صراحة إلى التعاون مع الإنجليز و"الوفد" الذي أسسه سعد زغلول، وأنشأ عدلي يكن "حزب الأحرار الدستوريين" من بقايا حزب الأمة.

ومنذ اتصل طه حسين بحزب الوفد بعد ما انفصل عن الأحرار الدستوريين حدث في حياة طه حسين تغير شامل. وقد انضم إلى حزب الوفد جمع كبير من الطلاب في الجامعة، فطبيعي أن يكون الطلاب من الجمهور الذين ثاروا وأضربوا من أجل استقلال الجامعة، وحملوا طه حسين على أعناقهم وهتفوا له، أن يكونوا من الوفديين، كما يلاحظ أن صحيفة الوفد المعروفة "كوكب الشرق" التي يرأس تحريرها حافظ عوض ما زالت تلاطف طه حسين بعد فصله من عمله، وقد أصاب شهرة طه حسين اضمحلال، وفقد شرفه في نظر الناس بعد ما نشر كتابه في 'الشعر الجاهلي' و'حديث الأربعاء' فقد كشفت التقارير وراء هذه

الكتابات من سوء النية الخبيثة، تهدف إلى أقصى الغاية معارضة الإسلام، أو حربا له وبذلك سقط طه حسين سقوطا تاما، وأن الذين من ورائه كانوا يرونه إماما مسلما يتصدر باسم الإسلام ويشكك من داخل الإسلام، حتى يمكن أن يقال من بعد، أن آرائه هي آراء أزهري مسلم، وبذلك تصبح أداة قوية لتبرير تفكيك قيم الإسلام، وكان أسلوب الحرب من الداخل هو الذي فرض نفسه في هذه المرحلة حيث بدأ يكتب عن الرسول ﷺ، في مجلة الرسالة تحت عنوان "على هامش السيرة" وأذيع وراء ذلك دعاوى كثيرة عن الرجل الذي عاد إلى الإسلام.

وجاء بعد ذلك من اتخذ كتاباته عن الإسلام، وكأنها رأي عالم إسلامي متخرج من الأزهر لتكون حجة على المسلمين والإسلام، وهذه هي النقطة الخطيرة الحقيقية في عمل طه حسين في هذه الفترة، فكيف يمكن توجيه الاتهام إلى مؤلف هامش السيرة، في ضوء هذه المظلة المزدوجة، حزب الوفد من جانب وكتاب 'على هامش السيرة' في جانب آخر، وكان هو أشد جرأة في تحقيق أهداف عن طريق التعليم ومناهج الجامعة من ناحية .

وزير التعليم

في يناير من ١٩٥٠ تحقق طه حسين أمله الكبير في الحياة الذي كان يحلمه منذ أن عرف الحياة السياسية، فأصبح وزيرا من وزراء الوفد، وزيرا للمعارف. وقد سارع طه حسين بإذاعة تصريحه عن أن التعليم كالماء والهواء، حتى أطلق عليه وزير الماء والهواء، ولم يكن ذلك من صنع طه حسين ولكنه كان عملا سياسيا لحكومة الوفد التي كانت تريد أن تقوي مركزها في نظر الجماهير، على أن هذا لم يكن من ابتكار طه حسين شخصيا وهو نفسه يسجل ذلك في المحاورة التي دارت بينه وبين إسماعيل القباني عام ١٩٣٩م، ونشرتها "السياسة" الأسبوعية، في عدد ٢٢ من إبريل قوله " التعليم العام ليس كالتعليم الأولى لايستغنى عنه فرد، فالتعليم العام فرض كفاية لا فرض عين وإذ كان يكلف الدولة نفقات طائلة فليس من الحق أن نطالبها بتعميمه. ونحن نعترف أن للدولة الحق في فرض أجور الانتفاع بالتعليم العام بشرط أن تحمى الفقراء الأذكياء من عدم الانتفاع به ولو كفلها ذلك أن ترهق المقتدرين بأجر التعليم. الثانى أن التعليم العام مهما يكن حقا للناس جميعا فإن على الدولة أن لا تبيحه للناس جميعا بل تمنعه عن الذين تأبى ملكاتهم إساغة هذا النوع من العلم، والواجب على الدولة أن تبيح التعليم لكل قادر عليه وأن تلاحظه في أثناء الدراسة أمستعد هو للانتفاع

بالتعليم. وقال : حين أعود إلى اطلاق التعليم العام أقيد هذه الحرية بقيدين، مقدرة الدولة على أجور التعليم وتحققها من انتفاع الطلبة به"[١٦٨].

وهذا التصريح يبين بأن الذي دعى إليه طه حسين إنما هو فتح أبواب التعليم "الأولى" فقط، على مصراعيه، أما التعليم العام فله دون ذلك محاذير، وقد خسر سياسة الماء والهواء التي بدأ بها عهده في وزارة المعارف فإنه لما سئل كيف سيكون التعليم متوفرا على هذا النحو كان جواب طه حسين هكذا: إن وزير المال يمد بالمال ووزير الأشغال يسعف لبناء المعاهد، ومع ذلك أسند طه حسين الأعمال في وزارة المعارف إلى بعض الموظفين غير الفنيين، فأهمل التوسع في إنشاء معاهد المعلمين، ونقل المدرسي الإبتدائي إلى الثانوي ومعلمي الأولى إلى الإبتدائي، وعين في التعليم الأولى مدرسين الذين لم يجيدوا كفاءة التعليم الأولى, وهكذا فشل طه حسين أو لم يستطع أن يظهر كفائته في وزارة المعارف.

المستشرق هاملتون جب أمضى بحثا مطولا عن التعليم في الشرق الأوسط في مؤتمر شئون الشرق الأوسط في لندن، وقال فيه عن مشكلة التعليم في مصر واتجاهات طه حسين، وقد وصفه بأنه ضايقه الخاص ووصف طريقته التعليمية

[١٦٨] الحندي،أنور. *طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام*. ط٢. دار النصر للطباعة الإسلامية. ١٩٨٨. ص ١٠٠.

بأنها لا تقوم على أسس علمية صحيحة ولا تصلح أن تكون أقرب إلى فهم الجماهير[١٦٩].

الصحفي السياسي

أصبحت الصحف في العصر الحديث ممتزجا بين الأدب والسياسة، وكان أدباء مصر في هذا العصر دائمي الاتصال بالصحيفة، بل بعض منهم بدأوا حياتهم الأدبية بطريق الصحيفة، وكان طه حسين في اتصال وثيق بالصحف والأحزاب السياسية طول حياته، إنه عمل مع الحزب الدستوريين أولا ثم مع الحزب الاتحاد وأخيرا انضم إلى حزب الوفد.

وقد نضج تيار الحركة الوطنية الجديدة في أوائل القرن العشرين وتعرض لأحوال تاريخية أدت إلى ظهور اتجاهين رئيسيين فيه، أولهما اتجاه مصطفى كامل ومحمد فريد، وعبد العزيز جاوييش وغيرهم من الذين أسسوا الحزب الوطني المصري، وثانيهما اتجاه جماعة الإمام محمد عبده وتلاميذه، وكان أحمد لطفي السيد ينطق باسمهم، وألفوا اسم الأمة. فلا بد لكل من المثقفين والكتاب المهتمين بأمور الوطن أن يتحسسوا من هذه الحركة السياسية والوطنية والحزبية. وكان هذا الجيل متوزعين بين اتجاه الحركة الوطنية وحزبها؛ الوطني والأمة. وتوزع طه حسين بأفكاره وعواطفه بين الحزبين، فطفق هذان الحزبان

[١٦٩] نفس المرجع. ص ١٠١.

يتجاذبانه للكتابة في صحفيهما، والأحزاب المصرية في هذه المرحلة كانت تنشر صحفا تلعب دورا ثقافيا ووطنيا هاما، حتى تشكلت هناك اندماج واضح بين السياسة والثقافة، ومثلت الصحف والسياسة أوعية حافظة لإنضاج المثقفين والكتاب، تنشر مقالاتهم، وتشجعهم وتفرد لهم صفحاتها لمعاركهم، بدون تمييز بين انتمائهم السياسية، فسمت الثقافة فوق الروح الحزبية الضيقة.

وقد اكتسب طه حسين التقرب إلى الأحزاب وقاية لآرائه، قد ظنّ أن اتصاله بالأحزاب والسياسة يكون التجاء إلى مؤسسة تدفع عنه الخطر. وقد دفع عنه حزب الأحرار الدستوريين خطر كتابه 'في الشعر الجاهلي' ودفع عنه الوفد مخاطر أرائه كلها بعد ذلك. ويقول طه حسين " وكذلك غرق صاحبنا في السياسة إلى أذنيه، وكان جديرا أن يفرغ للعلم والتعليم، وألا يفكر إلا في طلابه، وكتبه، ولكن بعض الظروف تحيط بالشعوب فتجعل الحيدة في ذلك الوقت جبنا ونفاقا. المهم أنه غرق في السياسة أو احترق بنارها... وعلى كثرة ما لقي من أهوال السياسة... ولم ينكر من سيرته شيئا، ولم يندم على فعله أو قوله قاله..."[١٧٠] ومن باب كاتب المقالة سلك طه حسين مسلك السياسة، خلال أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين، وكانت مبادرته في السياسة بكتابة المقالة السياسية في الصحف الحزبية، وهذه المقالات خير دليل لدراسة الجانب

[١٧٠] حسين،طه .*الأيام*. ط١. ج١. دار المعارف. ٢٠٠٨. ص ١٢٨.

السياسي عند طه حسين، وللدكتور عبد الغني كتاب يتعرض فيه الجانب السياسي لطه حسين وسمى الكتاب 'طه حسين والسياسة' وقد نشرته دار المستقبل العربي بالقاهرة سنة ١٩٨٦م.

وقد شارك طه حسين بمقالاته السياسية في هذه الفترة بجد ونشاط، وأثرى ذلك النضال؛ النضال السياسي الاجتماعي في مصر من أجل الحصول على الحرية والاستقلال، " وقد شمر عن ساعديه وشرع يخوض بقلمه معركة الوطن حين أنشأ يكتب المقالات السياسية الطوال، واليومية تقريبا، وفي افتتاحية الصحف التي نشر بها، وهي صحف الأحرار الدستوريين، ثم الوفد، والتي نشرها بشكل مكثف وفريد لم يعهده قرائه، بعد أن غرق في السياسة حتى أذنيه، فكان يعمل في صحيفة " كوكب الشرق" كما يعمل محكوم عليه بالأشغال الشاقة"[١٧١].

وفي الوقت الذي تشكل وعي طه حسين العام مع بداية العشرينات من القرن العشرين، وأخذ ينشر أشعاره ومقالاته في الصحف المصرية منذ عام ١٩٠٨، وقد اقترب من العشرين من عمره، وكانت مصر تدخل إلى طور جديد من حركاتها الوطنية، وبدأ ظهور الصالونات الأدبية والمنتديات الثقافية فيها، وظهرت الصحف الوطنية الجديدة، تعبر عن آراء الجيل الجديد. ولما نضج تيار الحركة الوطنية الجديدة في الفترة التي نضج فيها وعي طه حسين إلى الظروف السياسية،

[١٧١] سوزان، طه حسين. *معك*.ط٢.القاهرة:دار المعارف. ١٩٨٢ . ص ١٠٩.

وقد شهدت الظروف السياسية وقتئذ لاتجاهين مهمين، اتجاه بزعامة مصطفى كامل وانضم أصحابه إلى حزب الوطن العربي، واتجاه بزعامة الإمام محمد عبده، حيث انضم أتباعه إلى حزب الأمة، ولم يتخذ طه حسين موقفا حاسما من هذين الحزبين، بل اكتفى شغفه على الجامعة المصرية، واختلف إلى دروسه بحرص شديد، وبسبب اعتبار طه حسين رجلا من رجال الأدب والفكر قبل أن يكون رجلا من رجال السياسة والأحزاب فمن الطبيعي أن يتحول بين صحف الحزبين الكبيرين، لنشر أشعاره ومقالاته.

وقد وصف طه حسين في "الأيام" كيف لقي لطفي السيد في صحيفة "الجريدة" الناطقة بلسان حزب الأمة، وغير مرة كل أسبوع أنه كان يلقى عنده قوما كثيرين من شيوخ المطربشين وشبابهم. والأحاديث التي تجري بينهم فتح له أبوابا من العلم والمعرفة لم تكن تخطر بباله، واتصل بالشيخ جاويش، أحد قادة الحزب الوطني وكبار كتّابه، وأنه كان يذهب إليه كثيرا ويستمع له في الوقت الذي يمضي قلمه في الكتابة، وصار موزعا بين مذهبين من مذاهب الكتابة في ذلك الوقت، أحدهما مذهب الاعتدال والقصد، والذي يدعو إليه لطفي السيد، وهو أسلوب حزب الأمة، والمذهب الآخر مذهب الغلو والإسراف، وكان شيخ جاويش داعيا إليه ومن مشجعيه، وهو الأسلوب الذي اختاره الحزب الوطني أسلوبا له " وكان

الفتى يستجيب للمذهبين جميعا، فإذا اقتصد في النقد نشر في الجريدة، وإذا غلا نشر في صحف الحزب الوطني."[١٧٢]

يقول الأستاذ رجاء النقاش"أن طه حسين أديب مفكر، بالدرجة الأولى، وأنه عندما دخل ميدان السياسة لم ينس أبدا أنه دخل هذا الميدان الصاخب العنيف كأديب مفكر، ولم يدخله كسياسي محترف. فإن القوى السياسيةالتي ارتبط بها طه حسين لم تستطع أن تحوله إلى سياسي حزبي بلا المعنى المقصود، وإنما هو الذي استطاع أن يفيد منها لخدمة أفكاره وقضاياه وتحقيق طموحاته".[١٧٣]

ويظهر مما سبق أن طه حسين لم يتقيد بأي حزب، وأكبر شاغل شغله وهو نشر كتابته، فطلب الوسيلة للحصول على ذلك، وأن صحف الأحزاب فتحت أبوابها أمامه، وولج فيها بدون أي تمييز ولا تردد، وكانت كتاباته أدبية ولم تكن تتصل بأي حال من الأحوال بالمواقف السياسية لهذا الحزب أو ذاك. وما كان ينتمي اجتماعيا أوسياسيا لحزب الأمة، وما كان ينتمي فكريا أو سياسيا لحزب الوطني، واتصاله بهذا الحزب وذاك في بداية الأمر كانت على ذلك الأساس.

---

[١٧٢] حسين،طه. *الأيام*.ج٣. ص ١١.

[١٧٣] النقاش، رجاء. *أدباء معاصرون. الجمهورية العراقية*: وزارة الإعلام. مديرية الثقافة العامة. ١٩٧٢.ص٢٦و٢٧.

في ظلال السياسة

اقترب طه حسين برهة من الزمان من شبابه بالحزب الوطني، (١٩٠٩ - ١٩١٢)، متأثرا بجاويش، وطالبا الفرص لنشر مقالاته، وإنه بطبيعة اطلاعاته الفكرية كان مائلا إلى حزب الأمة، على وجه العموم، وامتدادا من الحزب السياسي رأى في حزب الأمة جماعة من الكتابين المثقفين آنذاك، وكانوا واسعي الآفاق لإقناعه في توجيهاته وأفكاره، والذي جذبه من حزب إلى آخر في طور من حياته هو مناخه الفكري لا الحزب ولا السياسة، فقد كان هذا المناخ المبعثر بالأفكار التحريرية يسعى لتجديد الفكر السياسي، والاجتماعي، وهو الجانب المفضل لدي الكاتب الشاب الناشئ، ومن هنا كثر تعلقه بحزب الأمة ولاسيما بعد سنة ١٩١٢، وقد أصبح صاحب قلم ناضج وفكر.

السياسي الصريح

واختار طه حسين موضوع رسالته في فرنسا بعد ما سافر إليه سنة١٩١٤ "فلسفة ابن خلدون الاجتماعية" في جامعة سربون سنة ١٩١٨، وله تعلق بالسياسة في بعض جوانبه، "ويبدو هذا واضحا عندما عكف على تحليل الظواهر الاجتماعية، وعرض أفكار ابن خلدون ومذهبه السياسي والاجتماعي، فمثلا ناقشه طه حسين فيما ذهب إليه من أن العرب ليسوا أهلا لتأسيس

الدولة إلا من طريق أثر ديني قوي، وأنهم يجهلون سياسة الملك. . إلخ، وقد فنّد طه حسين هذه الآراء في صلب رسالته، ودحضها بشكل علمي يلفت النظر إلى ثقافته وقدرته على النقد"[١٧٤]

وكان منتميا إلى حزب الأمة قبل أن يسافر إلى فرنسا، ومع ذلك كان يتأرجح بينه وبين الحزب الوطني، وبعد رجوع سعد باشا من أوربا بدأت في مصر حركة استقلال عنيفة، ووقع اختلاف بينه وبين عدلي الباشا، وأوجد حزبا جديدا عرف بحزب العدلي، وأن الحزب الأول يسمى بحزب سعد، وقد جرت على ألسن الناس كلمة السعديون والعدليون، فحزب عدلي كان إذن في بادئ تكوينه وكان يلزمه الأعضاء والأتباع كما كان يلزمه اللجان والفروع والجريدة، وكان مركز الحزب والجريدة بشارع المبتديان، وقبل طه حسين الخطاب لتحرير موضوع جريدة السياسة، وكان الأستاذ محمد حسين هيكل رئيس تحرير الجريدة، وكان للحزب مبادئ معينة لا بد من التعبير عنها والدفاع عنها، وكان يجتمع الأستاذ محمد حسين هيكل مع الدكتور طه حسين للاتفاق على الموضوع الذي يكتب فيه طه حسين، وكان عامل الاتصال يتلقى الوحي من زعماء الحزب الجديد، ثم يلقي هذا الوحي في صدر كل من المحررين العظيمين، والمواضيع التي تتطلب مرونة ونعومة وهدوء

[١٧٤] الشلق،أحمد زكريا. *طه حسين جدل الفكر والسياسة*.ص ١٧.

كانت من حصة هيكل، وهذا ما يلائم مزاجه ويتفق مع قلمه، والموضوع الذي يلازم الشدة والعنف والتهكم فكان من مسئولية طه حسين. وأكثر مقالات طه حسين كانت توجه إلى سعد باشا فكانت مقالة مكتوبة من نار عنوانها يكفي الدلالة على الشدة والعنف ومنها " الطاغية"، "دجالون"، "الأقطاب وأنصاف الأقطاب". وبرز أثناء ذلك أفكاره السياسية والاجتماعية. وحاول أن يعبر عن آماله وعن آمال وطنه في الاستقلال والحرية، والمطالبة بالدستور والحكم النيابي.

ثم ترك جريدة السياسة وحزب الأحرار إلى جريدة حزب الاتحاد، وهو الحزب الذي أنشأه ملك فؤاد، وكان اتصال طه حسين بحزب الاتحاد قليل العمر، وعاد إلى الأحرار الدستوريين، فأقام معهم ما شاء الله أن يقيم، ثم تركهم بعد ذلك إلى الوفد، الذي يتزعمه سعد زعلول باشا، وفي بداية الأمر كان بغضه لسعد زغلول ظاهر ظهور الصباح، يتحدث به الناس، ولما ألقى سعد في نفس طه حسين فكرة السفر إلى أوربة زال ما فيه من الكره نحو سعد، فطه حسين مدين لسعد قبل سفره إلى باريس دينا ماديا، وقد أشار إلى ذلك في مذكراته وأنه ذهب إليه ليسد دينه، وعندما وصل سعد زعلول وزملاؤه إلى باريس سنة ١٩١٩، لبيان قضية مصر في مؤتمر الصلح فذهب إليه طه حسين فلقي سعدا كما لقي لطفي السيد وعبد العزيز فهمي، واغتنم طه حسين هذه الفرصة لشكر سعد لموقفه القديم

الذي وقف سعد مع طه حسين في الجمعية التشريعية سنة ١٩١٤، وذلك أن أحد الأعضاء طلب منع المعونة للجامعة لأنها أخرجت ملحدا صاحب "ذكرى أبى العلاء " ولكن سعد تدخل في القضيية واستطاع أن يسحب هذا الاقتراح، ولم يمس سوءا لطه حسين، وحينما لقي طه حسين سعدا في بارس مرة أخرى خلال زيارته الثانية بعد عام تقريبا، أظهر سعد نحو طه حسين شيئا من الفتور، وطه حسين نفسه يعلم سبب هذا الفتور،" وهو أن جماعة من تلاميذ الإمام محمد عبده أحيوا ذكرى وفاته في الجامعة، وعندما خطب طه في الحفل زعم أن مصر مدينة في يقظتها لثلاثة رجال هم محمد عبده، الذي أحيا الحرية العقلية، ومصطفى كامل الذي أذكى جذوة الحرية السياسية، وقاسم أمين الذي أحيا الحرية الاجتماعية"[١٧٥] ولما علم سعد زغلول هذا الكلام غضب على طه، فقد هاجم على سعد تلك الهجوم العنيف، وكان طه حسين " أطول الكتاب لسانا وأجراهم قلما في مهاجمة سعد زغلول قبل أن يلي الحكم وبعد أن وليه"[١٧٦].

و عاد طه حسين وأصبح من أنصار الوفد، وهو ينشر مقالته المشهورة عن سعد زعلول بعنوان "عظيم" بعد أن نشر أكثر من أربعين مقالة في ذم هذا الرجل تحت عناوين مختلفة. ولم يلبث طه حسين في عهده الوفدي أن كشف عن

[١٧٥] نفس المرجع. ص ١٨.

[١٧٦] حسين،طه .*الأيام*. ج٣. ص ١٤٧.

أهوائه وأهدافه فكان موقفه المؤسف من مقاومة حركة التبشير التي قامت بها الإرساليات التعليمية الأجنبية في مصر وتوجهت همة الصحف وجريدة السياسة في مقدمتها إلى الحملة المتوالية على هذا الاتجاه الخطير أمام طه حسين فقد صمت صمتا تاما، بل اتخذ من الأحزاب مظلة واقية لإذاعة آرائه وأفكاره.

طه حسين والفكر العربي

الفكرة ظاهرة إنسانية، وهي أهم عناصر الأدب، وتوهج الفكر عند أديب مثل طه حسين أمر طبيعي، ولكن مسير حياة طه كلها كان حافلا بمعركة فكرية، كأنما يتراوح بين الأفكار من حين إلى آخر، ولعبت البيئة والظروف دورا بارزا في تشكيل معدة الفكر عند طه حسين، ويتضح هذا بتأمل الطريق التي عبرها هذا الأديب المؤرخ، الذي ظل مهموما ومهتما بأفكاره لأكثر من نصف قرن، ومجال هذا الموضوع يبدأ من بدايات القرن العشرين منذ سنة ١٩١٠، تلك السنة التي ترك الأزهر ليلتحق بالجامعة الأهلية، وشرع يمضي قلمه في الصحف ويتصل بالحياة العامة، ويتخذ قضية التغريب أساسا لأفكاره، وهي تبنى النموذج الغربي في تمدين المجتمع العربي الإسلامي وتحديثه. وهذا المعنى نفسه يراد من اصطلاح "أورَبة" وكانت الأمة المسلمة تعاني من هذه المسألة في العصر الحديث بعدما اختلط المجتمع العربى بأوربا وحضارتها إثر حملة نابليون سنة ١٧٩٨، وبسبب

البعوث العربي العلمي إلى بلاد أوربا، ومن خلال ترجمة الكتب الغربية إلى العربية، وقد اهتم بهذه المسألة معظم المفكرين في بدايتها، مثل رفاعة رافع الطهطاوي، وأحمد فارس الشدياق وغيرهما.

وأهم الأحداث التي مضت في حياة طه حسين تتلخص كما يلى:

في عام ١٩٠٢ يلتحق بالأزهر

وفي عام ١٩١٠ ترك الأزهر والتحق بالجامعة الأهلية

وفي عام ١٩١١ بدأ يكتب في الجريدة

وفي عام ١٩١٢ رسب في الامتحان لنيل عالمية الأزهر

وفي عام ١٩١٤ قدم رسالة لنيل الدكتوراه عن "ذكرى أبي العلاء المعري"

وخلال هذه الأعوام أتقن طه حسين اللغة الفرنسية، وشارك في ترجمة "الواجب" لجول سيمون في نفس العام

وفي أواخر عام ١٩١٤ سافر إلى فرنسا

وفي عام ١٩١٩ حصل درجة الدكتوراه من جامعة السوربون

وبعدما رجع من فرنسا عام ١٩١٩ أصبح أستاذ تاريخ اليوناني والروماني بالجامعة المصرية الأهلية

وفي عام ١٩٢٢ بدأ يكتب في صحيفة "السياسة" لحزب الأحرار الدستوريين

وفي عام ١٩٢٥ حينما انتقلت الجامعة الأهلية إلى الحكومة أصبح طه حسين أستاذ الأدب العربي بكلية الآداب هناك

وفي عام ١٩٢٥ نفسه ألف كتابه 'قادة الفكر'

وخلال عامي ١٩٢٢- ١٩٢٦ نشر مقالاته مؤيدة مبدأه في "علاقة الدين بالعلم" وموقفه من الأزهر، وبتطبيقه المناهج العلمية والفلسفية الأوربية، وهذه المقالات جمعها بعد باسم 'من بعيد'

وفي عام ١٩٢٦نشر كتابه 'في الشعر الجاهلي'، وخلال هذه السنوات أيضا كتب مقالات كثيرة تحت عنوان 'بين العلم والدين'

وفي عام ١٩٢٨ أصدر كتابه 'رحلة الصيف' يطلب فيه الحق لإعلان الآراء في الكتب المقدسة باعتبار أنها موضوع بحث علمي

وخلال عامي ١٩٣٣ – ١٩٣٥ أصدر طه حسين الموضوعات الإسلامية

وفي عام ١٩٣٥ وحده نشر عشرين كتابا عن الإسلام

و حينما وقّعت مصر عام ١٩٣٦ مع إنجلترا، وفي عام ١٩٣٧ مع الدول الأوربية معاهدة إلغاء الامتيازات الأجنبية، ظنّ طه حسين أن مصر أصبحت حليفة انجلترا ولأوربا، وأنها تأخذ من الحضارة الحديثة نصيبا وافرا

ومنذ عام ١٩٣٩ شرع أن يتذكّر الشخصية القومية لمصر، وتحدث عن روح الأدب المصري

وفي عام ١٩٤٠ حضر مجلسا من مجالس الذكر، "وسخر من سخرية المثقفين منه، وذكر هامسا أنه يحب هذه المجالس ويجد فيها نفسه الضائع"[١٧٧]

وبعد هذه السنوات استلهم طه حسين من التراث العربي الإسلامي، ليواجه به فكر الغرب ونظرياته

وفي عام ١٩٥٠ ألقى محاضرة بالفرنسية بالمركز الجامعي لدول البحر المتوسط بمدينة "نيس" أكد فيها أهمية العلاقة المصرية الفرنسية

وفي عام ١٩٥٥ زار الحجاز واعتمر وحج وألقى خطبة في جدة

وفي عام ١٩٥٥ كتب كتابه 'نقد وإصلاح' دفع عن نفسه تهمة الولاء للحضارة الغربية

وفي عام ١٩٥٩ كتب 'مرآة الإسلام' حذّر فيه الأمة المسلمة بأن الغرب يتوقعون الفرصة ليفرضوا على الأمة المسلمة ضربا من العلم ينقطع بهم عن تاريخهم المجيد

[١٧٧] حسين،طه،. *من لغو الصيف*. مؤسسة هنداوي. د. ت.ص ١٧٥.

وفي أوائل الستينات كتب عن ضرورة إحياء التراث العربي الإسلامي، وأشرف على تحقيق الكثير من كتبه.

الفكر الفرنسي الذي دان له طه حسين جعله مدينا للنظرية المادية وللجبر التاريخي، عرف طه حسين طلائع المستشرقين في الجامعة المصرية، ولما سافر إلى فرنسا ألقى بنفسه إليهم، في الفترة ما بين ١٩١٤ – ١٩١٩. حيث تتلمذ عليهم في جامعتين: مونبيليه والسوربون، واختاروه لحمل شعارهم في معهد الدراسات الشرقية، وجد طه حسين في معهد الداسات الشرقية والكوليج دي فرانس الأجواء التي كانت تهدف إلى احتوائه عن طريق الثقافة فتلقى مفاهيم الفكر الإسلامي من خلال منهج المستشرقين وخاصة فيما يتعلق بالقرآن والسنة ودراساتهما والشريعة والتاريخ. وقد بنى طه حسين منذ ذلك اليوم أفكاره على أسس كما يلي.

الإعلاء والتقدير لتاريخ الرومان وأدب اليونان وفلسفة الهيلينية، حتى آمن أن هذا التراث هو مصدر الفكر البشري كله.

ألهمت الثورة الفرسنية في نفس طه حسين أن يكون شبيها بواحد من قادة تلك الثورة أمثال ديردو وفولتير وروسو في مجال الفكر الإسلامي والثقافة العربية

هدما للقيم التي كانت سائدة ومحاربة للعقائد ودفعا للثقافة إلى أسلوب "الفكر الحر".

وقام بترجمة وإذاعة شعر بودلير العنيف في إباحيته، المسف في أسلوبه، وترجمة وإذاعة القصة الفرنسية المكشوفة.

وساند الشعر العربي الإباحي القديم، وقام بتمجيد شعراء الإباحة والمجون ودراستهم والاهتمام بهم، أمثال بشار وأبي نواس والضحاك.

وأحيى الكتب القديمة التي كتبها الباطنية والإباحيون والملاحدة، وقد كان طه حسين مساعدا في إصدار رسائل إخوان الصفا،"ويكاد طه حسين في كل أعماله الكبرى أن يكون خاضعا للاستشراق متأثرا به تابعا له معليا من قدره متحدثا عن فضله على الأدب العربي والفكر الإسلامي"[١٧٨]

وطه حسين لم يشتهر بأقواله فقط، وضم إلى أقواله وآرائه صفة المهارة والعمق في مجالي الأدب والنقد، فهو أديب وناقد أدب وصاحب مؤلفات كثيرة ذات شأن في مجالس الأدب والنقد، وشغل الناس كلاما ونقاشا بآرائه الجريئة الباسلة، وفتح بابا مفتوحا للنقاش حول الأدب في العالم العربي.

[١٧٨] الجندي،أنور. *طه حسين وفكره على ضوء الإسلام*. ص ٣٤.

وقد عانى في حياته معارضة شديدة من أجل آرائه، فأيامه لم تكن أيام سكون وهدوء، بل كانت أياما ثائرة مثيرة صاخبة. واتصف طه حسين في هذه الظروف المحرجة بالشجاعة في الإفصاح عن آرائه ومخالفة الرأي العام والسائد، حتى جرأ للكتابة مبينا آرائه، ولا يصده فيه أحد ولا تخيفه العاقبة، ومن شخصية طه حسين الصدامية يحب الجدال ويختار الخصام بدون خوف المواجهة، وهو يثير الزوابع حول أفكاره وشخصه، ويظهر التمرد على ماهو سائد ومنتشر، مما جعله في سجالات ومعارك أدبية وفكرية متعددة أثرت الأدب العربي الحديث،

طالب طه حسين أن تتجه مصر في الحضارة، والثقافة، شطر أوروبا، وهو الطريق الأمثل للخروج من التخلف، ودافع عن استعمال المنهج العلمي لدراسة النص العربي القديم وإعادة إنتاجه على ضوء مشكلات الحاضر، وكذلك دعا إلى اتخاذ الشك وسيلة للوصول إلى الحقيقة وتجنب ثقافة النقل والحفظ وتقديس القديم.

وفي العشرينيات من القرن العشرين شهدت مصر لضجة واسعة من الآراء التي دونها طه حسين خصوصا في كتابه 'في الشعر الجاهلي' وهذا الكتاب أثار زوبعة من ردود فعل قوية عنيفة، خصوصا من طرف الاتجاه التقليدي المحافظ رغم أن التيار الليبرالي أحرز مجموعة من المكتسبات في مواجهة هذا الفكر وأخذ

يفرض سيطرته شيئا فشيئا على الساحة الثقافية والسياسية المصرية في هذا الظرف. "وقد سار الدكتور طه حسين طريقه ذلك لم يتخلف عنه حتى نهاية حياته فترك ركاما من الأبحاث والدراسات هي في حاجة إلى إعادة النظر فيها على ضوء الإسلام"[١٧٩]

مناهضة الخصوم

وتصدى طائفة من الكتاب والأدباء ضد هذه النزعة الليبرالية ومنهم مصطفى صادق الرافعي، ونشبت العداوة بينه وبين طه حسين على أشد ما تكون العداوة. نشأ الخلاف بين الرجلين في بداية القرن العشرين حول أسلوب الكتابة الأدبية حينما نشر الرافعي رسالة في "العتاب" إلى صديق له في الشام في جريدة "السياسة المصرية"، فعلق عليها طه حسين كاتبا:"أما أنا فأعتذر للكاتب الأديب إذا أعلنت مضطرا أن هذا الأسلوب الذي ربما راق أهل القرن الخامس والسادس للهجرة، لا يستطيع أن يروقنا في هذا العصر الحديث الذي تغير فيه الذوق الأدبي، ولا سيما في مصر، تغيرا شديدا"[١٨٠]

وواصل الرافعي الرد على طه حسين ووصف أسلوبه بالركاكة والتكرار وهو أيضا متصف بالضعف مليئ بالتعسف، وأسلوبه خال من شروط الفصاحة وقوانين

[١٧٩] نفس المرجع. ص ٧ .

[١٨٠] https://www. alanba. com. kw/kottab/saleh-alshaiji/230706/30-09-2011

اللغة العربية، وهو أيضا يفقد شروط الفصاحة مع تواجد الخلل في قوانين اللغة العربية. وطه حسين أجاب الرافعي بقول سديد شديد.

وهاجم مصطفى صادق الرافعي على طه حسين حينما أصدر الآخر كتابه'في الشعر الجاهلي' هجوما عنيفا شرسا، وذلك في مقالة نثريه للرافعي باسم "تحت راية القرآن" واتهم الرافعي فيه طه حسين بالكفر والزندقة والعصبية على الإسلام والطعن على الدين الإسلامي، وأدى هذا الهجوم وتلك الخصومة إلى ظهور فكرة ما عرف بالمعركة بين القديم والجديد، وهي معركة شهيرة من المعارك الأدبية والفكرية في الأدب العربي الحديث.

والآخر الذي اصطدم مع طه حسين هو زكي مبارك[١٨١] وكان الهجوم بين هذين الرجلين هجوما شديدا عنيفا أكثر مما وقع بين مصطفى صادق الرافعي وطه حسين. ومما يؤكد أن طه حسين فتح بابا جديدا في العالم الأدبي العربي مبيدا للتقاليد والعادات، وشدة الهجوم والخلاف بين الرجلين جعلت الخصومة تجاوز من الأبعاد الفكرية إلى الخلاف الشخصي، وقد عمّر هذا الخلاف زهاء تسع سنوات وعرفت في الأدب العربي بمعركة "لقمة عيش".

[١٨١] كاتب وأديب مصري عاش في فترة ١٨٩٢ - ١٩٥٢.

هذه أضخم معركة أدبية دارت بين زكي مبارك وطه حسين، واستمرت من سنة ١٩٣١إلى ١٩٤٠على مراحل متعددة منها الخصومة الفكرية ثم خصومة "لقمة العيش" حين أقصى طه حسين زكي مبارك من الجامعة، وأثار ذلك سلامة موسى وإبراهيم المازني ثم أصبحت خصومة حقيقية وصداقة تشوبها خصومة متعددة كلما أنتج طه حسين شيئا أو كتب عن شيئ، وجملة القول أن زكي مبارك ظل مشدود البصر إلى طه حسين طوال حياته.

ويحرز زكي مبارك الدكتوراه من "الأخلاق عند الغزالي" ويهاجم طه على "الغزالي" صاحب إحياء علو م الدين، ثم يحاول أن يسافر إلى أوربا عن طريق الجامعة، فلما حيل بينه وبين ذلك، سافر عن طريق جريدة "البلاغ"، ثم يرى رأيا في النثر الفني يخالف رأي المستشرقين، ويقع الخلاف بينه وبين أساتذته في السوربون بسبب رأيه وأصر طه حسين على رأيه ويسجله في رسالة الدكتوراه "النثر الفني" ثم يعود إلى مصر مواصلا الحملة على آراء مسيو مرسيه كبير المستشرقين في السربون، وهنا يصدر كتابه 'النثر الفني' فيلقاه الكتّاب بالنقد ويساجلونه في آرائه، إلا أن طه حسين فهو الذي يشير إليه إشارة عابرة بأنه " كتاب من الكتب ألفه كاتب من الكتاب" ثم يقع المعركة بينهما، "ويخرج طه حسين من الجامعة في إبان حكم صدقي ويدافع مبارك عن طه، ثم يتاح لزكي أن يعود إليها، مدرسا بكلية

الآداب ويتغير الجو السياسي ويعود طه حسين ويرفض تجديد عقد زكي مبارك"[١٨٢]

وسبب الخلاف بين طه حسين وزكي مبارك يرجع إلى أمرين، الأول : كان طه حسين ممن يرى بأن العقل اليوناني هو مصدر حضارة مصر، وأن كل ما نالت مصر هو مدين لعقلية يونانية، فيجب على مصر احتفاظ ثقافة اليونان وفلسفتها، ولكن زكي مبارك لم يتفق على هذا الرأي على أي حال بل اتهم طه حسين بنقل واتباع أفكار المستشرقين وآرائهم.

والسبب الثاني وهو متعلق بأطروحة النثر الفني فزكي مبارك كان يرى بأن النثر الفني عند العرب يمتد جذوره إلى ما قبل الإسلام، ولكن طه حسين كان متمسكا فيه بآراء المستشرقين، ودافع عن الرأي القائل بأن النثر الفني فن اكتسبه العرب بعد الإسلام ولم يُعرَفْ إلا في أواخر العصر الأموي حين اتصل العرب بالفرس. ونشط هذا الخلاف في صورة صراع شخصي حينما رجع طه حسين إلى الجامعة المصرية بعدما اقتحم الأزمة السياسية، وطه حسين رفض تجديد عقد زكي مبارك في الجامعة بل فصله منها. وزاد الأمر خطورة وجدة حينما أشار طه حسين نحو كتاب زكي مبارك 'النثر الفني في القرن الرابع' إشارة قاسية مؤلمة.

[١٨٢] الجندي،أنور. *المعركة الأدبية*. ط١. مكتبة الآداب. ٢٠٠٨. ص ٥٣٠.

وقعت إشارة طه حسين في نفس زكي مبارك كالسهم القاتل، ولاسيما أنّ طه حسين تلميذه، وهو من الذين وقف مع طه حسين في بلائه من أزمة كتابه 'في الشعر الجاهلي' وبعد هذه الحادثة لم يترك زكي مبارك مجالا يتسنح له فيه أن ينتقد طه حسين إلا ولجه، وهاجمه هجوما قويا عنيفا. وعبارة من زكي مبارك تكفي للمعرفة حدة العداوة بينهما "ولو جاع أولادي لشويت طه حسين وأطعمتهم طه حسين".

وعباس محمود العقاد، أيضا من الذين اصطدم مع طه حسين، خصومة بين العبقري وعميد الأدب العربي، ولكن هذا الخلاف كان يسيرا هينا بالنسبة مما سبق، وكان محور الخلاف هو قيمة الخيال قي "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري (٩٧٣ -١٠٥٧م) وكان من تهمة طه حسين بأن العقاد يحكم على المعري بقلة الخيال في رسالة الغفران، وهذا الحكم من عباس محمود العقاد أثار ثائرة طه حسين، على حين أن طه حسين من الذين يحفظون علاقة غريبة بصاحب المعرة، ولطه حسين من الكتاب 'تجديد ذكرى أبي العلاء' و'مع أبي العلاء في سجنه' و'صوت أبي العلاء'. وقد صار أبو العلاء المعري أحب الأشخاص إلى فكر طه حسين، وكان يجد نفسه فيه وهو كمرآة تنعكس أفكاره فيه، والمعري مثل طه حسين أعمى وكان شاكا متشائما ساخطا ناقما على الحياة، وأحب هذا التشاؤم

طويلا في حياته، ولم يخلص من هذه الأفكار المتشائمة حتى يتزوج من سوسن الفرنسية.

لهذا لم يستطع طه حسين أن يترك حكم عباس محمود العقاد تجاه المعري دون الرد عليه. وبعد أيام جاء الرد من طه حسين على عباس محمود العقاد، ولم يكن عباس محمود العقاد أقل درجة في الشخصية من طه حسين بل ربما يفوقه فيها، وهو ترك بصمة على الأدب العربي الحديث، وهو إن لم يعرف الجو الجامعي، وما يتطلب من شروط وقيود للبحث العلمي الأكادمي، جاهد ضد الظروف وعلّم نفسه بنفسه بقرائته الواسعة حتى صار من أكبر كتّاب العربي وعلم من أعلام النهضة العربية الحديثة. وهو أيضا كطه حسين يحب الخصام، وهو موهوب بقدرة واسعة على المجادلة والمحاجاة، وقاسى في حكمه على مخالفيه، ولا يخاف في اختيار القضية الشخصية والأساليب النابية، وكان لايكاد ينتهي من معركة حتى يدخل في أخرى. وعلى كل حال أن الجدال حول "رسالة الغفران" بين طه حسين وعباس محمود العقاد توقف توا بدون أن يبلغ الذروة كما كان الشأن مع مصطفى الصادق الرافعي ،وزكي مبارك، رغم أن الخلاف بين الرجلين ظل قائما والعداء مستمرا، لجأ كل من العقاد وطه حسين بالصمت وترك كل منهما الآخر، هل كان طه حسين يخشى صولة العقاد أو كان العقاد

يخشى التهكم وسخرية طه حسين؟. يقول أنور الجندي في كتابه 'المعارك الأدبية في مصر١٩١٤- ١٩٣٩' كان طه حسين يخشى قلم العقاد، ولم يعرض له إلا لماما وفي حذر شديد

و بعد ما قل وطأة الاتجاه الليبرالي في مصر في الخمسينيات من القرن العشرين، وحل محله في المشهد السياسي والفكري الحركة الشيوعية بتأثير أقوى وأشد، وكسبت القضية الاجتماعية الجانب المهم في الصراع السياسي والفكري، وأصبحت أصوات الاتجاه الاشتراكي والاتجاه الواقعي من الأمور التي يخص الأدب أقوى حضورا داخل المجتمع المصري. وفي هذا السياق، وبالتحديد في أواسط الخمسينيات، رد عبد العظيم أنيس، ومحمود أمين العالم، من أعلام اليسار والحركة الشيوعية المصرية، على مقال لطه حسين نشر في جريدة " الجمهورية" بعنوان " صورة الأدب ومادته" بتاريخ ٥-٢-١٩٥٤، هاجما من خلاله، هجوما عنيفا على طه حسين وعباس محمود العقاد بأنهما سبب القصور والجمود الذان يعاني منهما الأدب العربي المعاصر، وأنهما يمثلان المدرسة القديمة في النقد الأدبي، ثم بشرا ودافعا عن مفهوم جديد للأدب قوامه أن الأدب تعبير عن موقف اجتماعي أي إن المضمون، أو الموقف الاجتماعي للكاتب، هو الذي يحدد الأدب.

رد طه حسين على نقاد الواقعية كعادته بسخرية وتهكم في مقاله المشهور "يوناني فلا يُقْرَأْ"، بمعنى أن كلامهما لا يُفهم ويتميز بالرطانة، ثم مقالة بعنوان "واقعيون" المنشورة في "الرسالة الجديدة" (٥-٣-١٩٥٤) التي بلغت إلى قمة السخرية.

وقد عاش طه حسين بعد أن توفي مصطفى صادق الرافعي وإبراهيم عبد القادؤ المازني وزكي مبارك ومحمد حسين هيكل وأحمد الزيات وعباس محمود العقاد، فاستطاع بهذا الإمتداد في العيش أن ينال نوعا من التقدير الذي يشبه القداسة، وفي الحقيقة أن هذه الكوكبة التى عاشت حول طه حسين لم تستطع أن تحول دون كشف زيفه ودعواه وباطله، ذلك لأن أغلب من سار معه على الطريق في أول الأمر لم يلبث أن عرف حقيقته ودخيلته فانصرف عنه.

لقد استفاد الأدب العربي كثيرا من هذه الخصومات العنيفة التي أثارتها شخصيات كبيرة أمثال طه حسين وعباس محمود العقاد وغيرهما من رواد النهضة الأدبية العربية الحديثة، وصارت أفكار طه حسين في الأدب والنقد مجال جدال وخصام لمعاصريه وللذين جاؤوا بعده.

مثار التهمة والجدل

ومن كل ما يتضح أن طه حسين أثار ضجة بين أوساط الكتاب والمفكرين في مصر في العصر الحديث، وتتلخص أفكاره التي صارت نقطة الثورة في السطور التالية.

الأول: لأمر ما اقتنع الناس أن النبي يجب أن يكون من صفوة بني هاشم ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى إثبات أن القرآن كتاب عربي مطابق في ألفاظه لغة العرب.

الثاني : ظهور تناقض كثير بين النصوص للكتب الدينية وبين ما وصل إليه العلم من النظريات والقوانين، فالدين حيث يثبت وجود الله ونبوة الأنبياء يثبت أمرين لم يستطع العلم أن يثبتهما، العالم الحقيقي ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة وكما ينظر إلى اللباس من حيث أن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة، وتتبع الجماعة في تطورها وتتأثر بما تتأثر به الجماعة. أنّ الدين في ناحية والعلم في ناحية وليس إلى إلتقائهما من سبيل، ومن زعم غير هذا فهو خادع أو مخدوع.

ثالثا : إن الفرعونية متأصلة في نفوس المصريين، وستبقى كذلك بل يجب أن تبقى وتقوى، والمصري فرعوني قبل أن يكون عربي ولا يطلب من مصر أن تتخلى عن فرعونيتها، مصر لن تدخل في وحدة عربية سواء كانت العاصمة القاهرة أم دمشق أم بغداد.

رابعا : خضع المصريون لأنواع من البغي والعدوان من الفرس والرومان والعرب أيضا.

خامسا : أراد دراسة الأدب العربي كما يدرس صاحب العلم الطبيعي علم الحيوان والنبات، ولا يريد إتلاف عمره بدرس الأدب لمدح أهل السنة وذم المعتزلة، ولا يكلفه درس الأدب ليكون مبشرا للإسلام أو هادما للإلحاد.

سادسا : إن الإنسان يستطيع أن يكون مؤمنا وكافرا في وقت واحد، مؤمنا بضميره وكافرا بعقله فإن الضمير يسكن إلى الشيئ ويطمئن إليه فيؤمن به أما العقل فينقد ويبدل ويفكر أو يعيد النظر من جديد فيهدم ويبني ويهدم.

سابعا : على المصريين أن يسيروا سيرة الأوربيين والسلوك في طريقهم ليكونوا لهم أندادا فيأخذوا الحضارة خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب[١٨٣]

طه حسين ومجمع اللغة

تسنح لطه حسين بعد انقضاء السنوات في وزارة المعارف أن يشترك في مؤسستين كبيرتين هما مجمع اللغة بالقاهرة، واللجنة الثقافية بالجامعة العربية، أصبح عضوا ورئيسا في مجمع اللغة بعد وفاة لطفي السيد، وبعدما كان طه حسين من

[١٨٣] الجندي،أنور. *المعركة الأدبية*، صفحات مختلفة

أعداء مجمع اللغة في بداية الأمر صار هو في آخر حياته يتهالك عليه، وكان إذا سافر إلى أوربا يقوم المجمع بأداء كل مطالبه الرئيسية.

أما اللجنة الثقافية في الجامعة العربية صارت مصدر نفوذ لطه حسين واستطاع عن طريقها جمع المال لطبع كتب التراث، وسافر مندوبا عنها إلى السعودية فنال نفوذا ثقافيا في البلاد العربية. وبواسطتها قام بترجمة الآداب الأوربية إلى اللغة العربية، وحصل على مبلغ استطاع له به أن يترجم آثار شكسبير، وبه نقل الأفكار الغربية إلى العربية، وكانت خطته هي النقل الكامل الواسع على طريقة الإغريق.

وقد قضى طه حسين سنواته الأخيرة في هذين المنصبين، مجمع اللغة، واللجنة الثقافية. وقد أحيل إلى المعاش سنة ١٩٤٨ ثم ولى الوزارة حتى أوائل سنة ١٩٥٢حيث اعتزل الخدمة الرسمية وصار يتصل بأكثر من عمل، وفي مقدمة ذلك عمله كمدير للثقافة بالجامعة العربية وعضو ورئيس للمجمع اللغوي ثم عضوا في المجلس الأعلى للآداب والفنون. وفي نفس الفترة عمل محررا في الصحف" الأهرام" و"الجمهورية" و"الأخبار".

وقد عمل في الصحافة محاولا متابعة عمله ومحاميا الخطوات التي حققها في مجال التعليم والجامعة، وقد شهدت هذه الفترة كتابات عديدة في مجالات متنوعة.

وتابع حملته على الأزهر الشريف وأيد الشيخ عبد الحميد بخيت حين ثارت عليه ثائرة علماء المسلمين. ثم كانت دعوته إلى إلغاء التعليم الأزهري وتحويل الأزهر إلى جامعة أكادمية للدراسة الإسلامية.

تابع دعوته إلى إصلاح النحو ومشكلة الإعراب، وإلى دراسة اللغات الأجنبية والتبادل الثقافي، وشارك في الحديث عن القومية والديمقراطية والعروبة والفرعونية، وجدد آراءه في إحياء التراث العربية وفي هذه المرحلة كانت دعوته إلى كتابة اللغة العربية بالحروف الممدودة حتى قيل إن طه حسين يتحدى سيبويه.

أسلوب طه حسين

طه حسين كاتب ألمعي، ومهارته في بيان الوقائع والأحداث فذة عجيبة، وأعانه على ذلك منهجه في الكتابة الذي اختص به، وصار هذا المنهج موضع النقاش والنقد بين الدارسين، وأكثر ما استدعى النقد من جانب الدين والثقافة، غير أنّ منهجه يستطيع أن يلخص في نقاط.

استخدم المنهج التجريبي في دراسته الإنسانية، وتأثر فيه بالمنهج الناقد الفرنسي سانتبيف، وهذا المنهج شبيه بما يفعله علماء النبات في ترتيب الفصائل النباتية المختلفة، والكاتب في هذا الدور يدرس ترتيب الشخصيات الإنسانية

رأى الأدب كعالم حي، ففنون الأدب تنشأ وترتقي وتتطور كما تنشأ الكائن الحي والفرد عند طه حسين أثر من آثار الأمة والفرد ينشأ في المجتمع، واعتبر سلوك الفرد نتيجة العصر والظروف التي عاش فيه.

وكان طه حسين عبد هواه، غير أنه استطاع أن يجعل نقده علميا خالصا ويظهر هذا في نقده ورأيه عن المعري والمتنبي من الشعراء العباسيين، وتعمقه في دراسة التاريخ شجعه بالقول بأن العرب ما كانوا يعرفون النثر في الجاهلية وإنما جائتهم الفكرة النثرية عن طريق الفرس ويبرهن على ذلك كتاب كليلة ودمنة، وكان من المتمسكين بنظرية الجبرية التاريخية قبل أن يسافر إلى فرنسا، وبعدما ذهب إلى فرنسا درس نظريات سانتبيف الذي هو قائد النقد في المدرسة الفرنسية، وكان يحرص على الاعتصام بمذهب الذوق، وكان يقول أن الذوق في العصر الحديث أصبح علما، وهذا جلب انتقادا لاذعا، ومثل هذا النقد موضع نظر في رجل مثل طه حسين، ومهما يكن الأمر إن طه حسين من الذين يقدمون الذوق في الأدب، وهذا جلي في تناوله السيرة موضوع الأدب، وقد أخطأ في تقويم الأدب العربي بقلة دراسته فيه وإنما أمعن دراسة الأدب اليوناني، وتاريخهم، فتارة يقول إن الأدب العربي مدين للأدب الفارسي وتارة أخرى يرى العلاقة بين الأدب العربي والأدب اليوناني، واعتمد المنهج الغربية وروح التبعية في تأريخ الأدب، وذلك مستمدا من

نظرية الجبرية التاريخية ونظرية داروين التي تعتبر الإنسان حيوانا، ونظرية فرويد في الجنس، ونظرية ماركس في التفسير المادي للتاريخ.

وكان يقول إن الأدب العربي سطحي يقتنع بالظواهر، والأدب الفرنسي عميق دائم التدخل وهو واضح وذو تحديد، لا يوجد مثل ذلك في الأدب العربي، والأديب الفرنسي حينما يعالج موضوعًا يعلم التفصيلات غير ناس الموضوع، والأديب العربي كأنما يأخذ وردة من البستان أو لونا من الوردة بدون تفكير في البستان، ويقصد طه حسين بهذا إرضاء ساداته الفرنسيين، كما قصد إخضاع الأدب العربي للأدب اليوناني، وتأكيدا لدعواه قال طه حسين إن عبد القاهر الجرجاني تلميذ أرسطو.

وأسلوب طه حسين ككاتب رواية وقصة اكتسب درجة عالية من الجودة والروعة، كما كانت أفكاره وآرائه مجال معركة واختصام، ولم يخل أسلوبه أيضا من النقد اللاذع من جانب معارضيه. وأهم ما وجد المعارضون في أسلوبه، اعتماده على المصادر الضعيفة، انتقاص أقدار الرجال وتدمر البطولات، تعقب العورات، المبالغة والأستعلاء على المناهج. وكذلك واجه النقد في أسلوبه غلبة العاطفة، وعدم العدل، يتعمد الإثارة وإحداث الدوي.

وعلى كل حال إن أسلوب طه حسين في تقدير الباحثين يقوم على التشكيك والسخرية والتكرار والبراعة الأدبية والإثارة وإحداث الدوي ولا يصل أبدا إلى مقطع الحق في أمر أو التماس الحقيقة خالصة لوجه العلم وحده، وكتابه 'بين بين يكاد يكون رمزا لفنه وحياته وسياسته وأسلوبه.

الفصل الثالث
عباس محمود العقاد الكاتب العبقري

نشأة عباس محمود العقاد وحياته

ولد عباس محمود العقاد في أسوان سنة ١٨٨٩ في أسرة متوسطة، وكان أبوه أمينا للمحفوظات، وتلقى دراسته الابتدائية في كتّاب قريته. وهو لم يكمل دراسته الأكاديمية، واكتفى بالشهادة الابتدائية، وسار في طريق وعر المسالك، حتى صار ذلك الاسم مرجع الأكادميين، ولم يكن العقاد ابنا لأسرة كبيرة حتى تصبح قصة نبوغه قصة عادية، ويصبح تفوقه في الفكر والكتابة الإبداعية والفلسفية والسياسية حديث عصره. وظهر نبوغه مبكرا، عندما علمّه أبوه على أسس القراءة والكتابة، فظهر في العقاد شوقه إلى كل مكتوب يجده أمام عينيه، حتى ألحقه والده بمدرسة ابتدائية تخرج منها سنة ١٩٠٣.

تفرس الشيخ محمد عبده في العقاد بأنه يصبح كاتبا، بعد أن رأى كراسة العقاد الصغير، وناقشه في زيارة له للمدرسة، وقال قولة شكلت مسار العقاد فيما بعد: "ما أجدر هذا أن يكون كاتبا بعد..." وألم بالعقاد شغف شديد بالقراءة وبالكتابة، في وقت باكر قبل أن يبلغ سن العاشر من عمره، وذلك ما تحدث عنه

العقاد عندما قال: "عرفت قبل أن أبلغ العاشرة أني أجيد الكتابة وأرغب فيها، ولم ينقطع عني هذا الشعور بعد ذلك إلى أن عملت بها واتخذتها عملاً دائماً مدى الحياة"[١٨٤]

وعباس محمود العقاد كثير الإنتاج في كتّاب مصر، فقد كتب حوالي ١١٠٠٠ مقالة خلال نصف قرن، بدأ الكتابة سنة ١٩٠٧ وظل من سنة ١٩٢٢ يكتب مقالة للصحيفة يوميا، وفي الأشهر التسعة التي قضاها في السجن بحجة العيب في الذات الملكية، كان يكتب ما بين ثلاثة وأربعة مقالات صحفية في الأسبوع، هذا إلى جانب مئات المقالات غير الصحفية التي نشرت في الصحف والمجلات.

عكف العقاد على كتب الفلسفة والأدب والفنون الغربية، وتمثلها جميعا تمثلا رائعا، خاضعا فيه لسلطان عقله، فإذا هو يحللها وينتقدها، مكونا لنفسه فيها صورا، ظل ينشرها تارة في مقالات، وتارة في مؤلفات.

أعمال عباس محمود العقاد

أخذ الاهتمام بالثاقفة والكتابة الحيز الأكبر من حياة العقاد، ولما وجد أن الوظيفة التي عمل بها منذ تخرجه من الابتدائية، تمنعه من الحصول على المعرفة، وتركها قائلا "الاستخدام رق القرن العشرين"[١٨٥]، ثم اتصل بعالم

[١٨٤] العقاد،عباس محمود. *أنا* . مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. ٢٠١٢. ص ٥٦.

[١٨٥] نفس المرجع. ص٤٥.

الصحافة، وفي القاهرة كان المنعطف الكبير في حياته، حيث الحياة الأدبية والثقافية، يخوض في التثقيف الذاتي، وفي حياة الأدب وكتابة الشعر، ويندمج بشكل كامل مع حياة القاهرة، وظهر ديوانه الشعري الأول، وتستقبل الصحف والمجلات أشعاره، وقد جمع العقاد بين مواهب عدة، فقد طرق مجالات الشعر، والأدب والنقد والفكر والتأريخ والسياسة والصحافة.

وبدأ العقاد في الكتابة عن الإسلام بعد ما غاص عميقاً في التراث الإسلامي، والذي يظهر أنه قد نهل معارفه الإسلامية، بالاطلاع على الكتابات الإسلامية المعتدلة، وتأثر بصفة خاصة بمحمد عبده وهذه الكتابات التي أثرت كثيراً في جيل العقاد، وكذلك من المعروف أن هذا الطريق الفكري الذي اتخذه العقاد، نحو الكتابات الإسلامية، جاء في خضم مشاريع سياسية فكرية، شغلت المثقفين المصريين والعرب، مثل موقفه من الديمقراطية، ومنجز الحضارة الغربية، والتيارات الإسلامية، فكأنما شق العقاد طريقاً خاصاً به في فهمه للإسلام، وانهمك في دراسات وكتابات، تحمل فهماً مختلفاً عما يطرحه الإسلاميون التقليديون، فقام بتأليف الكثير من الكتب عن الإسلام، حتى بلغ أكثر من أربعين كتاباً، وقد عالج فيه كثيرا من القضايا الإسلامية، وشخصيات مؤثرة في تاريخ الإسلام، وأهم ما كتبه السلسلة التي عرفت بـ"العبقريات" مثل 'عبقرية

محمد' التي بدأ بها العقاد إسلامياته عام ١٩٤٢م و'عبقرية الصديق' و'عبقرية عمر' و'عبقرية علي' و'عبقرية خالد' ومن كتبه 'داعي السماء بلال' و'ذو النورين عثمان' و'الصديقة بنت الصديق'، و'أبو الشهداء' و'عمرو بن العاص'. وقد عرف عن العقاد نهمه في القرائة وولوعه في اكتساب الكتب، وهو ينفق ساعات طويلة في القراءة والدراسة بدون ملل ولم يصبه فيها ضجر حتى في كبره، وهو الذي قال "عشت في أيام الشباب كشيخ، اليوم في أيام الشيخوخة أحيا كالشباب"[١٨٦] وقد أوتي قدرة فائقة على الفهم والاستيعاب، وقد جاوزت قرائته من العربية إلى قرائة الآداب العالمية، ولا يزال يتصل بالآداب العالمية يوما بعد يوم، ولم ينقطع عنه، بل تتابع القراءة في موضوعات جديدة، وقد أدي شغفه بالقرائة إلى أن يقرأ الكتب ذات موضوع لا يريد أن يكتب فيها حرفا، وقد اكتشف هذا من طريق زائر زار بيت العقاد مرة،" وأنا أعلم فيما أعهده من تجاربي أنني قد أقرأ كتبا كثيرة لا أقصد الكتابة في موضوعاتها على الإطلاق، وأذكر من ذلك أن أديبا زارني، فوجد على مكتبي بعض المجلدات في غرائز الحشرات، فقال مستغربا: وما لك أنت والحشرات ؟!.. . إنك تكتب في الأدب وما إليه، فأية علاقة للحشرات بالشعر والنقد والإجتماع"[١٨٧]، واكتفى العقاد بجوابه: نسيت أنني أكتب أيضا في السياسة !. وأن العقاد كان يقرأ لتوسيع نهمه

[١٨٦] نفس المرجع. ص٥٥.

[١٨٧] نفس المرجع. ص ٥٩.

وإدراكه، كي يصل إلى بواطن الطبائع وأساسها، ويقيس عليها حياة الناس والسياسة.

وهذه القرائة الواسعة والاتصال بالأشخاص البارزين في عصره، مكّن العقاد أن يكون كاتبا ماهرا، ومن هؤلاء الأشخاص يذكر العقاد اسم الأستاذ الإمام محمد عبده " وأبالغ إذا قلت : إنّ كلمة الأستاذ الإمام هي دون غيرها التي حفزتني إلى الكتابة، ولكنه كانت ولاريب حافزا قويا بين الحوافز الكبرى" [١٨٨]، وعلاوة من ذلك يعد العقاد الأشياء التى جعلته كاتبا، وهو يقسم إلى ثلاثة، وهي إيمانه بالظروف، وفعلها في تمهيد أسباب النجاح، وإيمانه بالرغبة في الوجهة التي يتجه إليها الناشئ والعمل الذي يختاره، وإيمانه بالتشجيع والظروف والرغبة تتلاقى معا، وتتوافق في الخطوات الأولى" واتجاهي إلى الصحافة - أو إلى الكتابة على الأصح- قد تلاقت فيه كلمات التشجيع مع مؤاتاة الظروف، والرغبة الكامنة في الطوية من أيام الطفولة، ولا أقول من أيام الصبا أو الشباب، لأننى عرفت أننى أحب الكتابة، وأرغب فيها قبل العاشرة، ولم أنقطع عن هذا الشعور بعد ذلك إلى أن عملت بها، واتخذتها عملا دائما مدى الحياة"[١٨٩].

[١٨٨] العقاد، نفس المرجع. ص ٢٩.

[١٨٩] نفس المرجع. ص ٤٦.

وتتصل الكتابة عند العقاد بمسائل شاملة يجمعها برنامج شامل يحدق بتفصيلاتها، وهي تدور على مسائل الوجود والعقيدة والعظمة الإنسانية والفنون، وعلى هذا الأساس كتب العقاد عشرات الكتب في موضوعات مختلفة، فكتب عن وجود الخير الأكبر، وهو الله خالق كل شيئ، وكتب عن وجود الشر الأكبر، وهو إبليس أو الشيطان، وكتابه موزع بين الأدب والتاريخ والاجتماع ومن هذا القبيل كتابه 'مطالعات في الكتب والحياة' 'ومراجعات في الأدب والفنون' و'أشتات مجتمعة في اللغة والأدب' و'ساعات بين الكتب'، و'عقائد المفكرين في القرن العشرين'، و'جحا الضاحك المضحك' و'اليد القوية في مصر'.

وألف في الدراسة النقدية واللغوية مؤلفات كثيرة، وكتابه 'الديوان في النقد والأدب' من كتبه المشهورة في هذا الفن، وشارك معه في هذه المهمة إبراهيم عبد القادر المازني، ثم صار اسم الكتاب عنوانا لمدرسة شعرية عرفت بمدرسة الديوان، ومنها كتاب 'ابن الرومي: حياته من شعره' و'شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي' و'رجعة أبي العلاء' و'أبو نواس الحسن بن هانئ' و'اللغة الشاعرة' و'التعرف بشكسبير'.

وكتب عباس محمود العقاد في السياسة كتبا مختلفة ومن أشهرها 'الحكم المطلق في القرن العشرين' و'هتلر في الميزان' و'أفيون الشعب' و'فلاسفة الحكم في العصر الحديث' و'الشيوعية والإسلام' و'النازية والأديان' و'لا شيوعية ولا

استعمار'. وفي هذا الكتاب يصرح العقاد بأنه من أعوان الديمقراطية التي تعطي حرية الفرد وتحفظها، ويهاجم أيضا على الشيوعية والنظام الاستبدادي، ومن رأيه أن الشيوعية مذهب هدّام يذهب بجهود الإنسانية في تاريخها القديم والحديث، وخصوصا من الجهود التى أنفقها الإنسان للرفعة بنفسه من الإباحية الحيوانية إلى درجة الخلق الذي يعلم ويعترف الفكر وحرية الضمير.

علاوة من تراجم الأشخاص في مجال الدين كتب العقاد ترجمة السياسيين في الشرق والغرب، كأمثال سعد زعلول وغاندي وبنيامين فرانكلين، ومحمد علي، وعبد الرحمن الكواكبي، وابن رشد، والفارابي، ومحمد عبده، وبارناد شو، وابن سينا. وساهم العقاد في الترجمة من اللغة الأجنبية، وترجم كتابين عن الإنجليزية هما '"عرائس وشياطن' و'ألوان من القصة القصيرة في الأدب الأمريكي'. ولم يصرف العقاد عدد الكتب التي كتبها عن الشهوة للكتابة، وقد تماشى في نفسه بعض الآراء والموضوعات لم يكتب فيها بعد، وقد أظهر طموحه هذا في سيرته الذاتية "أنا" حيث عنون فيه "مالم أكتب وماأريد أن أكتب"، وعد العقاد في هذا القبيل بعض العناوين منها " عبقرية موسى " الكليم، و"عبقرية بوذا " وعبقرية كنفوشيوس"، وكتاب عن جمال الدين الأفغاني، وكتاب عن الغزالي، ويقول العقاد عن الغزالي "وليس في المشرق والمغرب من هو أرجح فكرا وأصفى عقلا

وأقوى "دماغا" من هذا الإمام الجليل"[١٩٠]، وكذلك أراد أن يكتب عن الشعراء العباسيين مثل البحتري وأبو تمام، وعن سواهما من شعراء الأدب الغنائي، أو شعراء الرونق والجمال، وفوق ما كتب عن المتنبي في الفصول المتفرقة أراد العقاد أن يفرد كتابا مستقلا مطولا، " وإلى هنا أراني ذكرت حقا مالم أكتب، وذكرت طرفا أو أطرافا مما أريد أن أكتب، ولكن "ماأريد" يصدق عليه قول القائل : " إذا لم يكن ما تريد فارد ما يكون" وسأريد ما يكون"[١٩١].

ويرى بعض النقاد أن اهتمام العقاد بهذه الشخصيات، ينبع من اهتمامه بالفرد ودوره في التاريخ، ويقول هؤلاء النقاد إن ذلك من أثر فلسفة شوبنهاور[١٩٢]، التي اهتم بها العقاد كثيراً وتأثر بها، أي إ نه جعلها حقلاً لتطبيق نظرياته في الفرد. وقد اهتم العقاد بالفعل، من خلال كتاباته عن تلك الشخصيات، بالتعريف بها، ورسم صورة عنها، وقد وجدت تلك العبقريات، والكتابات عن الشخصيات الإسلامية صدى كبيراً، وتلقفها الناس، واحتفوا بها.

تناول العقاد عقيدة الإسلام في كثير من مؤلفاته ما عدا العبقريات، وكتب عن الشخصيات الإسلامية، وألف دراسات وكتبا يدافع فيها عن الإسلام كدين وفكر، محاولا تخليصه من تلك الحمولة الثقيلة، التي ألصقت به، والتي صارت نواة

[١٩٠] نفس المرجع. ص ٧٤.

[١٩١] نفس المرجع. ص ٧٤.

[١٩٢] **أرثر شوبنهاور** Arthur Schopenhauer: **(1788 -1860)** فيلسوفٌ ألماني.

لأفكار المتطرفين والمتشددين، ولعل من أهم تلك المؤلفات 'حقائق الإسلام وأباطيل خصومه' و'الفلسفة القرآنية' و'التفكير فريضة إسلامية' و'مطلع النور' و'الديمقراطية في الإسلام' و'الإنسان في القرآن الكريم' و'الإسلام في القرن العشرين' و'ما يقال عن الإسلام'.

ومن المهم معرفته بأن العقاد لم يكتب إسلامياته كردة فعل على تيارات وأفكار إسلامية سائدة، بل إنه محاولة دؤوبة للتوفيق والمقاربة بين منجزات الفكر الغربي، والفكر الإسلامي، وتخليص الإسلام من النظرة الغربية المشوهة عنه، وقد واجه العقاد كثيرين من الذين تصدوا لأفكاره، لكنه كان ينطلق في تلك الأبحاث، من الإيمان بالحرية، وهو ما انعكس على كتاباته في الشؤون الإسلامية، في مواجهة الأفكار والكتابات القديمة، وخاصة في مؤلفه 'التفكير فريضة إسلامية'، واهتم في هذا الكتاب بحرية التفكير، ودور العقل، وهي المفاهيم التي يرى العقاد أن لها أصلا في الإسلام، وأن الدين الإسلامي، قد اهتم بها، فهو يرى أن الدين الإسلامي قد شدد على حرية التفكير، واستخدام العقل، وفي تلك اللحظة اتخذ العقاد موقفا إيجابيا من الفلاسفة والمفكرين المسلمين، بل وضد وجود فلسفة إسلامية من الأساس، وقد سنح ذلك للعقاد فرصة لاتخاذ موقف

إيجابي من التصوف، بدافع حرية الفكر داخل الإسلام، وضرورة استعمال العقل.

معارك فكرية

خاض العقاد معارك في سبيل إثبات دعوة الإسلام لحرية التفكير، وقد انتقد بشدة أولئك المقلدين، الذين فهموا أن الإسلام دعوة للتسليم من دون تفكير، وذهب العقاد إلى أن النصوص القرآنية قد اهتمت، وأكدت على دور العقل، وفي مؤلفاته استعان كثيراً بالآيات القرآنية، التي تؤكد على أهمية العقل، والحض على التفكير، ويذهب إلى أن التقليديين لم يفهموا رسالة الإسلام، فالإسلام قد خاطب عقلا يميز بين الأشياء ويدرك الحقائق، ويتدبر في الكون، ويتفكر في الخلق، فجعل العقاد من تلك المؤلفات منصات يدافع فيها عن الإسلام الحقيقي، ويهاجم فيها زيف الأفكار التي تشكلت حول الإسلام من قبل التقليديين، وكان يحاجج بقوة منطق غير معهودة، ومعونته في هذه العملية ثقافته الموسوعية التي كان يتمتع بها، واستعانته بالمناهج الفلسفية في المجادلات، فقد حاز على معارف فكرية واسعة، تجلت في قوة الجدل والمنطق، وذلك جلي في كتابه 'ما يقال عن الإسلام'، الذي حاول فيه إزالة ذلك الفهم الخاطئ عن الإسلام، كونه قد انتشر بقوة السيف، لا بحجة الفكر، وما أشيع من أن الإسلام قد دافع عن الرق، وقد فنّد العقاد تلك الأفكار، بردها إلى السياقات التي أنتجت تلك الوقائع

والنصوص، وهذا أيضاً ما فعله في مؤلفه 'حقائق الإسلام وأباطيل خصومه'، منافحاً عن الإسلام ومفندا الأباطيل المنتحلة عن المعاملات الإسلامية، ليخلص إلى أن الإسلام قد اهتم بالحقوق المختلفة للإنسان، وتلك المهمة نجدها في معظم الكتابات الإسلامية الأخرى عنده.

جاء اهتمام العقاد بالكتابات الإسلامية في وقت متأخر من عمره، بعد ما جاوز سن الخمسين، وكان قبلها منشغلاً بالأدب والسياسة، والفكر الغربي وتأثيره على الحياة والمجتمع المصري والعربي، وقد كان موقفه من الإسلام قبل ذلك موقفاً متشككاً، تخلص منه واندفع نحو الكتابات الإسلامية.

واستمد العقاد مادة فكره من الكتب، وكان يقول إن الكتب طعام الفكر، وتوجد أطعمة لكل فكر كما توجد أطعمة لكل بنية، ومن مزايا البنية القوية أنها تستخرج الغذاء لنفسها من كل طعام، وكذلك الإدراك القوي يستطيع أن يجد غذاء فكريا في كل موضوع "وعندي أن التحديد في اختيار الكتب إنما هو كالتحديد في اختيار الطعام، وكلاهما لا يكون إلا لطفل في هذا الباب أو مريض، فاقرأ ما شئت تستفد إذا كان لك فكر قادر أومعدة عقلية تستطيع أن تهضم ما يلقى فيها من الموضوعات"[١٩٣]

[١٩٣] العقاد، عباس محمود. *أنا*. ص ٦٢.

عالم الفكر للعقاد

وعندما يجري الكلام عن أفكار العقاد تتقدمها قضية الحرية، وقيمة العقل والاحتكام إليه، والعناية باللغة العربية. هذه المجالات الثلاثة هي أساس لإستراتيجية ثقافية، لأنّ العقاد كان يتمتع بعقلية صلبة داخلة إلى قعر الأشياء، ولا تضيع في تضاعيف الموضوع الذي يتصدى له، وهو باحث محقق متصل لا ينقطع عن عملية البحث، وإذا كتب هضم موضوعه هضماً تاما فيقدمه إلى القراء ببصيرة وبلغة تحمل كل معنى الجملة، وهي لغة خالية من النفور، فضلاً عن حرية رأيه ووطنيته وشموخه.

وفي مجال السياسة، كان العقاد شخصية بارزة عندما كان عضواً في البرلمان اتصالا بزعيم الوفد سعد زغول باشا الذي اقترب منه، رسم العقاد سعدا في كتبه أبلغ رسم وأدقه، وسجن تسعة أشهر، بسبب حماسه الوطني ودفاعه عن الدستور ضد طغيان الملك فؤاد، ولكن تعلقه بحزب "الوفد" في عهد سعد زغلول لم يمنعه من التصدي بموضوعية كاملة لإحكام حزب الوفد "المعاهدة" مع بريطانيا العظمى عام ١٩٣٦م، ووصفها بأشد الألفاظ، مع تقديم تحليل علمي وطني رائع، وبيّن نفاق الزعماء والصحفيين الذين أوقعوا الشعب في التباس على أنها معاهدة الصداقة والاستقلال، وأشد ما قاله عليها هو أنها ألحقت مصر بخدمة المجهود الحربي البريطاني، ومنحت بريطانيا حق الاحتلال العسكري تحت

ستار الدفاع عن مصر وعن قناة السويس، ولذلك فرح العقاد أيما فرح عندما أعلنت حكومة "الوفد" أيضاً في أكتوبر ١٩٥٠م إلغاء المعاهدة، وصمود حكومة "الوفد" ضد الإنجليز وبطشهم في منطقة القناة التي ألهبت الوطنية المصرية.

ومع معالجة الأفكار السياسية كتب العقاد في السياسة، ولم يترك مناسبة إلا كان له رأي وموقف جدير بأن يدرس ويسجل، واتخذ موقف انصاف من أحمد عرابي وثورته، والتقى العقاد بنفسه أحمد عرابي بعد عودته من المنفى الذي قضى فيه ربع قرن من حياته.

وكان العقاد من المؤيدين لحركة الجيش بقيادة "جمال عبد الناصر" عام ١٩٥٢م، وامتدح شبابها، ولم يكن خائفا في الحق لومة لائم، ولم يمنعه البطش في ذلك الوقت من أن يعترض بصراحة على كل الإجراءات الاستثنائية في مجال الملكية الخاصة والحريات في ذلك الزمان، تلك الإجراءات التي كانت سببا رئيسا في سقوط النظام بأكمله عام ١٩٦٧م.

أما في مجال الفكر السياسي، فكان العقاد ضد كل الحركات السياسية التي تمنع الحرية، فاتخذ موقفاً عدائيا من النازية في ألمانيا، ولم يظهر تعاطفا كان مألوفا في الحركة الوطنية المصرية مع الألمان نكاية في الإنجليز المحتلين.

وأما عبقريته فيتسع المقام فيها لقراءة فكرته السياسية، فهي نموذج في التحليل السياسي الذي يجعل الشخصية وحدة التحليل وينشئ حولها الأحداث والعلاقات، وأن ملاحظاته حول العبقرية السياسية للرسول ﷺ جلبت الدراسة والاهتمام، خاصة في رحلة الحديبية التي كشفت عن عبقرية سياسية ودبلوماسية وفهم عميق لطبائع البشر.

ويعطي العقاد للعقل قيمته، وهذا يظهر في معظم كتاباته، لا سيما فيما كتب في سير العباقرة الذين أعجب بهم وأنزلهم المنزلة التي يستحقونها بين البشر، وقيمة العقل ثروة أهملها العقل العربي والمصري، وكان السبب في ذلك هو حكامها الذين جرَفوا عقول الناس، وحرفوا أفهامهم، فانساقت الأمة كالقطيع وراء الخرافات والتوافه من الأمور، وخلطت الحق بالباطل في الدين والدنيا.

في الصحافة والسياسة

عباس محمود العقاد مفكر سياسي واضح لا هوادة فيه، سجن في سنتي ١٩٣٠ و١٩٣٧، بسبب مقالات كتبها في الصحف، واضطر العقاد للجوء إلى السودان سنة ١٩٤٢، حينما زحفت قوات أدولف هتلر إلى مصر، بسبب خوفه من الانتقام على انتقاده لسياسة هتلر. وذلك حينما كان عسكر هتلر في قمة التقدم ألف العقاد كتابه ضد هتلر، 'هتلر في الميزان' في شهر يوليو من سنة ١٩٤٠، وصف العقاد في الكتاب النازية أعظم تهديد للحرية والتحديث، بل هي

مهددة لكيان الإنسان، ويضاف إليه معارضة العقاد العام لكل من المبدأ الفاشية والشيوعية.

وأوتي العقاد عضوية البرلمان المصري لبرهة من الزمن، كماكان عضوا في حزب الوفد الذي يترأسه سعد زعلول، وأيضا عضوا لاحقا في مجلس النواب. كل هذه الوقائع والأنشطة دليل كافي على تدخل العقاد الكاتب في السياسة .

وعيّن العقاد في وظائف الحكومة ولكنه تركها لما ضاق به ذرعا، وقال إنّها "رقّ القرن العشرين" وهو أول مصري استقال من وظيفة حكومية، وكان الشرف كله متعلق بالوظيفة الحكومية يومئذ، وقد كتب في "الجريدة" حوالي عام ١٩٠٧ مقالة بعنوان " الاستخدام" وكان كل أمله في الحياة متجه إلى صناعة القلم، وهذه الصناعة ميدانها الصحافة فاتجه إليها، والميل إلى الكتابة والصحافة كان غريزة رسخت فيه منذ الصبا "واتجاهي إلى الصحافة - أو إلى الكتابة على الأصح – قد تلاقت فيه كلمات التشجيع مع مؤاتاة الظروف، والرغبة الكامنة في الطوية من أيام الطفولة، ولا أقول من أيام الصبا أو الشباب، لأنني عرفت أنني أحب الكتابة، وأرغب فيها قبل العاشرة، ولم أنقطع عن هذا الشعور بعد ذلك إلى أن عملت بها، واتخذتها عملا دائما مدى الحياة"[١٩٤]

[١٩٤] نفس المرجع. ص ٤٦.

وكان أول اتصاله بها في سنة ١٩٠٧ حين عمل مع العلامة محمد فريد وجدي في جريدة الدستور اليومية التي كان يصدرها، وتحمل معه أعباء التحرير والترجمة والتصحيح من العدد الأول حتى العدد الأخير، فلم يكن معهما أحد يساعدهما في التحرير. وبعد ما توقفت الجريدة عاد العقاد سنة ١٩١٢ إلى الوظيفة بديوان الأوقاف، لكنه ضاق بها، فتركها، واشترك في تحرير جريدة المؤيد التي كان في صدارتها الشيخ علي يوسف، وسرعان ما اصطدم بسياسة الجريدة، التي كانت تؤيد الخديوي عباس حلمي، فتركها وعمل بالتدريس فترة مع الكاتب الكبير إبراهيم عبد القادر المازني، ثم عاد إلى الاشتغال بالصحافة في جريدة الأهالي سنة ١٩١٧ وكانت تصدر بالإسكندرية، ثم تركها وعمل بجريدة الأهرام سنة ١٩١٩، واشتغل بالحركة الوطنية التي اشتعلت بعد ثورة ١٩١٩، وصار من كُتَّابها الكبار مدافعا عن حقوق الوطن في الحرية والاستقلال، وأصبح الكاتب الأول لحزب الوفد، المدافع عنه أمام خصومه من الأحزاب الأخرى، ودخل في معارك حامية مع الذين ينتقدون سعد زغلول - زعيم الأمة - حول سياسة المفاوضات مع الإنجليز بعد الثورة. وكان يرى في سعد زغلول رجلا أعظم في القطر "قال: وهؤلاء الثلاثة العاملون. . . من أعظمهم في موازين الرجال؟. وأشار إلى جمال الدين، ومحمد عبده، وسعد زغلول. . قلت : أعظمهم أثرا في قطر واحد

هو سعد زغلول، وأعظمهم أثرا في جميع الأقطار هو جمال الدين الأفغاني، وأعظمهم نفسا فيما أرى هم محمد عبده، أوسط الإثنين "[١٩٥]

وبعد فترة انتقل للعمل مع عبد القادر حمزة سنة ١٩٢٣ في جريدة البلاغ، وارتبط اسمه بتلك الجريدة، وملحقها الأدبي الأسبوعي لسنوات طويلة، ولمع اسمه، وذاع صيته وانتخب عضوا بمجلس النواب،وظل العقاد منتميا لحزب الوفد حتى اصطدم بسياسته تحت زعامة مصطفى النحاس باشا في سنة ١٩٣٥ فانسحب من العمل السياسي، وبدأ أنشطته الصحفي، وإن كانت مساهماته بالمقالات لم تنقطع إلى الصحف، فشارك في تحرير صحف روز اليوسف، والهلال، وأخبار اليوم، ومجلة الأزهر.

إسلاميات العقاد

وكان ميدان الكتابة عن الإسلام متذللا للعقاد، وساعده فيه أفكاره المبتكر في الأدب، وآرائه الملتهبة في السياسة، وأراد العقاد أن يري الناس أنه في ذلك الميدان أيضا عبقري، وكتبه الإسلامية يبلغ أربعون كتابا، اشتملت جوانبا مختلفة من الثقافة الإسلامية وعلومها، غير أنه لم يكن مفسرا لأحكام الإسلام في مسألة من المسائل، وشغله الشاغل في المؤلفات الإسلامية دفع الشبهات التي رفعها

[١٩٥] نفس المرجع. ص ١٩٤.

المستشرقون الغرب حول شتى القضايا الإسلامية، وتناول أعلام الإسلام في كتبه، وهذه الكتب موسومة بالعبقريات، فبدأ بعبقرية محمد ﷺ ثم أتبعه باقي السلسلة، وفي مثل هذه الكتب لم يهتم العقاد بسرد الأحداث، وترتيبها حسب سنة وقوعها، وإنما كان همه إظهار صورة الشخصية للمترجمين ليفهمها القراء ويتخذوها قدوة، ذاعت عبقرياته بين الناس واشتهرت، واتخذتها المدارس الثانوية في مصر ككتاب دراسة لطلابها، واكتسبت العبقرية تقديرا وتنويها شاملا مالم تحصل عليها الكتب الأخرى للعقاد، وقد ألف كتبا للدفع عن خصوم الإسلام، ومنها 'حقائق الإسلام وأباطيل خصومه' التي سبق ذكره قبل.

ومقصود العقاد في هذه الكتب هو الدفاع عن الإسلام من الشبهات والأباطيل التي يشن بها أعداؤه وخصومه، وساعده في هذه المهمة اطلاعه الواسع من قرا ئته المختلفة، ومقدرته على المحاجات، وكان يفحم الخصوم بالمنطق السديد، ففي هذه الكتب المذكورة إنه قارن بين الإسلام وسائر الملل والأديان، حتى وصل في آخر المقارنة إلى شمولية حقائق الإسلام، وأنّ العبادة في الإسلام وشعائره خالي من كد الملل الماضية لما انحرف عن مسارها الصحيح، وتأمل أخبار النبوة في القديم وفي عهد النبي ﷺ فوجد أن النبوة في الإسلام في غاية الكمال، ولم يفت المقام للعقاد أن يهاجم على الذين يدعون بأن الإسلام يطلب بالانقياد والتسليم بلا تأمل وتفكير، ويؤكد مرة بعد مرة أن التفكير فريضة إسلامية، وأن من

خصوصية القرآن أنه يمدح العقل وأعماله، وقد سوّد العقاد معظم صحفه للرد ما ينشره أعداء الإسلام من شبهات واهية ظالمة حول الإسلام، وهم يستخدمون مختلف الطرق للبث بها أمام الناس، ومن تلك الشبهات بأن الإسلام انتشر بالسيف، وأن الإسلام يشجع الرق، والعقاد هدم هذه التهم بالحجة المقنعة والادلة القاطعة.

ومهما يكن الأمر وقد أجاد الكاتب في كتابته وأفلح في تأدية المعنى المراد إلى القراء، لا يعنى ذلك أنه في مأمن من الانتقاد والانتقاص، وإنّ مؤلفات العقاد كما بهر به جمع من القراء كان هناك شانئوه لآرائه وأفكاره، من الوجهة الدينية، فمن القائلين إن عبقرياته ليست انتصار للإسلام، ويتهمون في إسلامه مشيرين إلى كتابيه 'التفكير فريضة شرعية' و'ما يقال عن الإسلام' و'حقائق الإسلام وأباطيل خصومه' ويقولون إن كتابه 'عبقرية محمد' ليس وحده كافي للحكم على ديانته.

ولكن العقاد أفصح لهم مكانته منهم، وفي لحظة من كتابته وهو يفتخر بما قدم من اسهامات في سبيل الوطن والمجتمع، والوطن والمجتمع الذان " بلغ من عبادة الأوثان أن " الصوفية" خلقت في هذا البلد منذ قرون، فما لبثت أن عاشت على المظاهر والألقاب، وعلى الشيع والأحزاب، بين عريف ووكيل ورئيس، وبين منتسب إلى هذا الضريح، ومنتسب إلى ذلك الهيكل، أو تلك الزاوية أو ذلك الكنبيس...

ومعهم كلهم ألوان من الشارات وأشتات من الريات والفوانيس... وإنهم كذلك وهم يتصوفون ويتقشفون "[١٩٦]

في هذه الظروف المؤلمة المؤسفة حارب العقاد الطغيان والفوضى، وحارب رؤوس الأموال وحارب مذهب الهدم والبغضاء، وحارب التبشير وحارب التقليد الأعمى والدجل المريب، وحارب الجمود الرجعية وحارب الإنكار والجحود، وحارب الأحزاب وحارب الملوك، وحارب هتلر ونابليون، وحارب المستعمرين في صفوف الديمقراطيين، وحارب أعداء الأدب المسمى بالقديم، وحارب أصدقاء الأدب المسمى بالجديد، وحارب الصهيونية، وحارب النازية أكبر أعداء الصهيونية، " لقد حاربت جميع هؤلاء، فالتقى على محاربتى أناس من جميع هؤلاء"[١٩٧]

والكتابة عن الأبطال مثل نابليون والإسكندر جزء من فلسفة العقاد، وأهم جانب من جوانب فلسفته في الحياة هو ما استفاده من الطبع الموروث، وجائته بعض الزيادة من التجربة أو القراءة، ويعني به قلة الاكتراث بالمقتنيات المادية، فأعجب شيء عنده هو تهالك الناس على اقتناع الضياع والقصور، وجمع الذخائر والأموال، ويمتد هذا العجب من هذا إلى ما هو أكبر وأعظم إلى رجالات التاريخ، وأبطال الفتوح والغزوات، فالمتوسعون في الفتح أعجب عنده من

[١٩٦] نفس المرجع. ص ٩٥.

[١٩٧] نفس المرجع. ص٩٤.

المتوسعين في الثراء وكلامه عن هتلر، ونابليون، والإسكندر هو أثر من آثار هذه العقيدة أو هذا الشعور.

أسلوب العقاد

تناول العقاد أكثر من لون من ألوان المقالة: سياسية، وأدبية، واجتماعية، ووصفية. اعتمد فيها على أسلوب التعبير المحكم الذي يؤثر الألفاظ الموحية والجمل المحكمة التي تقوم على الدقة في التصوير، والقصد في التعبير، والتركيز في كتاباته

الأسلوب هو الرجل، هذه مقولة نالت مكانة في الصدق، والقالب الفكري لفرد يشكله قرائته واطلاعه على العلوم، والعقاد من الذين يؤمنون بأن الأدب رسالة عقل إلى عقول، ووحي خاطر إلى خواطر، ونداء قلب إلى قلوب، وأن الأدب في لبابه قيمة إنسانية، وليس بقيمة لفظية "فإيماني كله في العقيدة والأخلاق والمعاملة والأدب يوزن بميزان واحد وهو ميزان المثل الأعلى، أو طلب الكمال، لأنه إيمان يغنينا عن طلب الجزاء، وبعرضنا عن فقدان الحمد والثناء"[١٩٨] ومن هذا الميدان تشكل العقاد أسلوبه ومنهجه، وقد اتسم العقاد بالجدل المنطقي، وبالحجة العقلي، وبالتحليل الدقيق لما يقرأه من نصوص ويكتب، "كما كان يتسم باختياره

[١٩٨] نفس المرجع. ص ١١٦.

الألفاظ المتشامخة ذات الجرس والطنين التي تظهر تعمقه أسرار اللغة الفصحى، وتفوقه على خصومه ومناظريه. وكل هذه كانت ملامح شخصية "العقاد الفكرية" وقد دلّ أسلوبه عليها بجلاء"[١٩٩].

وإن دراسة تاريخ العظماء موضوع يحتاج إلى عمق نظر وعلو الهمّة لا سيما إذا أراد الكاتب تحليل الحوادث، فالعقاد بما أوتي له من ثقافة وفكر تصدى للخوض في هذا الخضم. وكانت أكثر مقالاته الصحفية للمجلات الأدبية، والمقالات التي كتبها في صحف يومية وعليه تحريرها فقد كانت الصعوبة الكبرى في تقديم موضوع منها على موضوع، ويقول العقاد"إننا تولينا العمل الصحفي في إبان الحركة الوطنية قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها... وكثيرا ماكانت الصحف اليومية تصدر في وقت واحد من النهار، وفيها ما يلتزم الرد على ما فيه من طبعات المساء... فقد كانت الصعوبة - كما تقدم - أن نؤجل موضوعا منها، أو نجمع ما بينها في وقت واحد، وقد يكون الجمع بين الموضوعين أيسر الأمرين، فينشر أحدهما بتوقيع صريح وينشر الآخر بتوقيع مستعار، أو مختصر معروف، وربما لجأنا أحيانا إلى الاقتراح بين أسماء الموضوعات إذا تعذر نشر المقالين معا لسبب من الأسباب الفنية"[٢٠٠]وهذه الجملة تظهر كيف يعين العقاد منهجه

[١٩٩] عبد الدائم، يحيى إبراهيم. *الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث*.بيروت: دار النهضة العربية. ١٩٨٢. ص ١٥٦.

[٢٠٠] العقاد،عباس محمود. *أنا*. ص ٦٤.

وأسلوبه لاختيار الموضوع وأن يكتب فيه، أما اختيار موضوعات الكتب فيجري فيه على غير هذه الطريقة، وهو موضوع التراجم والسير التاريخية والأدبية، فيتمسك فيه بمبدأ إظهار حق ضائع أو إبراز حقيقة مجهولة، ولا فرق عنده فيه سير العظماء والنبوابغ من كل صنف، فمثلا كتب العقاد عن ابن الرومي، وهو بالنسبة إلى العقاد مجهول القدر، والنقاد أيضا نزلوا بقدره، في حين كان العقاد رأى فيه شاعرا عظيما وامتلك الوصف التصويري، فكتب عنه لإعطائه الحق العلي في الشاعرية، وكذلك يقول في "عبقرية محمد" لأنه لم يكتبها في وجه دفاع ناقد ناقم يفتري عليه، لأنها عظمة القداسة التي تعلو على إنصاف المنصفين، وإنما كتبه للقارئ "الإنسان" الذي تضطره مقاييس العليا إلى تعظيم نبي الإسلام، وهكذا اتخذ العقاد أسلوبا مختلفا ومنهجا مفارقا في كتاباته الأدبية والاجتماعية، وهو يعلم مكان استعمال أداة الأسلوب علم عالم خبير. وكان يؤجل أحب الموضوع عنده للكتابة فيه، راجيا اقتراب وقت مناسب للتأليف فيه، وقد تأجل بهذا المبدأ أحب الموضوعات عنده، "وقد تأخرت من أجل هذا كتابتى عن أبى حامد الغزالي، وهو أحب المفكرين الإسلاميين إليّ"[٢٠١]

وطريقته في الكتابة أن يبدأ المقال وفي ذهنه جميع أصوله، و"نقطه" وإذا مضى في الكتابة عرض له حاشية من هنا أو لمحة من هناك، ولا يغير شيئا من جوهر

[٢٠١] نفس المرجع. ص٦٦.

المقال إلا أن تزيده جلاء في بعض الأحيان. ولا يلزمه مكان خاص للكتابة وإنما يكفيه مكان خال من الضوضاء، حتى إنه يكتب مضطجعا على الفراش، ومعظم مقالاته السياسية كتبه كذلك، وكذلك ليس عنده وقت معين للكتابة والأمر الوحيد في ذلك أن لا تكون الكتابة بعد تناول الطعام، وخطته في المناقشة أنه يعمد إلى أقوى الحجج بداءة،ثم يجتهد في تقويضها، وهو يفضل الكتابة منفردا لايحيط به أحد، وكلما كتبه في الأدب وهو منفرد في الحجرة.

وأسلوبه في التأليف فيلخص في كلمتين، هما : التقسيم، والتنظيم، وهو منهج يختلف من منهج التبويب والترتيب، فعندما يريد أن يكتب يتبين في ذاكرته الأقسام الواسعة التي تحيط بأجزاء الموضوع المتفرقة، فإذا فرغ من الإحاطة بها كتب عنوان كل قسم على غلاف متوسط الحجم يتسع لعدة أغلفة أصغر منه. ثم يراجع في ذهنه مصادر الأخبار والآراء والحوادث التي تتصل بهذه الأقسام، وهي الكتب التي اطلع عليها في المبحث المطلوب من جميع نواحيه .

. أسلوب العقاد يتميز كما يلي:

١. عدم الإفراط في المقدمات، أو اللجوء إلى التكرار، أو اللف أو التوكيد بالكلمة أو الجملة.

٢. العناية بوفرة المعاني وغزارة المادة. وحسب الكلمة والعبارة أن تؤدي المعنى، وتنقل الخاطرة، وتفصح عن الشعور، لتزيد المعنى وتضيف إلى الفكرة جديدا.

٣. طول بعض الجمل أكثر من المألوف، مما يجعل شيئا من الغموض أو الجفاف أو الالتواء في الأسلوب، مما يتطلب من القارئ تنبيها عظيما.

٤. الإبانة والإفصاح مع الجمال الطبيعي الذي قد يصل أحيانًا إلى حد الشاعرية.

٥. يتسم بالجدل المنطقي، والحجاج العقلي، والتحليل الدقيق، واختيار الألفاظ المتشامخة ذات الجرس والطنين.

البعد عن زخرفة اللفظ سوى السجع الذي تحتاجه المواقف كالسخرية والتحدي والدعاية حتى يفزع رنينه الأسماع.

طه حسين وعباس محمود العقاد أديبان سجّلا مكانتهما بين أوساط الكتاب العرب جمعاء، بل أصبحا محور البحث الأدبي العربي ردحا من الزمان بما قدما أفكارا فائقة وأسلوبا مبتكرا. وانتهجا منهجا جديدا في معالجة الأدب والنقد والتاريخ.

الباب الخامس

دراسة مقارنة بين مناهج 'على هامش السيرة' و'عبقرية محمد'

- الفصل الأول: 'على هامش السيرة' والمنهج الأدبي في سيرة الرسول ﷺ
- الفصل الثاني : 'عبقرية محمد' والمنهج العلمي في سيرة الرسول ﷺ
- الفصل الثالث : مقارنة بين 'على هامش السيرة' و'عبقرية محمد'

الفصل الأول

'على هامش السيرة' والمنهج الأدبي في سيرة الرسول ﷺ

وقد شهدت مصر في الثلاثينيات من القرن العشرين، لطفرة عظيمة في مجال كتابة الإسلامية عامة وفي سيرة الرسول ﷺ خاصة بطرائق قددا،فجاء إلى حيز الوجود ما يناهز عشرون كتابا،واتخذت هذه المؤلفات المناهج الجديدة في كتابة التاريخ، ومنها 'الإسلام والحضارة' للأستاذ محمد كرد علي و'ضحى الإسلام' للدكتور أحمد أمين، و'على هامش السيرة' للدكتور طه حسين، و'حياة محمد' للدكتور محمد حسين هيكل، وقد صدر هذا العدد من الكتب في مدة أقل من عام، وكانت تعالج الإسلام نظاما ورجالا ودينا، وصارت ظاهرة اجتماعية تجدر للبحث والدراسة، ومما تزيد هذه الظاهرة جدارة للبحث أن كتاب هذه الكتب ليسوا من الذين عكفوا للدراسات الدينية، بل هم كانوا من كتاب مقالة اجتماعية وسياسية ونقدية في الصحف، ويجيئ في مقدمتهم الدكتور طه حسين، والأستاذ عباس محمود العقاد، ومحمد حسين هيكل، والأستاذ توفيق الحكيم، وإقبال

هؤلاء الكتاب غير المتخصصين في كتابات الموضوعات الإسلامية، إلى هذا الصنف من المؤلفات أكسب كثيرا من المعنى والدلالة لمجال الكتابة الإسلامية.

ثقافة طه حسين في سيرة الرسول ﷺ

وقد مكن لطه حسين في سيرة الرسول ﷺ تجاربه في الطفولة ويقول في 'الأيام' ".... وكان أبو الصبي لا يدع فرصة إلا ذكر فيها عن الشيخ هذه القصة: ذكر أمامه أنّ الغزالي قال في بعض كتبه : إن النبي لا يمكن أن يرى فيما يرى النائم فغضب الشيخ وقال : والله ما هكذا كان الأمل فيك يا غزالي !"[٢٠٢].

وفي مكان آخر في نفس الكتاب يقول : "... وعلى هذا النحو حفظ الصبي ألوانا من أخبار الكرامات والمعجزات وأسرار الصوفية "[٢٠٣] وفي موضع آخر من الكتاب يقول "... فلم يكن في حاجة إلى أن يختلف إلى خياط أو حذّاء، وما كان ميالا إلى اللهو بمثل هذه الحركات الطارئة وإنما كان يخلو إلى نفسه ويعيش في عالم من الخيال يستمده من هذه القصص والكتب المختلفة التى كان يقرؤها فيسرف في قرائتها "[٢٠٤].

ومرة يرسم طه حسين أمام القراء الظروف التي ساعده علي حفظ السيرة وألهمته تحليلها حيث يقول " وكان أبوه وطائفة من أصحابه يحبون القصص حبا

[٢٠٢] حسين،طه.*الأيام*. ج١. ص٩٥

[٢٠٣] نفس المرجع. ص٩٦.

[٢٠٤] نفس المرجع. ص ١٢٠.

جما، فإذا صلوا العصر اجتمعوا إلى واحد منهم يتلو عليهم قصص الغزوات والفتوح، وأخبار عنترة والظاهر بيبرس، وأخبار الأنبياء والنساك والصالحين، وكتبا في الوعظ والسنن. وكان صاحبنا يقعد منهم مزجر الكلب وهم عنه غافلون، ولكنه لم يكن غافلا عما يسمع، بل لم يكن غافلا عما يتركه هذا القصص في نفوس السامعين من الأثر" [٢٠٥] وكتابه 'الأيام' مع كونه سيرته الذاتية لم يسردها كرواية التاريخ ولم يذكر فيه التاريخ والسنة شأنه في 'على هامش السيرة'.

لقد رأى طه حسين أن عددا من الظواهر السلوكية عند المسلمين وعددا من أحداث التاريخ الإسلامي ليس لها من تفسير سوى تأثير العقيدة. ويمكن أن يحول ما يتعلق بالأفراد وما يتعلق بالجماعات.

وإن الإيمان الديني في نظر طه حسين طاقة هائلة قادرة على تغيير أنماط السلوك الفردي تغييرا جذريا، والأفراد أساس الجماعات. والقاعدة عند طه حسين في هذه النقطة:

[٢٠٥] نفس المرجع. ص٢٥.

"أن الإيمان خليق أن يحول الأشياء إلى أضدادها والنفوس إلى نقائضها(على هامش السيرة ٨٩/١)"[٢٠٦]

وقد صمم طه حسين في كلية الآداب خطة إنشاء معهد التمثيل والرقص ودعوة الطالبات إلى الاختلاط وتحريضهن على ذلك ومعارضة الجبهة المسلمة التي تدعو إلى الدين والأخلاق، ولما أثار عمله هذا الأزهر ومن والاهم قال طه حسين قوله"لا أعلم نصا في كتاب الله أو سنة نبيه يمنع اختلاط الشبان بالشابات لطلب العلم"[٢٠٧]. وكتب رشيد رضا في مجلة المنار عن الخطة التي يقودها طه حسين في كلية الآداب لهدم مقومات الأمة المسلمة وشخصياتها، ووصفه بالقديمة، وقال إن هذه الجماعة تعمل في كلية الآداب وجريدة السياسة، وأنها تعمل على التشكيك في الدين وتقليد الأفرنج فيما يسهل التقليد فيه من المنكرات، بل نراهم يعنون بتحقير آداب اللغة العربية ليجردوا الأمة من هذا الفضل الذي يفضلها على غيرها من الأمم.

وقد لعب عهد دراسة طه حسين في مصر وفي فرنسا، وتقلبه بين مختلف المناصب دورا هاما في تشكيل ثقافته البائنة كل البون من ثقافة ما اعتادته مصر الحديث، فلا شك أن يكون مؤلفاته وكتبه متأثرة بهذه الثقافة وتلك.

[٢٠٦] الجمني،عمر مقداد. *طه حسين مؤرخا*.ط٢.ج٢. مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.٢٠١٣.ص٣٨٦.
[٢٠٧] الجندي،أنور. *طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام*. ص ١٢٨.

وتأثر طه حسين بمذهب سانت بيف في قطع علاقة الأدب بالفكر والدين، وحاول لجعل الأدب الذي هو قطاع من الفكر لا ينفك عنه متصلا به في مفهوم الإسلام الجامع، وجعله متحررا وذهب إلى أبعد غايات الحرية غير مكترث قيود الأخلاق والسلوك، يقول سانت بيف " كيف يمكن للأدب أن يكون فنا إذا خضع لكل ما تحمل الأديان من حقائق أو من أساطير دخيلة"[٢٠٨] وطه حسين ردد هذا الرأي دون أن يعتني بأن الدين الذي ينتسب له شأن غير هذا الشأن وأنه يحمل الحقائق وحدها ولا يحمل معه أي أساطير موروثة أودخيلة.

فينعكس في كتابة تاريخ الإسلام عند طه حسين ثقافة مزيجة حصل عليها من الصبا من بيئة البيت والكتاب، وثقافة نالها من قراءة كتب المفكرين الأجانب.

محور البحث حول كتاب 'على هامش السيرة'

يدور البحث عن كتاب 'على هامش السيرة' رئيسياحول مقصد طه حسين وراء كتابة سيرة الرسول ﷺ، وكشف مدى الفنية في الكتاب، ومكانة الكتاب بين الأدب العربي السردي. قصد طه حسين للإثبات بأن الأدب العربي أدب حي خالد، وأن كتاب 'على هامش السيرة' ليست سيرة محققة للعلماء والمؤرخين، "لأني لم

[٢٠٨] نفس المرجع. ص ١٣.

أرد بها إلى العلم ولم أقصد بها إلى التاريخ"[٢٠٩]. أما فنية السرد في كتاب 'على هامش السيرة' وقد بلغت نضجا واكتمالا، ومعظم قصص هذا الكتاب استخدم فيه الكاتب الحوار كتقنية السرد، حتى إن الحوار غلب السرد في بعض الأماكن، " وقد بدا هذا الأسلوب في ملء بعض الثغرات، وكان واضحا أكثر في ملء الثغرات لاستكمال ما نقص من حوار الشخصيات"[٢١٠]. أما الكلام عن مكانة الكتاب بين الأنواع الأدبية، فيمكن القول بأن الكتاب يشتمل على النوعين من العمل القصصي، ففيه القصة القصيرة التي تهتم بتصوير الشخصيات والنماذج البشرية، وفيه أيضا الرواية التي تهتم بالأحداث وتسلسلها، وفيه مايسمى بالقصة الذهنية، وقصة "الفيلسوف الحائر" في بداية الجزء الثاني مثل لمصارعة فكرية تختلط بالمذاهب والأفكار النوع من القصة.

وطه حسين صور كل ما يصدر عن شيئ حقيقي حين رآه في عصره وأيامه، وتلك التجربة التي ظهرت منها القصة الذهنية كانت مديدا من التراث القديم، واستعانت بالشخصيات التاريخية الخيالية بعض الشيء،"فلم يتناول ماهو خاص أشد الخصوص حتى لتعدو عليه مسحة التاريخ فتمحو قيمته الفنية، ولم يتناول ما هو قريب إلى الحفريات وإحياء الآثار، بل تناول ماهو حي خالد باق"[٢١١].

---

[٢٠٩] حسين، طه. *على هامش السيرة*، ج١، ص ٥.

[٢١٠] الحضيري، محمد حامد. *السيرة النبوية في الأدب العربي الحديث*. ص ١٠٨ .

[٢١١] فاروق خور رشيد . وأحمد كمال زكي. *محمد في الأدب العربي*. بيروت: منشورات اقرأ. د.ت. ص ١٠١.

وعبر طه حسين عن نفسه تعبيرا مباشرا، وأتى بالحَدَث التاريخي اختياريا فنيا واستدعاء وجدانيا لتكتمل صورة التعبير.

طريقة طه حسين في كتابة 'على هامش السيرة'

عرض طه حسين جميع أفكاره الإسلامية من زاوية التاريخ، ضمن قوالب تاريخية، خلال حوادث تاريخية، واتخذ فيها طريقة التصوير المتتابع، ومن سماته الفنية أيضا الإلمام بالسجع الخفيف غير المتكلف حين تدعو الحاجة إلى إشاعة لون من النغم في الحديث،أو حين يتطلب الموقف بعض التأثير بموسيقي الكلام. على أن هذا السجع في كثير من الحالات لايأتي في كتابة الجمل فإن السجع التقليدي إنما يأتي بين كلمتين متجاورتين في الجملة الواحدة. وقد يجاوره بعد ذلك سجع بين نهاية جملتين كقوله "وكان الشيخ مهيبا رهيبا" وكان فخما ضخما" كما في الصفحة الأولى من الجزء الثالث في الكتاب.

واعتمد طه حسين في كتابة 'على هامش السيرة' على سيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، وتاريخ ابن جرير الطبري، وعنوان الكتاب يدل على أسلوب الذي يريد أن ينتهج في هذا الكتاب، وليس من مقصده التعمق في أحداث السيرة أو البيان في وقائعها، وفي حد قوله إنه لا يريد أن يحضر أمام القارئ القواعد العلمية أو المعضلات التاريخية التي تحيط بسيرة الرسول ﷺ، وإنما هي صورة تمثلت في

نفسه فأحب أن يقدمها للقارئ، ولم يجر قلمه لكل أحداث السيرة كما هي تظهر عند ابن إسحاق ومن اقتبس منهم طه حسين، بل اتخذ من بعضها مادة للأسلوب القصصي للسيرة، وهذا جلي في قصة حفر زمزم، وزواج عبد الله من آمنة الوهبية، أم النبي ﷺ، ووفاة عبد الله والد النبي ﷺ. ويقتصر طه حسين بمثل هذه الحادثة فيما قبل مولد النبي ﷺ، إذ أن هذه مسهبة ومطولة عند القدامى من أصحاب السيرة، والأحداث في الفترة من المولد الرسول ﷺ إلى البعثة ولم يأت منها إلا نزرا قليلا، وهي استغرقت صفحات في كتب القدماء.

تحليل أبواب كتاب 'على هامش السيرة'

الكتاب في ثلاثة أجزاء، والجزء الأول يحتوي على مقدمة و١٢ فصل وهذه الفصول هي: حفر زمزم والتحكيم والفداء والإغراء والبين والقضاء والردّة والطاغية والبشير وراهب الإسكندرية واليتيم والحاضنة والمراضع والبر. وهذه الأبواب وصف لحال العرب قبل النبوة، وفيه وصف لبيت عبد المطلب، ومكانة عبد المطلب عند قريش، وحفر زمزم ونذر عبد المطلب بالذبح العاشر من ولده، ومجيئ أبرهة لهدم الكعبة وموقف عبد المطلب منه وزواج عبد الله بآمنة ووفاة عبد الله ومولد النبي ﷺ ووفاة آمنة وحضانة أم أيمن والرضاع عند حليمة، وكل هذه الأحداث أسهب فيها الكاتب بصورة قصصية ممتعة، وهو يورد في أثناء الفصل أو في ختامه رواية من كتب المراجع الذين اعتمد عليها في تأليف الكتاب.

ويتضمن الجزء الثاني من كتاب 'على هامش السيرة' على خمسة فصول وهي: الفيلسوف الحائر وراعي الغنم وحديث باغوم وصاحب الحان ونادي الشياطين. وفي الفصل الأول : "الفيلسوف الحائر" يذهب طه حسين بالقارئ خارج الجزيرة العربية ويبين ما يحدث هناك من الاختلاج النفسية قبيل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول على لسان أندوكليس" الوثنية الآن سبيل اللذة وراحة النفس. والمسيحية الآن سبيل المجد والثروة"[٢١٢].... ويأتي بحيرا الراهب بدوره هنا بما رأى الرسول ﷺ مع عمه عبد المطلب، ويورد مناقشة العرب في محمد ﷺ بعد مجيئه، كما في قصة صبيح الرومي مع زيد بن عمرو ،و "فصل راعي العنم" تقص قصة خديجة الخويلد وذهاب محمد ﷺ بعيرها إلى الشام وزواجها مع الرسول ﷺ، وفصل "حديث باخوم " تتحرك القصة بشضخصية "باخوم" وهو شيخ نصراني، يتجول في البلدان ويصل إلى مكة يجدد الكعبة بإشارة من قريش ويصف لقومه ماحدث بين قريش في وضع الحجر الأسود، ورضاهم الأمين حاكما في الخصام. وفصل الرابع " صاحب الحان" يبدأ بذكر شباب قريش وقد شارك معهم رومي يسقيهم الخمر ويلذهم بالسمر، وفي أثناء الكلام يشكك الرومي القريش في أمر آلهتم في تجديدهم البيت وهي تنقل كما ينقل المتاع، وسقوط الآلهة، وتشك قريش في أمرهم بتحويل الآلهة لتجديد الكعبة، وأثناء ذلك يظهر

[٢١٢] حسين، طه. *على هامش السيرة*. ج . ص ١٦٨.

الشيطان أمامهم، ويلومهم في تسليمهم لتحكيم الأمين، ولكن الوليد بن المغيرة يطمئنهم بألا يتعرض للأمين بسوء وينصحهم صفوان بن أمية أن لا يجهر هذا الأمر. والفصل الخامس "نادي الشياطين" وهو الفصل الأخير في هذا الجزء، وفي هذا الفصل يأتي ذكر مبدأ الوحي، وهو بطريق مناقشة الشياطين عما انقطع عنهم أخبار السماء، فيفتشون سببه ورأوا أن ذلك من جهة العرب، ويختتم هذا الفصل بذكر عودة الرسول ﷺ من غار حراء مرتاعا سعيدا. وفي ختام جميع الفصول في هذا الجزء يعلق طه حسين اقتباسا من ابن إسحاق أو ابن سعد أو ابن هشام. وأرخ لهذا الجزء سبتمبر ١٩٣٧.

وفي الجزء الثالث من الكتاب ١١ فصلا وهي: صريع الحسد وسيد الشهداء وذو الجناحين وحديث عداس ومصعب بن عمير وطريد اليأس ونزيل حمص والوفاء المر وطبيب النفوس وشوق الحبيب إلى الحبيب والقلب الرحيم.

وفصل "صريع الحسد" يذكر فيه بداية الدعوة وما لاقى الرسول ﷺ من إيذاء وهجرته إلى الطائف وغزوة بدر ومصرع أبي جهل، ودور خالد بن الوليد في غزوة حنين وفتح مكة كل هذه تأتي كسلسة قصصية، يبدأ بحوار بين أبي جهل والوليد بن مغيرة. ويأتي طه حسين أثناء الكلام الذي جرى بين الوليد بن مغيرة وعمرو بن هشام بالإصلاحات التي أتى بها الرسول ﷺ في مناسك الحج، وأنّ هذه الإصلاحات إنما جاءت بعد أن قتل عمرو بن هشام المعروف بأبي جهل.

ومن الصفحة ٣٩ وما بعده من هذا الجزء يذكر أسماء معظم ألد الخصام للرسول ﷺ في مكة. وفي الصفحة ٤٢ وما بعدها في صفحات يذكر الكاتب الصلح الذي جرى في دار جدعان، وزواج الرسول ﷺ بخديجة بنت الخويلد، ووضع الحجر الأسود في موضعه تكرارا.

والفصل الثاني "سيد الشهداء" بيان لشجاعة حمزة بن عبد المطلب ﷺ واشتشهاده في غزوة أحد. والفصل الثالث " ذو الجناحين" يقص قصة جعفر أبي طالب وشهادته في معركة مؤتة، تسرد هذه القصة صورة تظهر أمام شيخ، وقد عاشت هذه الصورة مع جعفر ﷺ طوال حياته، ويبرز طه حسين ملكته الفنية فيها ويقول للتعبير عن حالة بين النوم واليقظة جملته" وها هو يفيق من حالة تلك التي لم تكن نوما ولا يقظة"[٢١٣]، ويورد بيتين لأبي تمام على لسان تلك الصورة لتكون هذه النصوص قطعة فنية ممتازة. والفصل الرابع من هذا الجزء " حديث عداس" وفيه هجرة الرسول ﷺ إلى الطائف وما عانى فيها من إيذاء ومجيئ عداس إليه، ويبدأ الفصل بكلام عتبة بن ربيعة.

والفصل الخامس " مصعب بن عمير" في هذا الفصل يدخل إلى قصة مصعب بن عميرﷺ مباشرة،فيبدأ بذكر أوصاف مصعب بن عمير " كان غض الشباب

[٢١٣] نفس المرجع. ص ٣٥٤.

معتدل الخلق ناضر الوجه"[٢١٤]. ويبين قصة إسلامه وبلائه ببدر وشهادته في أحد، وفي هذا الفصل يأتي ملا حظتان من طبقات ابن سعد. والفصل السادس " طريد اليأس" فيه عبد باسم "لسياس" وعلى لسانه تتضح قصة المعذبين مثل خباب وعاصم ﷺ. والفصل السابع "نزيل حمص" يبدأ بحوار بين عمير بن عبد الله السلمي ومحمد بن نصر، وفي هذا الفصل يأتي شخصية جبير بن مطعم ليحكي قصة الوحشي، وإسلام وحشي بعد سنوات. والفصل الثامن " الوفاء المر" قصة مخيريق من يهود خيبر وزوجته أسماء وابنه اليتيم كعب، وهذا الفصل بيان لميثاق الرسول ﷺ مع يهود خيبر، وما نقضوا العهد وقامت بين الرسول ﷺ واليهود حرب، وقتل مخيريق. والفصل التاسع "طبيب النفوس" وفي هذا الفصل إسلام صفوان بن أمية والحارث بن همام، بعد ما كانا ألد الخصام لمحمد صلى الله عليه وسلم، وبينما كان يحاوران ويعاقران في يوم من الأيام بعد فتح مكة وكان يظهران الغضب فيما لاقى قريش يوم فتح مكة، إذ دخل عليهما رسول الرسول ﷺ يستعير من صفوان الأسلحة لغزو هوازن في غزوة حنين، وبعد انتهاء الغزوة ترد الأسلحة إلى صفوان مع مال كثير من الغنيمة، ولما رأى صفوان معاملة الرسول ﷺ أسلم، ويقول طه حسين "قال صفوان : وصلته رحم،فما عرفته إلا رجل خير، وما أرى إلا أن الله منحه القدرة على تطهير القلوب من الحقد

[٢١٤] نفس المرجع. ص ٣٦٧ .

والبغض، ومن الضغينة والإثم، هلم سيروا معي إليه، وقد آن لغمرة الجهالة أن تنجلي، وآن لصفوان بن أمية أن يؤمن بمحمد وما أنزل إليه من حق"[٢١٥]، والفصل العاشر "شوق الحبيب إلى الحبيب" قصة زيد بن حارثة، مولى الرسول ﷺ، من رقه ثم مجيئ أهله إلى الرسول ﷺ، واختيار زيد الرسول ﷺ، وزواج زيد بزينب وتطليقه إياها ثم زوجها الرسول ﷺ، حتى استشهاد زيد ﷺ بغزوة مؤتة. وفي هذا الفصل يذكر طه حسين آيات من سورة الحجرات في زواج زيد بزينب. ويعلق آخر الفصل تعليقا من ابن سعد عن الواقدي. والفصل الحادي عشر "القلب الرحيم" حديث حنظلة مع أمير دمشق في عهد عمر بن عبد العزيز، ويبين حنظلة بعض موافق الرسول ﷺ في الرحمة والرأفة، وهنا يلمح طه حسين على لسان حنظلة أن معجزة الرسول ﷺ هو القرآن وليس في حياته للعجائب شأن كثير حيث يقول" وإنما أرسل ليتلو على الناس قرآنا يتحدث إلى عقولهم فيملؤها هدى، ويتحدث إلى قلوبهم فيشعرها رحمة وبرا، ثم لا يخلو أمره من هذه المعجزات التي تبهر العقول وتسحر الألباب، دون أن تحدث في طبيعة الأشياء حدثا أو تتجاوز بعادات الناس الجارية طريقها المألوف! إنما هي معجزات ممتازات يراها الناس مألوفة يسيرة"[٢١٦] وفي هذا الفصل إشارت إلى بعض المراجع.

[٢١٥] حسين، طه، *على هامش السيرة*، ج٣. ص ٤٠٣.

[٢١٦] ح نفس المرجع. ص ٤١٦.

الأحداث في كتاب 'على هامش السيرة'

وتدور أحداث الكتاب ما بين اليونان والشام والعراق وفارس واليمن والجزيرة العربية ومصر والحبشة، ومعها يصور ميلاد الرسول ﷺ الذي يستعد له العالم ويشتاق لرؤيته واستقباله والخلاص على يديه. ثم يذهب طه حسين إلى شبان يونانيين وثنيين ويلفظون سرا بوثنيتهم الآفلة بعد أن انتشرت المسيحية في بلادهم وأصبحت دين القيصر والدولة وعامة الناس، ثم يأتي طه حسين بشبان مسيحيين يخرجون من بلادهم بحثا عن الدين الجديد يلتمسونه فيما حولهم من بلاد وثقافات ومنها البلاد العربية الصحراوية البعيدة التي لا يعرف سلطان القيصر طريقة إليها، فيصل بعضهم ويموت آخرون دون الغاية، وكذلك يري شبان عرب وثنيين يخرجون من بلادهم إلى الشام وبيزنطة من أجل هذه الغاية نفسها فيصبح بعضهم نصارى بيزنطيين ويعود بعضهم إلى الوطن يبشرون بشيئ من المسيحية حتى يقدر لهم أن يشهدوا الحق في ميلاد الرسول ﷺ.

ثم يتجول الكاتب بالقارئ في الشام والعراق، مع سلمان الفارسي حتى وصل إلى يثرب، ويحدث عن شبابه قبل اعتناق الإسلام، كل على منهجه المبتكر، ثم ينتقل طه إلى تاجر اسكندراني، ينتهز فرصة غضب القيصر لما لقيه مسيحي نجران في اليمن في اضطهاد الملك اليهودي "ذي نواس" فيجهز أسطولا ليبحر به جنود النجاشي المسيحي حليف القيصر البيزنطي إلى اليمن حتى يثأروا لإخوانهم في

الدين ويفتحوا الطريق لتجارة الروم إلى قلب الجزيرة العربية، هكذا تصل الحكاية إلى أبرهة الحبشي وما لاقاه من أهل مكة، ويصف أم النبي ﷺ وأباه في صورة قصصي تحن إلى استماعها الآذان، ثم يرى الكاتب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم منذ أن كان يتيما تعطف عليه أكرم الحواضن إلى أن كان راعيا للغنم، وبين خروجه للدعوة وما لاقاه من حسد الحاسدين وما إلى ذلك من أمر النبوة والصراع بين الحق والباطل في أحاديث منفصلة تتباعد المدن والسنوات حتى تتجمع في النهاية خيوط أحاديثه وشخصياته مكة أوفي يثرب أو في غيرهما من المدن والبلاد التي شهدت ظهور الرسالة الجديدة أو كان لها شأن في تاريخها.

طريق تقديم الأحداث في كتاب 'على هامش السيرة'

وتعتمد كتب السيرة على أحداث ووقائع، وهي سجل لها، وقد تمتلك الرجال والسنوات قسطا وافرا في السيرة، ولكن طه حسين، لم يعتن بالأحداث مباشرة، ولكنّه اتخذها خامة لأسلوبه القصصي، حتى يعتبر كتابه مرجعا للسيرة، غير أنه يفيد القارئ شعور محبة تجاه شخصية الرسول ﷺ، في صباه وفي زمن دعوته على حد سواء.

تبدأ السيرة وأحداثها في صورة قصة يختار لها عنوانا يجذب الانتباه مثل، حفر زمزم، والفداء، والإغراء، والبر، وذو الجناحين، والوفاء المر، وبعد ذلك يصوغ

الأحداث صياغة قصصية، حتى يبلغ إلى قمة الجودة في الفن القصصي، والجزء الأول والثاني من الكتاب فتح بابا لجدال ونقاش شديد، من وجهة أدبية ودينية.

وفي الجزء الأول بين طه حسين عن زمن الجاهلية، والأدوار التي مر للرسول صلى الله عليه وسلم، من اليتم والحضانة والمراضع، هذا الجزء يبدأ بقصة حفر زمزم، وكذلك نذر عبد المطلب بذح عبد الله أبي الرسول ﷺ، حتى تصل القصة إلى زواج عبد الله بآمنة الوهبية، ووفاته عقيب ذلك، حينما كان عائدا في عير لقريش من الشام إلى مكة، ونظر طه حسين في رواية هذه القصة، اشتهارها عند بعض أصحاب السيرة، ولم يعتن بطرق إثبات الأخبار، وليس ذلك من شأنه ولا من همه، وإنما نظر إلى المرويات، ثم صاغها في قالب قصة يجذب نفوس القارئين، وإن كان الكتاب مملوءا بالمرويات والأخبار الباطلة، وقد نجح طه حسين في بعث الشفقة والمحبة نحو الرسول ﷺ اليتيم، واستطاع ذلك بخياله الواسع ومهارته الفنية وقدرته اللغوية لربط الأحداث بعضها ببعض بأروع طريق ممكن. ولتحقيق هذه الغاية اعتمد طه حسين على الشخصيات المتخيلة غير موجودة في الروايات المتداولة.

والجزء الثاني من الكتاب فقد جاء فيه كثير من الحديث من الأدب اليوناني، ولعل هذا نتيجة اعتقاد طه حسين بأن الأدب العربي مدين لأدب اليوناني، وهو

الذي صرّح مرة حاجة تعليم الأدب اليوناني في الجامعات المصرية، وتصدى بنفسه له.

والجزء الثالث من الكتاب، هو أقرب إلى سيرة الرسول ﷺ وأجدر للدراسة، وأنه يسهل الطريق لبيان رسالة الرسول ﷺ، وظهور نور الرسالة. وهو يبدأ بحوار طويل بين الوليد بن المغيرة، وبين أخيه الفتى عمرو بن هشام، وفي هذا الحوار يظهر طه حسين ماحاط بالعرب وقريش من الفوضى قبل البعثة، وأحوال العرب قبل مبعث الرسول ﷺ، شأن كل كتب السيرة في كل زمان باختلاف صورة سردهم، ولكن طه حسين استخدم له منهجا غير مسبوق إليه، حتى صار بيانه صورة من صور قصصية أو رواية. وبهذه المقدمة القصصية يمهد الطريق لظهور هدى الرسول ﷺ.

واهتمامه البالغ بالشخصيات والأحداث مما يبرر القول بأنه اتخذ صورة قصصية أو روائية، فأولا شخصية عمرو بن هشام بن المغيرة المشهور في كتب السيرة وفي التاريخ الإسلام بأبي جهل، ويأتي دور أبي جهل في الكتاب رئيسيا تحت عنوان "صريع الحسد" وكان متطلعا إلى منزلة رئاسة في قومه، ولما أحاط الناس الرسول ﷺ. بالحب والشفقة وسموه بـ"الأمين" حسد أبو جهل على الرسول ﷺ، اندلعت لهيب هذا الحسد في نفس أبي جهل حينما جاء الرسول ﷺ بالحق من

عند الله، فعاداه وآذاه، بل صار من المقدمين ممن آذوه، ولم يشف هذا الحسد حتى صرع أبو جهل في معركة بدر، ولسرد هذه الحادثة، اخترع طه حسين صورة هي أقرب إلى الرواية منها إلى السيرة، وفي شخصية أبي جهل يرى طه حسين شيئا من التناقض، وفيه خيلاء وغرور، ومع أنه يظهر التواضع وينصت مع الأجانب، ويذهب إلي شخصية خيالية وهو نسطاس الرومي، ويشاركان في شرب الخمر والمجون حتى ينتهي الليل. ولا يمنعه هذا من الذهاب إلى بيت ورقة بن نوفل صباحا، ويسمع منه إلى حكمة العظماء، وعلوم الأديان السابقة، وأيام العرب وأخبارهم، ويبين طه حسين الدوافع وراء هذا في صورة حوار جري بين نسطاس وبين الوليد.

"الوليد - ما الذي يعجبك من نسطاس ومن ورقة؟ فيجيب إني أجد عندهما الراحة من اللذة والألم جميعا، وقال الوليد "لقد شب عمرو على الطوق إني لأعرف فيك أنفة مخزوم وكبريائها"[٢١٧] وهذه البداية لهذا الجزء فيها شيئ من التشويق، وقد أحسن الكاتب وبلغ قمة الجودة حيث جعلها مقدمة هذا الجزء، وصرح وأكد شغفه بالأسلوب القصصي في الحقائق التاريخية، وهذا ما يميز طه حسين من معاصريه ومن قبله في كتابة السيرة، وهو أمضى قلمه في كتابة القصة

[٢١٧] نفس المرجع. ص ٢٨٧.

بنفس ألمعية خبيرة، ونفس التقنية استخدمها حينما عرض تاريخ الإسلامي وسيرة رسوله ﷺ.

ثم إن الكاتب يمهد الطريق لمطلع نور الرسول ﷺ، وذلك من خلال الحوار الذي جرى بين أبي جهل وورقة بن نوفل، ونسطاس، ويظهر من الحوار هذا السبك الفني الجميل، ولغته القوية، في وصف الحالة النفسية لكلا الجانبين، : الفتى والشيخ، وبعد كل جملة نارية يقولها الشيخ للفتى بقوله، اشرب، فيسقيه للذة جسمه، ليشبع شهوته، كما يسقى عقله بكلماته المحرضة، وطه حسين في هذا يرسم طريقة فنية خاصة به، يخرج بها من أسلوب سرد بعض وقائع سيرة الرسول ﷺ، إلى جو آخر، وهي طريقة مفاجئة، فيها انتقال مفاجئ، ولم يأت مثلها في رواياته الأخرى، فصارت منهجا مختلفا، خرج فيه عن الأسلوب التقليدي في التعريف بسيرة الرسول ﷺ.

والشخصية الثانية، وهي نسطاس الرومي وهي شخصية خيالية، اخترعها طه حسين فساعدته لإظهار جانب الشر في أبي جهل، وفي نفس الوقت يربط بين ورقة بن نوفل ونسطاس مظهرا تجاوبهما في العلم عن أنباء النبي المنتظر، ولما سمع أبو جهل هذه الأنباء يضاعف نفسه حسدا وحقدا للرسول ﷺ.

ويستخدم طه حسين الآيات القرآنية لدعم بنائه القصصي، ويتبع نسطاس الرومي طوال هذا الباب، ويذكر صديقه عمرو بن هشام ليكون نهاية منطقية فنية لقصة هذا الباب وهو "صريع الحسد". واكتمل فيه تتبع نمو الحدث، وتصاعد خط الدرامي خلال عمله مكتشفا عن انتصار الحق، وانتصار رسول الله ﷺ، وارتفاع راية الإسلام، ونكوس راية الحسد والبغي والظلم والشرك.

والشخصية الثالثة وهي شخصية حمزة ﷺ، ويصف طه حسين شخصية حمزة، في "سيد الشهداء"، والوصف عن حمزة جعله الكاتب ضمن حوار بين الأمير، وصاحب الأمير، وبين الشيخ، وقد أجاد في وصفه حين يتكلم عن استشهاد حمزة ﷺ، "كان إسلامه عنيفا، وكان بلاؤه في الإسلام عنيفا، وكان مصرعه في الله عنيفا، وكان ما ترك من حزن عليه ووجد به وحب له عنيفا أيضا"[٢١٨].ويبلغ الوصف عن حمزة في قمة الجودة والحسن حينما يقول الأمير للشيخ في نهاية الكلام " بدأ أمر حمزة بالعنف، وانتهى إلى الرحمة واللين. . .. رحم الله حمزة، فما ينبغي أن ذكره شرا، وما ينبغى أن يثير ذكره إلا المودة والرحمة، والنصح للمسلمين، ولأمير المؤمنين"[٢١٩].وبهذه العبارات وبمثل هذا الوصف ارتقى طه حسين بسيرته من طور سرد التاريخ إلى البيان القصصي، وإلى المنهج الروائي.

[٢١٨] نفس المرجع. ص٣٤٧.

[٢١٩] نفس المرجع. ص ٣٤٩ .

ويأتى جعفر ﷺ بدوره بالشخصية الرابعة في السيرة، وذلك في باب " ذي الجناحين" وفي الحديث عنه اتخذ طه حسين مقدمة أدبية واقعية، تتجلى بالشوق والحنين، كأنما رسمه قطعة شعرية، "أقبلت تسعى رويدا رويدا مثل ما يسعى النسيم العليل، لا يمس الأرض وقع خطاها، فهي كالروح سرى في الفضاء، نشر الليل عليها جناحا فهي سر في ضمير الظلام، وهبت للروض بعض شذاها، فجزاها بثناء جميل"[٢٢٠] وواضح أن هذه المقدمة ملائم المقام، إذ كان من المعترف أن جعفر ﷺ صاحب النفس الحلوة الهادئة، وهو يشارك مع أصحاب الرسول ﷺ في المحنة والعداء، واقتحم الأهوال، ويأبى إلا أن تكون له حظ في حسن البلاء واحتمال أثقال الجهاد. هنا يبرز جمالية الكاتب في ربط الأحداث والبيان حيثما تناسب منزلة جعفر بن أبي طالب، وهاتان القصتان مع تفوقهما في الجودة والرونق، وهما لم تخلا من الإسهاب، كأنما أراد طه حسين إبراز قدرته اللغوية بإلباس معانيها بألفاظ بديعية وجمل متناسقة السبك والربط.

وعداس النصراني هو الشخصية الخامسة في السيرة، وقد سرد الكاتب الحوار الذي جرى بينه وبين الرسول ﷺ.

[٢٢٠] نفس المرجع. ص٣٥١.

ثم تأتي شخصية الوحشي، وهو الذي قتل حمزة ﷺ في غزوة أحد، ويقول عن آخر أيام الوحشي، إنه استقر أخيرا في حمص الشام، وكان مدمن الخمر، على الرغم من أنه كان مسلما. وقد أوضح علماء الحديث ضعف قصة وحشي شرب الخمر وهم يصححون باقي القصة.

والكتاب هو الأول في اللغة العربية من نوعه، الذي اتخذ من حقائق السيرة وبعض الأساطير فنا جذابا، وهو يشكل صورة صادقة للجزيرة العربية في الفترة بين مولد الرسول ﷺ وانتصار دعوته.

وأظهر طه حسين من أحداث كتابه 'على هامش السيرة' أسلوب لم تعهده كتابة السيرة، تارة تحكي القصة مباشرة بذكر الأشخاص، وتارة بجلب شخصا آخر لبيان الشخسيات الأخرى.

أسلوب 'على هامش السيرة'

أما أسلوب الكتاب فيتمثل في التصوير الفني، وهو يقرب السيرة إلى المتلقين، وييسر لهم استيعابها، ويمكن لهم أثرها في النفوس، وتضمن من العبارات ما يعد مصدر إثارة في رسمه للشخصية الفنية. فيجمع بين التأريخ والفن، ويؤسس بعض القيم الأخلاقية الإسلامية في بناء قصصي جذاب ومشوق.

وحول هذه الخاصية يقول محمد رجب البيومي "فإذا تركنا مأخذ الاختيار الناقص إلى مأخذ آخر في كتابة السيرة المطهرة، فإننا نجده فيما شغف به بعض الباحثين من وفرة التصوير الخيالي للمواقف، فوق ما تتحمله من ألوان تباعد بينها وبين الواقع، ولا أنكر وظيفة الخيال في تقريب الواقع وتحديد، بل أدعو إليه في كتابة القصة الأدبية، وهوما تحقق فعلا لدى بعض الأدباء"[٢٢١]، وهو يضيف بقوله" إن بعض الباحثين – لاالروائيين – قد شغف بالتصوير الخيالي في بعض المواقف النبوية، فكان ذلك موضع نظر لدى ناقديه، والكاتب الكبير حسن النية حقا، ولكن حسن النية لا يجيز للخيال أن يختلط بالواقع في تحرير سيرة مطهرة، يفترض في كل سطر بها أن يكون من لباب الحقيقية، إذ هو مناط القدوة، ومجال الاحتذاء"[٢٢٢] وكان مقصد طه إرضاء نفسه وعاطفته في تصوير النفس البشرية، في صراعاتها وتطلعاتها، والكشف عن خباياها وتجاربها في فترات اضطرابها والتماسها للنور هربا من الحيرة إلى اليقين في وقت اتجه فيه العديد من الكتاب إلى السيرة بعقول تناقش القضايا المتعلقة بحياة الرسول ﷺ، وتصرفاته، فقدّم طه حسين أمام القراء صورا من الإيمان الذي تقشعر به النفوس فتنفق ما في وسعها من راحة الجسم ونعيم الحياة وجمالها حفاظا على ذلك الإيمان.

[٢٢١] البيومي، محمد رجب. *بين الأدب والنقد*. ص ٢٧٩.

[٢٢٢] البيومي، محمدرجب. *بين الأدب والنقد*. ص ٢٨٠.

وكتاب على هامش السيرة يغلب عليه البناء القصصي في كتابات طه حسين التاريخية التي تنزع منزع فنيا، فالكتاب مجموعة من القصص القصيرة والطويلة، لكل منها بداية ونهاية، يتوسطهما تأزم الأحداث تدريجيا حتى يتحول إلى عقدة يليها انفراج، ويحرك الوقائع في صورة قصة بطل أو شخصية رئيسية تحيطها مجموعة من الأشخاص، ويتحرك الجميع ضمن عناصر الزمان والمكان، وهذه القصص تبعث بعض الأساطير القديمة المتصلة بظهور الإسلام لتحول، في حبكة روائية بالغة، إلى عمل فني.

ورأى محمد نجيب أحمد التلاوي إلى أن'على هامش السيرة' ملحمة قصصية، فيها سمات كثيرة للملحمة[٢٢٣]. وإذا كانت الملحمة تكون شعرا جاء بها كتاب 'على هامش السيرة' على صورة نثرية، ويقول عباس محمود العقاد "أحسب أن الدكتور قد ملئ إعجابا بالنسق الهوميري في تمثيل وقائع الأبطال وأبناء العصور فأراد أن يخرج إلينا إلياذة نثرية عربية يشترك فيها عالم الشعر البليغ وعالم التاريخ الصادق" [٢٢٤]

[٢٢٣] التلاوي أحمد، محمد نجيب. *طه حسين والفن القصصي*. ط١. دارالهداية للطباعة والنشر والتوزيع. ١٩٨٦. ص ٨٧.

[٢٢٤] العقاد، عباس محمود. *ساعات بين الكتب*. ط١. ج٣.بيروت:دار الكتب اللبناني. ١٩٨٤. ص٥٠٧.

وامتزاج البناء القصصي بالبناء السردي التاريخي ظاهرة جلية في كتاب 'على هامش السيرة'، ففي الفصل الأول من الجزء الثالث من الكتاب الذي يحمل عنوان " صريع الحسد" وموضوعه أبو جهل عمرو بن هشام، ينطلق فيه المؤلف انطلاقة قصصية باهرة وهذه الفصل أجمل وأروع ما كتبه طه حسين في السيرة "كان الشيخ مهيبا رهيبا، وكان فخما ضخما، قد ارتفعت قامته في السماء وامتد جسمه في الفضاء، وكان وجهه جهما عريضا..."[٢٢٥] يتواصل الفصل على هذا النمط صفحات طوال، يخلص للقصة غالبا وللحوار بعض الأحيان، بين هذا وذاك بإبداعية القصة.

وفي الربع الأخير من هذا الفصل يتغير بناء القصة فجأة، فإذا السرد التاريخي يحل محل القصة، وإن طه حسين ينصرف عن تصوير أبي جهل إلى مواضيع مختلفة من الدعوة ومن سيرة الرسول ﷺ، ينصرف إلى بيان صبر الرسول ﷺ على ظلم قريش له وللمسلمين، وعن الدعوة الجهرية بعد ما كانت سرية، وعن إسلام بلال وما كان من تعذيبه، وعن انتشار الدعوة بين الناس، وعن إسلام عمر ﷺ، وعن هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة، وعن خبر تمزق صحيفة المقاطعة إلا من اسم الله، وعن هجرة المسلمين إلى المدينة، وعن غزوة بدر وفتح مكة ووقعة مؤتة، وحينما يصف شخصية الخالد بن الوليد تجيئ إشارة إلى معركة

[٢٢٥] حسين، طه. *على هامش السيرة* . ج٣. ص٣٧٢.

يرموك التي وقعت في عهد أبي بكر ﷺ. وبمثل هذا التحول بين البناء القصصي وبين البناء السردي التاريخي فإن كتاب 'على هامش السيرة ' تبقى عملا فنيا مبنيا على التاريخ. إن فصل "الفيلسوف الحائر" مثلا لا يمكن أن يصدر "إلا عن انسان تشبع بتاريخ الدولة البيزنطية وتدهور الأوضاع السياسية والفكرية والدينية فيها في القرن السادس، بالفلسفة اليونانية ومدارسها المختلفة"[٢٢٦] .

وكان طه حسين من الذين يمثلون الاعتماد على الإسرائيليات والأساطير والروايات الضعيفة والموضوعة والترويج لها والتعامل معها علي أنها رواية أدبية تحتاج لعنصر الإثارة والتشويق حتى تلاقي قبول الجماهير والنجاح الفني.

وقد أراد طه حسين تنقية المادة الإسلامية في التاريخ لحياة الإسلام الأدبية، وأن يقرب السيرة إلى الناس من خلال الأسلوب المبسط، بعد أن باعدت الأساليب المعقدة بين السيرة والناس، فكتب الحياة الإسلامية بأسلوب جديد، وبنظرة عصرية، واستطاع جذب عدد كبير من المثقفين إلى قرائته، ووضع على عاتقه مهمة تنقية المادة الموجودة في بطون الكتب والمتون والأسانيد، وجعل أمله في كتابة السيرة الجيل الناشئ من الشبان، واذا استطاع الكتاب أن يلقي في نفوس الشباب حب الحياة العربية الأولى ويلفتهم إلى أن في سذاجتها ويسرها جمالا ليس أقل روعة. يقول في مقدمة 'على هامش السيرة' "فإذا استطاع هذا الكتاب أن

[٢٢٦] الجمني،عمر مقداد. *طه حسين مؤرخا*. ج٢. ص٥١٩.

يحيي إلى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة، وكتب الأدب العربي عامة، والتماس المتاع الفني في صحفها الخصبة فأنا سعيد حقا، موفق حقا لأحب الأشياء إليّ، وأثرها عندي"[٢٢٧]

وهو يعتقد أنه لو قرب إلى الناس فهم تاريخ الإسلام يفيد ويثمر ويحيي الأدب القديم، وهو لذلك يمهد لاستخدام الخيال في سرد بعض الأحداث ويرجو ألا يتضايق دعاة العقل، فيكون الكتاب أثر من آثار قراءة السيرة كما تلقتها روح طه حسين المبدعة وتصورت في خياله الخصب المثقف.

عرض أحداث 'على هامش السيرة'

وتدور أحداث الكتاب ما بين اليونان والشام والعراق وفارس واليمن والجزيرة العربية ومصر والحبشة، ومعها يصور ميلاد الرسول ﷺ الذي يستعد له العالم ويشتاق لرؤيته واستقباله والخلاص على يديه. ثم يذهب طه حسين إلى شبان يونانيين وثنيين ويلفظون سرا بوثنيتهم الآفلة بعد أن انتشرت المسيحية في بلادهم وأصبحت دين القيصر والدولة وعامة الناس، ثم يأتي طه حسين بشبان مسيحيين يخرجون من بلادهم بحثا عن الدين الجديد يلتمسونه فيما حولهم من بلاد وثقافات ومنها البلاد العربية الصحراوية البعيدة التي لا يعرف سلطان

[٢٢٧] حسين، طه. *على هامش السيرة*. ج١. ص١٠.

القيصر طريقة إليها، فيصل بعضهم ويموت آخرون دون الغاية، وكذلك يري شبان عرب وثنيين يخرجون من بلادهم إلى الشام وبيزنطة من أجل هذه الغاية نفسها فيصبح بعضهم نصارى بيزنطيين ويعود بعضهم إلى الوطن يبشرون بشيئ من المسيحية حتى يقدر لهم أن يشهدوا الحق في ميلاد الرسول ﷺ.

ثم يتجول الكاتب بالقارئ في الشام والعراق، مع سلمان الفارسي حتى وصل إلى يثرب، ويحدث عن شبابه قبل اعتناق الإسلام، كل على منهجه المبتكر، ثم ينتقل طه إلى تاجر اسكندراني، ينتهز فرصة غضب القيصر لما لقيه مسيحي نجران في اليمن في اضطهاد الملك اليهودي "ذي نواس" فيجهز أسطولا ليبحر به جنود النجاشي المسيحي حليف القيصر البيزنطي إلى اليمن حتى يثأروا لإخوانهم في الدين ويفتحوا الطريق لتجارة الروم إلى قلب الجزيرة العربية، هكذا تصل الحكاية إلى أبرهة الحبشي وما لاقاه من أهل مكة، ويصف أم النبي ﷺ وأباه في صورة قصصي تحن إلى استماعها الآذان، ثم يرى الكاتب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم منذ أن كان يتيما تعطف عليه أكرم الحواضن إلى أن كان راعيا للغنم، وبين خروجه للدعوة وما لاقاه من حسد الحاسدين وما إلى ذلك من أمر النبوة والصراع بين الحق والباطل في أحاديث منفصلة تتباعد المدن والسنوات حتى تتجمع في النهاية خيوط أحاديثه وشخصياته مكة أوفي يثرب أو في غيرهما من المدن والبلاد التي شهدت ظهور الرسالة الجديدة أو كان لها شأن في تاريخها.

نقد كتاب 'على هامش السيرة' من منظور إسلامي

موضوع كتاب 'على هامش السيرة' جزء من تاريخ الإسلام، فينبغي أن يقرأ هذا الكتاب في وجهة نظر إسلامي أيضا، فلا بد أن تكون روايات الأحداث فيه صحيحة مقبولة، والكتب التي اعتمد عليها طه حسين في تأليف هذا الكتاب لم تكن في معزل من النقد والتعقيب لأن أصحاب تلك الكتب كانوا "يتساهلون في رواية الأخبار التاريخية، كما نلاحظ عند ثقات المؤرخين مثل محمد بن إسحق وخليفة بن خياط والطبري حيث يكثرون من الأخبار المرسلة والمنقطعة، كما أن الطبري يكثر النقل عن رواة في غاية الضعف" [٢٢٨].وكذلك صارت مؤلفات طه حسين في التاريخ عرضة نقد من قبل المؤرخين والعلماء الإسلاميين لاحتوائها على تعارض التاريخ والعقيدة الدينة، وسبب ذلك يرجع إلى أن طه حسين اعتمد على آراء الأجانب الذين يسرون الحقد على العرب والإسلام. وكتاب 'على هامش السيرة' أيضا لم يكن في ملجأ من انتقاد العلماء. والدين أساسه الحقيقة والواقع لا يحتمل الأحداث الباطلة والروايات المخيلة لبناء أساسه وأحكامه

[٢٢٨] العمري، أكرم ضياء. *السيرة النبوية الصحيحة*.ص٣٩.

والحكم عليه، وكان العرب أكثر صدقا من الغربيين، وامتازت السيرة بجانب الصدق الفني عندهم، وهذا الصدق أكسب السيرة الحجم.

والمآخذ حول آراء طه حسين تتخلص كما يأتي ومنها كتابه 'على هامش السيرة'

١. آراؤه في الشعر الجاهلي أخذها عن جرجس صال ومرجوليوت.

٢. آراؤه في كتاب 'حديث الأربعاء' أخذها عن جورجي زيدان والأغاني.

٣. آراؤه في كتاب 'على هامش السيرة' اعتمد فيها على الأساطير والكتب الأجنبية.

٤. آراؤه في 'مستقبل الثقافة' : هي جماع ما أورده المستشرقون وكتاب التغريب عن حضارة البحر الأبيض والفرعونية.

وللباحثين أقوال عن طه حسين "سار في الأيام مسارا دار فيه حول موضوع طالب تأثر بالدكتور أحمد ضيف وبمستشرق آخر كتب كتابا عن الأزهر واسم الكتاب على ما أذكر (الأزهر) وبطله طالب اسمه منصور، أما كتاب 'على هامش السيرة' فأصله كتاب لمؤلفه الأخوين جيروم وسع فيه ومطط على طريقته"[٢٢٩]

وطه حسين في كتابه وجد مادة للأدب الأسطوري، واتخذه من الأساطير اليونانية والرومانية، وأعطى للأدب العربي غير طريقه المألوف، وعرض القارئ محاكاة

[٢٢٩] الحندي،أنور. *طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام*. ص ٧٠.

خالصة باسم التجديد، وأراد سيادة السيطرة الغربي على الفكر العربي، وزرع الأساطير والشبهات في روح سيرة الرسول ﷺ، كأنما فشل في بيان مقصده بطريق العقل، فاعتمد إلى الأساطير دبّجها بأسلوب رائع يجذب القراء، وقد اشتهر عنه أنه يقصد الانتقاص من السنة وأصولها، فخرج عمله منتزعا من السيرة.

ويقول أنور الجندي "وهكذا امتد بالدكتور طه حسين دون أن يجد حرجا من معارضة الفكر الإسلامي لآرائه، وعندما أحس طه حسين أنه أصبح في موقف لا يحسد عليه كتب على هامش السيرة وانتقل على معسكر الوفد، وحاول بذلك خداع البسطاء بأنه يكتب عن سيرة الرسول وأذيع بأنه قد عاد إلى الإسلام مع أن كتاب 'على هامش السيرة' تهكم صريح وقد كشف أمره صديقه وزميله في مدرسة التجديد الدكتور محمد حسين هيكل الذي قال أن اتجاه طه حسين هذا شديد الخطر ليس على الأدب وحده ولكن على الفكر الإسلامي كله لأنه يعيد غرس الأساطير الوثنيات والإسرائيليات في سيرة النبي مرة أخرى بعد أن ألقاها العلماء المسلمون وحرّروها من آثارها" [٢٣٠]

وملاحظة أنور الجندي يدل على الظروف التي سببت لجعل كتاب'على هامش السيرة' عرضة المهاجمين، لأن المستشرقين تابع طه حسين بالرعاية والتأييد

[٢٣٠] الجندي،أنور. *طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام*. ص ٩.

وتحدثوا عنه باحترام وبالغوا في احترامه وتقديره، وكانوا يدعونه إلى كل مؤتمراتهم وحتى الساعات الأخيرة لوفاته كانوا يهدونه جائزة، وأمدوه أيضا بالمال دون توقف، وقد ألف المستشرق الإيطالي عنه كتابا وأشرف عليه فرانشيكو جابريلي، وأسهبوا فيه دراسته للتاريخ والنقد والقصة والإسلام وفي هذا يقولون أن ما كتبه عن أدب اليونان وتاريخهم وحياتهم خير ما قدم للأدب الغربي، وأن كتابه على هامش السيرة قد كشف غوامض تاريخ المسيحية في الشرق المسيحية لا الإسلام.

ومهما يكن من نقد واتهامات حول كتاب 'على هامش السيرة' في إلقاء أحداث السيرة وسرد تارخها، فإن الكتاب قد فاز بقبول حسن وثناء جميل أوساط القراء والدارسين، وإن كثرة الدراسة التي نشرت حول الكتاب دليل على ذللك، والكتاب نال شهرته بما فيه من توليد الحب لقرائة كتب العربي للجيل الجديد.

الفصل الثاني

'عبقرية محمد ' والمنهج العلمي في سيرة الرسول ﷺ

العبقرية معنى واصطلحا

وقد جرى البحث في العالم الفكري عن ماهية العبقرية قديما وحديثا، واختلفت الأراء والأقوال في تعريف هذه الكلمة، ويكاد يتفق كل الأقوال على جوهرها، العبقرية شيئ يظهر في الحواس، وتندرج تحتها العجائب والتى تخرق العادات ويعجز الإنسان تعليلها وتفسيرها. وأحاط الغموض حول هذه الكلمة في اللغة العربية وفي اللغات الأوروبية على حد سواء، وهذه الظاهرة سماها الأوربيون "GENIUS". "و تعني الجن، ولا خلاف بين العربية واللغات الأوربية في هذه التسمية من حيث دلالتها، فالجن مخلوقات لها عالمها الذي يختلف عن عالمنا وماهيتها تتغاير عن ماهيتنا ويفصل بين عالمنا وعالمهم حجاب صفيق، لا شأن لنا باختراعه"[٢٣١] والعرب نسبوا كلمة العبقرية إلى وادي عبقر حيث كان الجن يسكن

[٢٣١] السداني، خالد. *منهج العقاد في دراسات الشخصيات الإسلامية*. ط١. المكتبة العصرية. ١٩٨٩. ص١١٣.

فيه "وادي زعم العرب أنه موطن للجن، ثم نسبوا إليه كل شيئ تعجبوا من حذقه وروعته، أو جود صنعته" [٢٣٢].وكانت العرب تنسب جميع من يظهر العجائب إلى ذلك الوادي، فوصفوا العبقرية بأنه المتميّز الذي لا يفوقه في عمله أحد، وكذلك العبقري من الأشياء هو شيئ مدهش ومحيّر، ويجاوز الأنواع التي ألفها الإنسان من جميل الفن وعجائب الصناعة. ومن الباحثين من فسّر العبقرية بالذكاء، ومن قال إنها أسمى مقدرة أصلية في الإنسان يمكن تصورها.

ودائرة المعارف البريطانية تعطي تعريفا أوضح وأشمل بأنها " أرقى يمكن تصوّره من معنى المقدرة المولّدة للابتكار، فهي شيئ خارق للعادة على وجه الإطلاق وأرقى حتى من القوة العلمية الفائقة، وإنها لتختلف في النوع اختلافا بيّنا عن الألمعيّة الممتازة. باعتبارها أنها مقدرة عقلية سامية لا ينقصها إلا تلك الموهبة الفذّة التي لاتقبل التفسير المحصور في كلمة عبقرية "[٢٣٣]

وهناك دراسة أخرى عن ماهية العبقرية، ومن القائلة بأنها صلاحية سامية فطرية لدراسة موضوع من المواضيع. فهي خصيصة تصويرية وإبداعية في جوهرها. فهي دائما خصيبة ومولّدة للجديد. وهذا التعريف يثبت للعبقرية

---

[٢٣٢] نفس المرجع. ص ١١٣.

[٢٣٣] عبده، سمير. *العلاقة المتبادلة بين العبقرية والجنون*. ط١. بيروت: دار الآفاق الجديدة. بيروت: ١٩٨٣. ص ١٢.

الوفرة والجدّة. ومن التعاريف البسيطة للعبقرية بأنها قدرة توجه صاحبها حيث شاءت لكونها أمرا غير طبيعيّ. "الإنسان العبقري يكون مملوكا للعبقرية، وهي تحوله إلى كتاب أو إلى حياة على مايشاء هو، وهي المقدرة التي يكون الإنسان مملوكا لها"[٢٣٤].

والعباقرة يكون لديهم موهبة غير مكتسبة ولا موروثة، تنشأ بالإنسان العبقري منذ الطفولة الأولى، ويوجّه عقليته ونفسيّته إلى ناحية الرفعة فيصير واحدا من الأفذاذ من غير تكلف.

النابغة والعبقري

وهناك كلمة النابغة التي توحي نفس معنى العبقرية، الفرق بين النابغة والعبقري، فالعبقري له غريزة وإلهام، أما النابغة ذو صبر ودأب واجتهاد يخلق ويبتكر حرّا لأن عمل الطبيعة الممثلة فيه أن تخلق وتبتكر حرّة، فالعبقري متطرف والنابغة معتدل. " وهذا التطرف في العبقري هو الذي يثير عليه سخط الناس ويلقي في روعه أنّه مجنون"[٢٣٥] فالعبقري عالم مستقل بنفسه، عالم من الأفكار والأخيلة والعواطف، يختلف كل الإختلاف عن العالم العادي، ولا يستطيع أن يعيش كما يعيش سائر الناس.

---

[٢٣٤] نفس المرجع. ص ١٣.

[٢٣٥] المصري،إبراهيم. *أعلام في الأدب الإنساني*. مكتبة الأنجولو المصرية. ١. ص ١٥٥.

فتكون حياة العباقرة محيطة بالغرائب يكتنفها الشذوذ من كل صوب، "فالعظمة أو العبقرية هي تفوق خاصة في الذهن على خاصة، أو سيطرة بعض الخصائص على أخرى، سيطرة تخرج بصاحبها عن المألوف، وتلقي في روع السواد أنه أشبه بالمجنون منه بالعاقل"[٢٣٦]. وفي بعض الأحيان يشبه العبقري الأطفال في بساطتها، حتى يعجب الكثيرون من سذاجته، ويشبهونه بالأطفال، ويخيل أنه لا يحسن الكلام في المجلس ولا يجيد النظر في الأشياء، ولا يهتم بالمادة ولايعطي اعتناء للمال.

وقد حدد الكاتب محمد فريد وجدي معنى العبقرية تحديدا خالفه فيه الكثيرون، إذ ذهب إلى أن العبقرية في الإطلاق الشائع، تعني بلوغ صاحبها درجة ممتازة من الذكاء، ومكانة عالية في العقل، ولكنها في الاصطلاح العلميّ موهبة لايمكن اكتسابها من طريق العلم والتجربة، وهي تؤهل صاحبها لأن يكون ملهما فيما هو بصدده، حتى يبلغ درجة الإبداع فيه بدون أن يعمل فكرا، أو يبذل جهدا.

ومحمد رجب البيومي يرى العبقرية إلهاما لايكتسب، بل تأتي نتائجه الباهرة توفيقا من الله دون إعمال الفكر، أو بذل الجهد، أما غيره، فيرى أنّ العبقريّ له تجربته، وعليه أن يبذل الجهد، ويعمل الفكر، ثم ينتهي إلى السداد بالموهبة والاطلاع والفكر معا.

[٢٣٦] المصري،إبراهيم. *أعلام في الأدب الإنساني*. ص ١٥٨.

"ولعلي أميل إلى هذا الرأي، فما من عبقريّ شهد له بالعبقرية إلا وبحث قدر طاقته، واجتهد باذلا ما في وسعه، ثم أمدّته الموهبة الخارقة بتوفيق سديد، لايصل إليه من جانبته هذه الموهبة الخارقة" [٢٣٧]

وتحليلا للعبقرية وضربا للأمثلة الدالة على ذلك، أشار الأستاذ محمد فريد وجدي إلى أن العبقرية لا تقتصر على العلوم والفنون والحروب، ولكنها تكون في الحكم، ونبوغ رجل كعمر في بيئة بعيدة عن العلم والفلسفة، وإدراكه المثل الإسلامية العليا كما أرادها الشارع، وفوق ما يدركه فلاسفة النفس وعلم الاجتماع إن العبقرية أمر يستوقف النظر، ويدعو إلى الحيرة، "إذ أنّ كل ما في الإسلام من التعاليم الاجتماعية يرجع إلى أمور كلية معدودة، كإقامة الحق، ومراعاة المساواة والعدل، واحترام حرية الناس في القول والعمل" [٢٣٨]

مبدأ فكرة العبقرية عند العقاد

وحينما اشتد في العصر الحديث الميل عند أدباء العرب إلى الحرية القلمية، تطورت نزعة إلى التراث الإسلامي أيضا، وأخذ الكتاب ينهلون من مناهله، وفي نصف الثاني من ثلاثينيات القرن العشرين، صادف عباس محمود العقاد وطه حسين بكتابة عن حياة الرسول ﷺ، وهما الكاتبان سميا من الكتاب الليبراليين،

[٢٣٧] البيومي، محمد رجب. *محمد فريد وجدي الكاتب الإسلامي والمفكر الموسوعي* .ص ٢٨٩ .

[٢٣٨] نفس المرجع. ص ٢٩٠.

وجاء كتابهما مختلفا عن كتب الآخرين وحاملا لونا جديدا، لم يسبق إليه منهج الكتابة التراثية والدينية.

وتأسست جماعة "الإخوان المسلمون" في مصر، وامتدت وتشعبت، واجتمع كثير من المسلمين حولها، في أرجاء العالم العربي والإسلامي، فأحس من أصحاب الفكر الليبرالي، والمصريون منهم خاصة، بأنه لا يمكن لفكرهم المغرق أن يصل إلى عموم الناس الذين كانوا في رأيهم، إن هو اكتفى بالأفكار المعاصرة، محلية كانت أو أجنبية، ولم يلتفت صوب ما كانت الكتابة الليبرالية أهملته، ومنذ حلت فكرة العروبة محل الفكرة الإسلامية، وسقوط الدولة العثمانية وتشتت جغرافية إمبراطوريتها. أدرك الليبراليون، بأن الإسلام وفكره ومثله العليا، كلها لا تزال منغرزة في عقول الشعوب العربية وقلوبها، وأعادوا النظر في مسارب ثقافتهم أنفسها، وكتبوا على ضوء فكر جديد، مريدين استعادة الإسلام من المتطرفين والمستغلين له، وأن يعيد ترابط الإنسان المعاصر، بالأفكار المثالية والنموذجية التي كان الإسلام طلع بها وحقق بفضلها وبفضل واقعيتها نجاحاته الأولى. ومن هنا ألفت كتب مثل 'على هامش السيرة' و'حياة محمد' وكانت منها في شكل خاص مجموعة 'العبقريات' لعباس محمود العقاد. والعبقريات تشكل أشهر ما كتبه العقاد في حياته.

الدو افع وراء اختيار كلمة العبقرية

إنّ اختيار عنوان الكتاب بـ 'العبقريات' لم تكن مصادفة بل متعمدة، لأن ما حاول العقاد رسمه في نصوصه إنما هو دور الفرد في صناعة الأمة ورسم صورة مجتمعها لا العكس. وكان مقصد العقاد، أن يدخل في شعاب شخصية الرسول ﷺ، وقد حاول العقاد في كتاب 'عبقرية محمد' إدخال شيء كبير من العقلانية في الفهم الشعبي لجزء من تاريخ الإسلام.

قدّم العقاد خلال العبقريات أمام القارئ صورة واضحة للشخصيات الإسلامية في أسلوب عصري، واستعمل الموهبة الفذّة وتمكّنه الواسع من التراث المزيج بين العلوم العصرية، والثقافة العالمية، لتقديم تلك الشخصيات في قالب عصري فريد، وصار خدمة للثقافة العربية الإسلامية، وسهّل للقارئ أن يطلب الرفعة والسمو بالسير على نهج أولئك العباقرة.

ركز العقاد جوانب الحياة الشخصية والاجتماعية والدينية فسمّى كتابه "عبقرية محمد"، وجلب العقاد بهذه التسمية انتقادا لاذعا حتى صُنّف كتاب باسم "هل محمدﷺ عبقري أم نبي مرسل" وسأل النقاد كيف سنح له أن يصف النبي عبقريا،

وأين كانت هذه العبقرية قبل الرسالة، وإنما كان مقصد العقاد إظهار مزايا عبقرية الرسول الإنسان.

ويتكلم العقاد في الكتاب عن الرسول ﷺ من شتى جوانب حياته مستخدما السرد القصصي ومقارنة قرارته بشخصيات تاريخية مشهورة في الجوانب الحربية والسياسة، وحياته المنزلية، ويبين عبقريته في مجال الدعوة وفي مجال السياسة، ويختار عناوين مثل محمد الرئيس، الزوج، الأب، السيد، العابد، الرجل.

وقد اختط العقاد فيها طريقة مستغربة لم تعرفها الذهن العربي "فهي ذات منهج جديد لم يسبق إليه العقاد، وجاء هذا المنهج تمردا على المنهج السردي التقليدي الذي يعتمد على جمع الأخبار ورصد الواقائع والتزام الخط التاريخي من البداية للنهاية"[٢٣٩]

والذي دفع العقاد إلى كتابة عبقرية محمد ﷺ وهو الجانب الدفاعي ضد الأكاذيب التي انتشرت حول شخصية الرسول ﷺ، مثل تعدد الزوجات والدعوة بالسيف. وحديث العقاد مع الأصدقاء عن كتاب "الأبطال" للكاتب الإنجليزي توماس كارليل الذي يذكر فيه الكاتب في أحد فصوله عن الرسول ﷺ، دفعه إلى الكتابة عن الرسول ﷺ. " وإنا لنتذاكر آراءه ومواضع ثنائه على النبي، إذ بدرت من أحد الحاضرين الغرباء عن الرهط كلمة نابية غضبنا لها واستنكرناها لما فيها من سوء

[٢٣٩] قميحة، جابر. *منهج العقاد في التراجم الأدبية*. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. ١٩٨٨. ص ١١٤.

الأدب وسوء الذوق وسوء الطوية. وكان الفتى الذي بدرت منه الكلمة متحذلقا يتظاهر بالمعرفة، ويحسب أن التطاول على الأنبياء من لوازم الاطلاع على الفلسفة والعلوم الحديثة،.. . فكان مما قاله شيء عن النبي والزواج، وشيئ عن البطولة – فحواه أن بطولة محمد إنما هي بطولة سيف ودماء"[٢٤٠]

والعقاد هو الذي استعمل كلمة العبقرية على عظمة الرسول ﷺ أولا وهو من مخترعاته، في حين أن الكلمة استعملها النبي ﷺ، للإشارة إلى مهارة عمر ﷺ، " فلم أر عبقريا من الناس يفري فريه"[٢٤١]وبعده استعمل الكتاب هذه كثيرا. ومن الواضح أن الأعمال التي قام بها الرسول ﷺ والإصلاحات التي بثها في الأمم خير مثال على اجتماع العبقرية في رجل واحد، وهي كافية في إثبات نبوته "فهذه الأعمال منفردة أو مجتمعة لايستطيع العلم أن يسلم بإمكان وجودها في عهد من العهود السابقة، ولا بإمكان اجتماع عبقرياتها جميعا في رجل واحد، فهذا العجز من العلم يكفينا في إثبات نبوة محمد ﷺ "[٢٤٢]

[٢٤٠] العقاد،عباس محمود. *عبقرية محمد*. ص ٤.

[٢٤١] صحيح مسلم. كتاب فصائل الصحابة.

[٢٤٢] وجدي،محمد فريد. *السيرة المحمدية في ضوء العلم والفلسفة*.ص٤٤.

العقاد والعبقريات

اعتنى عباس محمود العقاد بالعبقرية، وتميز بفن العبقرية، واخترع فيها أسلوبا خاصا، وله فيها مذاق خاص، وطريقة خاصة، اجتمعت بين السيرة والتاريخ والعنصر الشخصي، واعتبرها أصدقاؤه دليلا تدل على عبقريته، وكان يؤمن كل ما شيدته البشرية في العالم من فعل العباقرة، والعباقرة الذين يتحدث عنهم سالمين من الضعف، ولا يحدث منهم الخطأ، يرى فيهم الكمال البشري، "ولقد بلغ الإعجاب بالعقاد للعبقرية الفردية لدرجة أنّه لم يكتب عن عصر من العصور أو عن شعب من الشعوب أو عن ثورة من الثورات، وهو إذا كتب عن عصر أو شعب أو ثورة فهو إنما يكتب عن ذلك من خلال شخص من الأشخاص"[٢٤٣]. وله جواب بين عن العبقرية وعن حياة العباقرة " إنسان يقيس الأشياء بمقياسه الخاص الذي يعلو على مقياس العامة، ويأخذ نفسه به، وإنه إنسان لم يخلق لخدمة نفسه أو أسرته أو عشيرته وكفى، بل هو من خلق لخير إنساني عام، وأوتي من القوة مايخدم به غيره، ولو اتخذ هذا الخير الإنساني العام صورة عالمية أو وطنية أو قبلية" [٢٤٤]

[٢٤٣] السداني،علي خالد. *منهج العقاد في دراسات الإسلامية*.ص١٢١.

[٢٤٤] الكريم،سامح . *إسلاميات*.ص ١٢٣.

ومن ميزة العقاد التأصل في النقد والتحليل، ويظهر ذلك جليا في العبقريات حيث لا يمكن إغفاله، التحليل والتعليل والاستنتاج من دأبه الدائم، ولا يفوته الأخذ والرد على الخصوم وعلى غيرهم، وهو لا يسرد الحوادث والوقائع سرد القاص، ولكنه يمحصها ويرمقها بنظرة ثاقبة ويناقشها، ثم يزنها بميزان عقله وثقافته ليصل إلى الاقتناع بمعيار من العلم والمنطق والفكرة السليمة والفطرة الصائبة.

فالعبقريه عنده لا يتعالى على الآخرين، ولا يكون منعزلا من عامة الناس ولا يتخذ بينه وبين الناس حجابا، ونظرية العقاد هذه تقرب بالقول بأن الميزة المهمة للعبقري هي قدرته الكبيرة على التعاطف، وحبه الشديد للتواصل الاجتماعي، فيفكر في أن يخلق عالماجديدا. ويقول د. شوقي ضيف "عبقريات العقاد ليست سيرا بالمعنى التاريخي المألوف، وإنما هي صورة تشخص الملكات والأخلاق، ولذلك قلما احتفل فيها بالأحداث والوقائع، وحتى أرقام السنوات التي ولد فيها أصحاب العبقرية وتوفّوا وقلما وقف عندها لأنه لا وزن لها في الصورة التي قصد بها إلى رسم المزايا والخصائص الخلقية والنفسية والإنسانية للعبقرية"[٢٤٥]

وبمطالعة عنوان كتابه 'عبقرية محمد' ﷺ يتجلى الأمر واضحا، ولم اختار كلمة "عبقرية"؟، لا بد أنه يعرفها تمام المعرفة، ويتمثلها في شخص يعرفه في الحياة،

[٢٤٥] ضيف، شوقي. *مع العقاد*. مصر:دار المعارف. ١٩٦٤. ص ٨٦.

ويبحث عمن يستحقون إطلاقها عليهم، وهو يبدأ في ذلك بنفسه. وأنه يصف في ترجمته الذاتية صورة لنفسه " بوصفه شخصية عبقرية تفرجت بخصائص وطبائع عظيمة تستمد عناصرها من معدن القوة والتفوق والامتياز، وهي شخصية متسمة بالصمود والصلابة دائما. وبالتفوق والكمال أبدا، خالية من أمارات النقص، وعوامل الضعف، مبرأة من شبهة الانزلاق من فوق قاعدة التمثال الذي صنعه لنفسه وفق ما ارتآه، وعلى ما افترضه من جوانب العظمة وأمارات العبقرية في شخصيته، وهذا هو المنهج نفسه الذي اتبعه حين ترجم للشخصيات التاريخية في عبقرياته"[٢٤٦]

ولم يطمئن العقاد في عبقريته بتقديم كثير من المعلومات والبيانات بتركيب معين ونظام خاص، ولكنه يأبى إلا أن يشيّد مبنى شامخ متناسق للشخصية وفق خطة واضحة. ومن دأبه أيضا أن يطرق الصعوبات والتسلق إلى المستعصيات، فيقوم بتحليل نفسي دقيق للشخصية العبقرية، ويقول سامح الكريم "وبهذا المفتاح يفتح الأستاذ العقاد مغاليق نفس هذا العبقري ليعرف مدى عظمته وحدودها، وما يصدر عنها من أفعال وتصرفات، وقيمتها بالنسبة للإنسانية عامة، وهذا بالطبع يتطلب الفهم الواعي لمفتاح هذا العبقري، ثم بالإحاطة الشاملة لملابسات

[٢٤٦] عبدالدائم، يحيى إبراهيم. *الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث*. ص ٧٤٩ .

العصر الذي عاشت فيه، وإذا حدث تشابه مفتاح إحدى شخصياته مع شخصية أخرى، هنا يكدّ العقّاد ذهنه في البحث عن اختلاف في السلوك الإنساني لهاتين العبقريتين المتشابهتين في المدخل"[٢٤٧]. وهو يكتب عن العبقريات بدون أن يكتفي بالعرض، أوترتيبا آليا، ولكنه ينظم الميزات الظاهرة في كل صورة، ثم ينفخ فيها من روحه وروح هذا العبقري الذي يكتب عنه، فيحييها في نفوس قرائه حتى يعاطفوا عبقريته، فيحس القارئ السرور لأنه استطاع أن يرتفع فوق نفسه، وأن يطير في أفق واسع من الآفاق التي اعتاد أن يطير فيها، لأن العقاد يحرك كل حياة القارئ بدون أن يكتفي خطابه على عقل القارئ، وصنيعه هذا يشبه كتاب "المآسي" بأبطالهم، فكما يميل القراء إلى بطل المأساة يشيعون للعباقرة الذين يقرءون في العقاد ويميلون إليهم، وربما يذهبون في التشيع فوق ما ذهب إليه العقاد وأكثر ما يريد. وليس له سبب إلا "أسلوب العقاد وتعبيره عن أفكاره فما من عبقرية من عبقرياته إلا وهي قصيدة شعرية ينقصها الوزن والقافية" [٢٤٨]

وحينما يكتب عن حياة العبقري يدخل إلى داخله، ويدرك أسراره من الداخل، ولا يطمئن بكل ما قرأ وسمع من الخارج، فهو يعيش مع العبقري ويدرك كل ما

[٢٤٧] الكريم،سامح. *إسلاميات*.ص ١٣٣.

[٢٤٨] نفس المرجع. ص ١١٥.

يكتنفه من قوة وضعف فالقارء في عبقرياته يجد شخصية العقاد يجري مع شخصية العبقري، وباهتمامه بالتاريخ والبيئة، يهتم العصر الذي نشأ فيه المترجم، فهو لايقتصر على شخصية البطل،"ولكنه يفرد في دراسته فصلا خاصا للبحث في صورة العصر، ووظيفة بطله فيه وإلى البيئة الخاصة التي تتمثل في البيت الذي نشأ فيه أبطال دراسته، فقد عني بالبحث فيها عناية قصوى، لأن لها أثرا كبيرا في سلوك الشخص وفهمه للحياة"[٢٤٩]. وقد فرّق في دراسته للعبقريات والشخصيات الأخرى، ولم يستعمل المنهج النفسي في دراسة أبي نواس، غير أنه لم يطرق طرق السيرة المعتادة في العبقرية، مما أبقى ثغرة للأخذ به، فعبقريته تقوم على الحذف والاختيار، وما في العبقريات ليست جميع الروايات والأخبار التاريخية عن حياة العبقريين، إنما هي سرد أو خبر يؤكد وجهة نظر العقاد عن العبقري الذي يتناوله.

منهج العقاد في العبقريات

وأبرز الجوانب في منهج العقاد في العبقريات هو الجانب النظري، الذي يقوم بإعطاء النظريات الكمالية المتسامية في الشخصية وفق اعتبارات تشهد لها بذلك من واقع حالها لا مما تؤول إليه أثناء الدراسة والبحث، وهذا "موقف العقاد في العبقريات فإنّ أشخاصه في حقيقتهم إنما يعرفون بهذا الوضع

[٢٤٩] قطب،سيد. *كتب وشخصيات*. ط٣. القاهرة:دار الشروق. ١٩٨٣.ص ٣١٥.

الطبيعي، الذي لا يخلطهم بالناس ليميزهم منهم، ويحكم لهم بالعظمة من أجل هذا الموقف نفسه أيضا، ولكنهم، حين يتحدث العقاد عنهم يبتعدون كثيرا فإذا هم صنف آخر من البشر"[٢٥٠]

وقد أراد العقاد أن يعطي لأكابر العظماء حقهم في العظمة، وإبراز صفاتهم العالية التي نشرت من نفوسهم لتنير الدنيا، وعلم تلك النفوس العظيمة فصار أن كتب "هذه التراجم لإرضاء الشغف النفسي بالوقوف على كل سر، والإحاطة بخفايا الوجود، ولاسيما خفايا النفس الإنسانية التي هي قبلة الإنسان، وغاية ما يشغله ويستجيش عطفه وتفكيره، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كتب تراجم العظماء لإنصافهم وتقديرهم وإعطائهم حقهم من جزاء التبجيل والإعجاب، ثم كتبها من جهة غير هذه وتلك ليستحث المقتدين بهم على ترسم خطواتهم والتطلع إلى مراتبهم" [٢٥١]

و ذهب العقاد إلى أن العصر الجديد قد أفنى خصائص الشخصية الإنسانية، وأن الذين نالوا العبقرية لم يتح لهم الفرصة ليظهروا الروح الخالدة ليكونوا معالم للأجيال التي تحيى معهم أو يجيئ بعدهم، وأن التخصص في ناحية أو في نواحي منها قد ضاعت الشخصية الإنسانية في هذا العصر، والكثرة العددية أيضا

[٢٥٠] عباس، إحسان. *فن السيرة*. ص ٦٣.

[٢٥١] الكريم، سامح،. *ماذا يبقى من العقاد*. ص ١٣٥.

أضاع صفات الإنسانية. والكثرة العددية أغرى أناسا من "صغار النفوس بإنكار الحقوق الخاصة، حقوق العلية النادرين الذين ينصفهم التمييز، وتظلمهم المساواة، وقد جار هذا الفهم الخاطئ للمساواة على حقوق العظماء السابقين، كما جار على حقوق من الأحياء المعاصرين"[٢٥٢]، وسببت التطورات الاجتماعية والانقلابات الصناعية التي حدثت في القرن العشرين لعدم الثقة في القيم، واتخذ المدعون والانتهازيون ذريعة لتحقيق مقصدهم الفاسدة، فنهض العقاد للرد عليهم إنه رأى نفسه "أمام خصوم ينبغي أن يقتنعوا بالكثير من الأدلة، ويقتنع من ورائهم أولئك الذين ينساقون وراء كل طريف ويجرون وراء كل مستحدث، وموقفه مدافع ورد اعتبار الذين ظلمهم العصر بملابساته وجحد فضلهم، وأنكرهم، ولذا يتلو الحجة بالحجة"[٢٥٣]

ومع ذلك لم يصرف عن الحق، ولم يأت أي دعوى بدون دليل، أيّد كل ما قاله بدليل من التاريخ، ودلّل على كل صورة صوّر بها عظمة الشخصية التي كتب عنها، وهذه النزعة عند العقاد وهذا المسلك عنده "تأكيد" لا انفعال، وهو يدل تمام الدلالة على أسلوبه الذي كتب به العبقريات. وتجاوز في كتابه عن العباقرة المآخد والزلات التي يجوز على كل إنسان الوقوع فيها، ويقول محمد خليفة التنوسي"

[٢٥٢] عبد المطلب، رفعت فوزي. *عبقريات العقاد*. ص ١٢٤.

[٢٥٣] نفس المرجع. ص ١٠٠.

إن النزعة الغالبة عند العقاد، أن يقبل مآخذ العظماء، بل غيرهم بالعطف والغفران إذا كانت أخطاء لاخطايا أو خطايا عقول لا خطايا قلوب، وتقاس عنده الأعمال بالنيات وبواعثها في نفس صاحبها قبل أن تقاس بآثارها ومظاهرها"[٢٥٤] ولو اكتمل الإنسان بطولة وعبقرية لم يخل من العيوب الإنسانية المعروفة عند الإنسان، ولم يخرجه من نطاق البطل أو العبقرية لأن ذلك أمر مستحيل لا يستطيع الإنسان أن يجد فيه أسوة من أيّ نوع، والبطل ليس له قوى غير إنسانية، بل هو إنسان ارتفعت قدراته وارتفعت، ولكنه استغلال هذه القدرات خير استغلال في تحقيق مقاصد كبيرة عالية، أما "النظرة المثالية للبطولة والعبقرية، فإنما هي تحنيط للإنسان وتجميد لحركة حياته، وللعناصر التي تتكون منها هذه الحياة"[٢٥٥]، وهذه الوجهة هي التي تألب النقاد على العقاد حيث جعل وقوع الخطأ من العباقرة إنسانية مع أن من عبقريته محمد ﷺ، فإنه لم يدفع النبي من الوقوع في الخطأ.

طرق مختلفة في عرض العبقرية

تناول العقاد في عبقرياته شخصية الرسول ﷺ، وبعض شخصيات صحابته رضي الله عنهم، وشخصيات غير مسلمة، ومن هؤلاء العبقريات جميعها اتخذ

[٢٥٤] التونسي، محمد خليفة. *العقاد دراسة وتحية*. مكتبة الأنجلو. ص ١٨٣.

[٢٥٥] النقاش، رجاء. *عباس العقاد بين اليمين واليسار*. ص ٢١٧.

العقاد فرصة لتطبيق نظرياته في الفرد، وشاهدا على دوره الفعال في المجتمع والتاريخ، وعالج لشخصيات البارزة مرتبا في خصائصها البارزة، وينشر فيها عقله الإبداعية فيحيها في نفوس القراء، فيشعرون العظمة في العظيم، لأنه لم يقتصر على ملامح العظمة بل يدخل إلى محور الشخصية التي تدور عليه شمائل العظيم وأعماله. والطريق الذي طرقه العقاد ليبرز صورة العظماء الخالدين وهو فن عالي "ويذهب مؤرخو الأدب إلى اعتبار هذا الفن من أقوى الفنون الأدبية وأعظمها، وأنه لا يقدر على كتابته إلا الموهوبون ممّن زوّدهم الطبيعة بذوق على الاختيار، وصبر على الاطّلاع، وقدوة عظيمة على النزاهة في الحكم وقلب كبير يتفهم الأخطاء، ويرحم العيوب، وملاحظة تخترق الحجب، وذكاء كالشعاع، ومهارة فائقة في تجميع الخيوط، وتحريكها ونسجها في اتساق ونظام ودقة، ولا تجافي الروح الأدبية الشفافة دون أن تغلو في مديح أو تورط في هجاء" [٢٥٦]

والعقاد عنده وجهة مختلفة في جميع عبقرياته، غير أنه أصبح عرضة النقاد ورجال الدين، ففي مقدمة 'عبقرية محمد' يذكر العقاد،أن دافعه لكتابة العبقريات هو رد تطاول الناس على العظماء، تحت وطأة المساواة التي جرت بينهم اليوم، وفي مقدمة عبقرية الصديق يقول عن تأمله الشديد لما نال العظماء من تطاول

[٢٥٦] كريم،سامح. *ماذا يبقى من العقاد*.ص ١٣٠و١٣١.

في العصر الحديث، حتى صح عنده أن العظمة في حاجة إلى ما يسمى " برد الاعتبار" في لغة القانون، كما يقول عن الصديقة بنت الصديق عائشة ﷺ أن الغرض الأول أوالغرض الذي ينتهي إليه جميع الأغراض من تدوين سير العظماء هو توثيق الصلة بين الإنسانية وبين عظمائها وعظيماتها، والنفاد إلى الجانب الإنساني من كل نفس تستحق التنويه والدراسة، وفي عثمان بن عفان ﷺ يؤكد العقاد والذي يعنيه من عرض العبقريات هو التعريف بالنفس الإنسانية في حالة من أحوال العظمة والعبقرية وكذلك يذكر عن بنيامين فرانكلين عن تطاول الكثرة وظهور التخصص على العظماء، ويصرح أنه إذ يؤرخ لبنيامين فرانكلين فهو ينقذ العظمة من هجمة الكثرة وظهور التخصصية بإبراز حياة ذلك العبقري.

ميل العقاد إلى سيرة الرسول ﷺ والتاريخ الإسلامي

عباس محمود العقاد واحد من الذين رأوا في إحياء السيرة النبوية وسيلة للإصلاحات الاجتماعية الحديثة، وإصلاح العقائد الفاسدة، وإصلاح سياسة المجتمع وما إلى ذلك من الأمور التي تمس المجتمع في حياتها اليومية، نشأ العقاد في بيئة دينة وفي أسرة متدينة، وهذا قد تمكن له أن يقترب بالعلوم الإسلامية وأن يعلم مصادرها الموثوقة، وفي بيته كان أبوه يقرأ الكتب الفقهية وبعض كتب

التاريخ، ولا سيما تاريخ السيرة النبوية، وتراجم الأولياء الصالحين، وله علاوة من 'عبقرية محمد' بعض الأعمال تبين جانبا من جوانب السيرة، ومنها "مطلع النور" و"حقائق الإسلام وأباطيل خصومه".

وفي كتاب 'مطلع النور' يبين العقاد مقدمات النبوة وبشارة الكتب القديمة، كما فعل كتاب السيرة من قديم، وقد عد صلاح الدين المنجّد كتاب "مطلع النور" في قسم عصر الرسول: الجاهلية في كتابه الدراسية عن السيرة 'معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ'. أما كتاب 'حقائق الإسلام وأباطيل خصومه' محاولة للرد على الشكوك والشبهات التي أثارها أعداء الإسلام حوله، فيرد الكاتب عليهم حيث يكون مظهرا جانبا من جوانب حياة الرسول ﷺ. وسائر إسلامياته أيضا بيان من جوانب السيرة أو تفصيل حول حياة الرسول ﷺ، ومقصده في هذه الكتب هو الدفاع عن الإسلام من الشبهات والأباطيل التي يشن بها أعداؤه وخصومه، وساعده في هذا العمل اطلاعه الواسع في القرائة المختلفة، ومقدرته على المحاجات والجدل وماكتبه في تفنيد دعوى الخصوم بالحجج والبراهين، وكان يفحم الخصوم بالمنطق السديد، ففي هذه الكتب المذكورة إنه قارن بين الإسلام وسائر الملل والأديان، حتى وصل في آخر المقارنة إلى شمولية حقائق الإسلام، وأن العبادة في الإسلام وشعائره بريئة عن كل الملل الماضية لما انحرفت عن مسارها الصحيح. وتأمل العقاد أخبار النبوة في القديم وفي عهد الرسول ﷺ فوجد أن

النبوة في الإسلام في غاية الكمال، ولم يترك العقاد الهجوم على الذين يدعون بأن الإسلام يطلب بالإنقياد والتسليم بلا تأمل وتفكير، ويؤكد مرة بعد مرة أن التفكير فريضة إسلامية، وأن من خصوص القرآن الأول، وهو أنه يمدح العقل وأعماله، ويأتي العقاد بالآيات القرآنية التي تدعو للتفكر وإعمال العقل غزيرا، فيذكر الآية تلو آية من القرآن، كأنما يقول العقاد بأن العقل الذي يخاطبه الإسلام هو العقل الذي يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميز بين الأشياء. كتب العقاد معظم صفحات كتابه'ما يقال عن الإسلام' للرد عما يشير أعداء الإسلام من شبهات واهية ظالمة حول الإسلام، وهم يستخدمون مختلف الطرق لبعث الشبهات أمام الناس، ومن تلك الشبهات بأن الإسلام انتشر بالسيف، وأن الإسلام يشجع الرق، والعقاد هدم هذه التهم بالحجة المقنعة والأدلة القاطعة. ومهما يكن الأمر إنّ عباس محمود العقاد بشاعريته وقدرته الناقدة لم يتجه إلى كتابة سيرة الرسول ﷺ مبكرا، بل قد تمكنت عنده عناصر السيرة منذ صباه، وشحّذته تجاربه العلمية والاجتماعية، حتى أتى بمجموعة من الكتب فيها إلمام عن جانب سيرة الرسول ﷺ.

]

[منهج العقاد في 'عبقرية محمد'

وفي العصر الحديث اشتد الميل عند أدباء العرب الحرية القلمية، وتطورت عندهم النزعة إلى التراث الإسلامي أيضا، وأخذ الكتاب ينهلون من مناهله، وفي النصف الثاني من ثلاثينيات القرن العشرين، صادف عباس محمود العقاد وطه حسين بكتابة عن حياة الرسول ﷺ، وجاء كتاباهما مختلفان عن الآخرين وحاملا لونا جديدا، لم يسبق إليه منهج الكتابة التراثية والدينية، وكتب المستشرقون وغير المسلمين في العصر الحديث حول شخصية الرسول ﷺ، بأسلوب نال إهتماما كبيرا من المسلمين، مثل توماس كارليل في كتابه المسمى 'الأبطال' وانضم كتابه الموضوعية والحكم بعظمة محمد ﷺ، ولم يعثر هذا العصر كتابا تخاطب الناس بلغة هذا العصر في لغته الخطابي والمشاعري والتفكيري والتحليلي. وكتاب "كارليل" هو الدافع المقدّم الذي قاد العقاد إلى كتابة 'عبقرية محمد' فقد سأله أصدقائه "ما بالنا نقنع بتمجيد كارليل للنبي، وهو كاتب غربي لا يفهمه كما نفهمه، ولا يعرف الإسلام كما نعرفه"[٢٥٧] وطلب منه بعض الأصدقاء أن يكتب كتابا عن محمد ﷺ "على النمط الحديث". مثل هذه الدوافع والطلبات قد انعكس في كتاب 'عبقرية محمد' وهو تعرّف المسلمين وغير المسلمين على نبي الإسلام بلغة تساير العصر، وبأسلوب توافق الدهر.

[٢٥٧] العقاد،عباس محمود. *عبقرية محمد*. ص٥ .

أخرج العقاد عمله من حوض الأبحاث العلمية القائمة على مقارنة النصوص وتمحيص الشواهد للوصول إلى النتائج العلمية، وكتابه تقدير لعبقرية محمد صلى الله عليه وسلم، وهو مؤمن من أعماقه بعظمة الرسول ﷺ إيمان المسلم الجاد، وأقام البرهان العلمي لهذا الإيمان، وصار عمله عملا فنيا وجدانيا، مشغوفا بسمة البحث والتأليف. والعقاد بمشاعره الفياضة المليئة في كل فصل من فصول كتابه، وإحساسته التي تؤمن بالعظمة حقيقة، وهذه الفكرة جعلت الكتاب يجيش في قلبه وفي عقله ثلاثين عاما، وهو أدرك بأن الناس في زمنه قد اجترؤوا على العظمة، وضاعت بينهم قيمة العظماء، وكذلك قرأ ما جرى على أقلام المستشرقين، ومقاصدهم في النيل من رسول الله ﷺ، فنهض بإقامة البرهان على عظمة محمد ﷺ في كل ميزان: فالرسول ﷺ عظيم في ميزان الشعور، وعظيم عند من يختلفون في العقائد.

ولم يسلك العقاد منهج الكتّاب في السيرة قديما ولم ينهج ما ألفه الناس فيها من البدأ بمولد الرسول ﷺ، وتنتهي بوفاته ﷺ، ولم يرد أن يروي تاريخا على نحو ما تحويه كتب التاريخ وسجله، وإنما هي صور وملامح تتقارب لتصور أصدق صورة لشخصية الرسول ﷺ، وهو يتخد من شخصية الرسول ﷺ وأخلاقه الخالدة منفذا لتقرير رسالته، فأخلاق الرسول ﷺ وشخصيته البارزة هي العمدة في

إقامة الحجة على صدق رسالة الرسول ﷺ عند العقاد والتي هي جعله أهلا لها، وهذا المنهج قد تأثر به الكتاب بعده، والإمام أبو زهرة في كتابه 'خاتم النبيين' بين في صفحات كثيرة أخلاق الرسول ﷺ وشمائله في البداية خلافا للكتاب القدامى الذين جعلوا شمائل الرسول ﷺ في آخر كتبهم، فالعقاد جعل الشمائل والشخصية في مقدمة كل أفعال الرسول ﷺ وهو يحللها تحليلا واضحا ففي قوله "عبقرية محمد، "عنوان يؤدي معناه في حدوده المقصورة ولا يتعداها فليس الكتاب سيرة النبوية جديدة تضاف إلى سير العربية والإفرنجية التي حفلت بها "المكتبة المحمدية" حتى الآن، لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها في هذه الصفحات"[٢٥٨]،وهو يبين الطريق المهيئ لمجيئ الرسول ﷺ، من الظروف التي كانت العالم يحيى في ذلك الزمان، وقد بلغ الفساد أقصى ما يبلغ الفساد في الأخلاق الاجتماعية والاقتصادية، وجعل تلك الظروف مقدمات وأسباب لمبعث الرسول ﷺ، وكانت القلوب موات خراب لا خير فيها، وهي تتطلب مرشدا ومصلحا يصلح أمورها، واجتمع في الرسول ﷺ الشخصيات المتأهلة للمصلح.

الأغراض والدوافع وراء تأليف 'عبقرية محمد'

وكما يؤمن العقاد بنفسه آمن بمعنى العظمة والعبقرية، فكان من اليسير عليه أن يتناول شخصية عظيمة دون مدح أو إطراء، في حقيقتها العبقرية، ولم ينأ عن

[٢٥٨] العقاد،عباس محمود. *عبقرية محمد*. المقدمة.

الحق حينما تناول عظمة الرسول ﷺ، وقد يظهر جليا في كتاباته معنى العظمة في البشرالذين ليسوا بأنبياء، فكيف يجحد للنبي العظمة من ميزة ذاته صلى الله عليه وسلم. وهذا حرّض العقاد لتصوير جوانب الكمال في شخصية الرسول ﷺ، وأراد أن يظهر العظمة كما يفهمها البشر، ولم يتوخ العقاد بكتابته من آمن بالنبي ملأ قلوبهم، وإنما أراد الذين يحملون الحقد والنكران للنبي في طيات ضمائرهم، واستهدف أيضا الذين طغى التفكير العلمي الحديث على نفوسهم وعقولهم، وأعمت بصائرهم فلا يقبلون إلا إذا قام لهم دليل وبرهان علمي على ما يدعون، وهذا دفع العقاد إلى تنحية كل الخوارق والمعجزات التي رواها المؤرخون كإرهاصات الرسالة الإسلامية والتي لم تقدم أو تأخر كثيرا في الرسالة، " فما من بشارة من تلك البشارات كان لها أثر في إقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبي بالرسالة، أو كان ثبوت الإسلام متوقفا عليها، لأن الذين شهدوا العلامات المزعومة يوم الميلاد، لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤداها، ولا عرفوا أنها علامة على شيئ أو على رسالة ستأتي بعد أربعين سنة، ولأن الذين سمعوا بالدعوة، وأصاخوا إلى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة، لم يشهدوا بشارة واحدة منها ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا إليه"[٢٥٩]. ولم يكن رفض العقاد للخوارق التي جاء بها المؤرخون لصدقها أو كذبها، ولكن لما كان

[٢٥٩] نفس المرجع. ص ٢٤.

للرسالة من بشارات كانت تقترب من إدراك المنطقي الذي لا أهمية فيه للخوارق، فالعالم قبل محمد ﷺ، قد فقد العقيدة كما فقد النظام، وفي خضم هذا العالم القلق تعيش أمة العرب التي تتحكم في تجارة العالمين، وأبناء هذه الأمة جمعوا بين التناقض من ترف ورفاهية، إلى فاقة وفقر، يقود إلى الرق والعبودية، ومن إغراق في الشرك، إلى رفع الكرامة التي تدفع هذا الشرك وتحاول رده، وفي محيط هذه الأمة بحالاتها الزاخرة عاشت قبيلة لها من رفعة النسب وكرمه، والتقوى والسماحة، وكرامة النفس وإبائها، ما يجعلها أهلا لتوالي أمر بيت الله الحرام، ويقول العقاد عن هذه الحالة " حالة تنذر بالزوال، وقلما تزول أمة يقظى في أوان انتباهها، فتلك إذن حالة للتبديل والتجديد" [٢٦٠]

أراد العقاد في كتابه الرد المفحم لشانئي الرسول ﷺ، وقصد أن يسكت ويُنصت عاذليه، الذين يزعمون الثقافة ولايعرفون لها مكانا إلا في ذواتهم البائسة، وملأوا حقدا دفينا ضده، وليس لهم تبرير وراء ذلك إلا أنه شهوة عارمة من البغض، نفقهم فيه الحمق والجهل، وسدّووا كنانتهم المسمومة ضد شخصية الرسول ﷺ، من هنا نهض عند العقاد روح الذود عن شخصية الرسول ﷺ، والدفاع عن

[٢٦٠] نفس المرجع. ص ١٩.

كرامته، وقام العقاد "بتبرئة المقام المحمدي من تلك الأقاويل التي يلغظ بها الأغرار والجهلاء عن حذلقة أو سوء نيّة"[٢٦١]

ويبين العقاد في سيرته الذاتية الدافع الذي أدى إلى كتابة'عبقرية محمد' " ولا يقال عن عظمة النبي – عليه الصلاة والسلام – إنه بحاجة إلى انصاف أحد، أو دفاع في وجه ناقد ناقم، يفتري عليه، لأنها عظمة القداسة التي تعلو على إنصاف المنصفين وافتراء المفترين، ولكنني كتبت 'عبقرية محمد' للقارئ "الإنسان" الذي تضطره مقاييس الإنسانية العليا إلى تعظيم نبي الإسلام ولو لم يكن على دين المسلمين، وتوخيت في بيان خلائقه وأعماله أن تسقط عذر الخلاف في الدين لمن يحجم عن تقدير تلك العظمة جهلا منه بدين الإسلام أو بتاريخ النبوة الإسلامية ولم أشأ أن أجعل الاعتراف بها موقوفا صفة يدين بها المسلم لأنه مسلم، ويرفضها المخلف لأنه يرفضها بحكم العقيدة الدينية"[٢٦٢]

إزالة التهم عن شخصية الرسول ﷺ

ولقد كثر الاتهام على شخصية الرسول ﷺ، في مواقفه الحربية، والحرب اتخذها الإسلام وسيلة لإشاعة دعوته، حتى أجبر الناس أن يدخلوا في الإسلام قهرا وكرها، فبيّن العقاد بحججه الدامغة أن الرسول ﷺ ما كان يحارب إلا دفاعا عن

[٢٦١] نفس المرجع. المقدمة.

[٢٦٢] العقاد،عباس محمود. *أنا*. ص ٦٥.

الحق، وإعلاء راية الإسلام، وكان يعتنى فيه كل المبادئ القيمة التي التزمها الإسلام وجعلها قاعدة لمتبعيه بأن لا يعتدوا. وبين أيضا عن الحياة الزوجية للرسول ﷺ، وأطال فيها القول، وبين العقاد هذين الغرضين في صفحات عديدة، حتى يخيل إلى القارئ أنسي العقاد من غرضه في بيان شخصية الرسول ﷺ، وهذا دليل أن الدافع الذي دفع العقاد إلى كتابة العبقرية إنه هو مجرد الرد وليس من مقصده بيان تاريخ الإسلام، أي أنه استخدم كتابة سيرة الرسول ﷺ أداة للرد على المعارضين، الذين هم وليد الفكر الحديث ورضيع الحركة الجديدة، وكان شغله الشاغل إظهار الحقائق أمام هؤلاء الجهلاء.

وهذان الفصلان اللذان تناول فيهما عبقرية الرسول ﷺ العسكرية، والرسول ﷺ الزوج، أطول فصول في هذا الغرض في الكتاب، وأظهر عظمة الرسول ﷺ والمقدرة مع حياة الرسول ﷺ بفكرة لاتعلم الميل أو الجنوح، وأتى ببعض الأحداث من حياة الرسول ﷺ منذ الولادة في طيات هذه الصحف، وخلال كل الفصول عرض أهم ما تميزّت به شخصية الرسول ﷺ، من خصال جليلة وصفات حميدة، وبعده يصوّر شخصية الرسول ﷺ في بيته كزوج وأب ومع الصحابة كصديق" وفي الحقيقة فإن هذا الغرض الذي قام به العقاد قد أوفى فيه العطاء، بأسلوبه المتميّز"[٢٦٣] وأسلوب معالجة العقاد لشخصية الرسول ﷺ الكريمة

[٢٦٣] السداني،علي خالد.. *منهج العقاد في دراسة الشخصيات الإسلامية*. ص ١٨٠.

جديد في عرضه وتحليله، هو يصف عبقرية محمد ﷺ " فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تضاف إلى السير العربية والإفرنجية التى حفلت بها المكتبة المحمدية حتى الآن، وإننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها في هذه الصفحات، على اعتقادنا أن المجال متسع لعشرات من الأسفار في هذا الموضوع وليس الكتاب شرحا للإسلام أولبعض أحكامه، أودفاعا عنه أومجادلة لخصومه، فهذه أغراض مستوفاة في مواطن شتى، يكتب فيها من هم ذووها ولهم دراية بها وقدرة عليها، إنما الكتاب تقدير لعبقرية محمد بالمقدار الذي يدين به كل إنسان، وليس في قلب مسلم وكفى فمحمد هنا عظيم لأنه قدوة المقتدين في المناقب التي يتمناها المخلصون لجميع الناس، عظيم لأنه على خلق عظيم".[٢٦٤]

والصفحات في الكتاب بعد هذه المقدمة مبررة لما صرح العقاد فيها, ولم ينس العقاد حتى آخر الكتاب بيان ماقاله ووعده في المقدمة وتحقيق مقصده من تأليف الكتاب، حيث يدحض تهمة بعد تهمة.

ومن أكبر التهم التي وجّهت إلى الإسلام، تهمة أن الإسلام انتشر بالسيف، والمستشرقون يرددون هذه التهمة حتى لقد تصورت في أذهان الغربيين صورة التلازم التام ما بين الإسلام وصولة السيف، وأنه دين حرب، فينهض العقاد

[٢٦٤] العقاد،عباس محمود. *عبقرية محمد*. مقدمة .

بالبراهين والحجج ليدفع تلك الأقاويل، ويخلص إلى "أن الإسلام لم يوجب القتال إلا حيث أوجبته جميع الشرائع وسوغته جميع العقول. وأن الذين خاطبهم بالسيف قد خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك... إلا أن يحال بينها وبين انتضائه، أو تبطل عندها الحاجة إلى دعوة الغرباء إلى أديانها. وأن الإسلام عقيدة ونظام وهو من حيث النظام شأنه كشأن كل نظام فيأخذ الناس بالطاعة ومنعهم أن يخرجوا عليه "[٢٦٥]

وما حروب الإسلام إلا دفاع عنه، وما قدم الإسلام الحرب حيث يصطرع الرأي والفكر ولكنه يشنها حين تنتصب الطواغيت حائلة بين الخلق والهداية، لهذا كانت حروب الإسلام كلها درءاً للظلم ودفاعاً عن الحق، ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع، بعد الإيقان من نكث العهد والإصرار على القتال .

وموقف الدفاع ليس موقف ضعف في فنون الحرب أو عجز في ميدان القتال، ولكن القيمة التي جاء من أجل تحقيقها هذا الدين هي الإنسان وكرامة الإنسان، وأي كرامة تتحقق بين أتون حروب طاحنة، ولذا فالإسلام يضطر إليها كاضطرار المفضي على الموت جوعاً للميتة، وهنا يقول العقاد "إن محمداً كان على اجتنابه

[٢٦٥] نفس المرجع. ص ٨٥.

العدوان يحسن من فنون الحرب ما لم يكن يحسنه المعتدون عليه، وإنه لم يتجنب الهجوم والمبادأة بالقتال لعجز أو خوف مما يجهله ولا يجيده، ولكنه اجتنبه لأنه نظر إلى الحرب نظرته إلى ضرورة بغيضة يلجأ إليها ولا حيلة له في اجتنابها، ويجتنبها حيثما تيسرت له الحيلة الناجحة" [٢٦٦]

ومن الافتراءات على الرسول ﷺ الكريم قول المستشرقين فيه بأنه ليس له علم بالحرب واتهموه بالعجز عن مواجهتها وقد "زعموا أنه عليه الصلاة والسلام قد اشترك في حرب الفجار بتجهيز السهام، لأنه عمل أقرب إلى خلقه من الخوض في معمعة القتال، وكأنهم أرادوا أنه لم يكن قادراً على المعمعة بغير ذلك.. .. فمحمد كان في طليعة رجاله حين تحتدم نار الحرب ومهاب شواظها من لا يهاب، وكان عليّ فارس الفرسان يقول: "إذا حمي البأس اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو"[٢٦٧]

فأعطى العقاد من طرحه هذا لعظمة الرسول ﷺ حقه من الاهتمام، وصقل تلك الصفات بعد أن ستره الغمط والإنكار، برهة من الزمن، وأيضا أراد أن يدفع المصلحين لتقديم الهداية والرشاد وكل ما يضمن السعادة للإنسان، والرجال العظماء لهم دور في إنجاز أسباب السعادة بين الناس سواء في الأمور المادية، أما

[٢٦٦] نفس المرجع. ص ٨٦ .

[٢٦٧] نفس المرجع. ص ٤٣.

فيما يمس بالروح، وكل ما أتى به العصرالحديث من الجديد إلا وكان له نفخة قي القديم، ولايكون الجديد ناسخا "للقديم في كل شيئ، حتى في ملكات النفوس والأذهان وهي مزيّة خالدة لا ينسخ فيها الجديد القديم، هذه الآفة تهبط بالخلق الإنساني إلى الحضيض، وتهبط بالرجاء في إصلاح العيوب الخلقية والنفسية إلى ما دون الحضيض، لهذا كان تقدير محمد بالقياس الذي يفهمه المعاصرون ويتساوى في إقراره المسلمون وغير المسلمين نافعا في هذا الزمن التوت فيه مقاييس التقدير"[٢٦٨].

وهذه الجمل وما شابهتها من الجمل تبين إرادة العقاد في إثبات التقدير للرسول ﷺ وتؤكيد العظمة له ﷺ، وهو يقدّر الرسول ﷺ مرتين "مرة بحكم دينه الذي لا يشاركه فيه غيره، ومرة بحكم الشمائل الإنسانية التي يشترك فيها جميع الناس"[٢٦٩]

عرض مزايا 'عبقرية محمد'

عرض العقاد عبقرية الرسول ﷺ في شتى جوانب حياته، وهو يبدأ بمقدمات مولد الرسول ﷺ، ويعرض خلال هذه المقدمة البيئة التي تتعلق بالحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية، وبيّن فساد العبادات الملتبسة

[٢٦٨] نفس المرجع. مقدمة .

[٢٦٩] العقاد نفس المرجع. مقدمة .

بإرضاء الأصنام، ومن خلال فساد المجتمع خلقيا يفسّر الجوانب الاجتماعية، ثم يدخل إلى الجانب الاقتصادي "مدينة واحدة تجتمع فيها ثروة الجزيرة، وعصبة واحدة من سادة القوم تجتمع في أيديها ثروة المدينة، حالة لااستقرار فيها، فمن هنا الترف، والطمع والخمر، والقمار، والمتعة، وتسخير الأقوياء للضعفاء، ومن هنا الفاقة، والحسرة والشك في صلاح الأمور"[٢٧٠].

يقرر العقاد من هذا البيان حاجة العالم إلى مصلح وحاجة الناس إلى مرشد، وفي سطوره التالية وهو يؤكد أهلية الرسول ﷺ أن يكون هذا المصلح وأن يصير هذا المرشد، وهذه البيئة تحتاج إلى عبقرية شاملة تتسع أطرافها في كل صقع حتى يضع الإنسان على أكمل ما يكون، وهذا العصر يحتاج إلى نبي بشريعة فالعالم"يتطلع إلى نبي وأمة تتطلع إلى نبي، وقبيلة وبيت وأبوان أصلح ما يكون لإنجاب ذلك النبي "[٢٧١]

[٢٧٠] نفس المرجع. ص ١٥.

[٢٧١] العقاد نفس المرجع. ص ١٥.

افتراق 'عبقرية محمد' عن منهج القدماء

أقام العقاد الدليل في كتابه 'مطلع النور' لنبوة الرسول ﷺ بما بشره به الكتب القديمة والأنبياء الماضين عليهم السلام، وخلافا للكتّاب السابقين له إنه لم يدخل إلى بيان نسبه ﷺ، وما حدث من العجائب عقب ولادته وقبل نبوته، وهي أمور على حد قوله لا تتطلب العبقرية، ولا يطمئن إليه فكر حي، ولا عقل سليم، ولو أن تلك العجائب حدث فعلا ليشيرنّ إليه أتباع الرسول ﷺ، حينما عارضه المعارضون، ويبيّن أن دعوة الإسلام انتظرتها البشرية، ومهّدت لها الحوادث وقام بها داع تهيّأ لها بعناية ربه وبموافقة أحواله وصفاته "فلا حاجة بها إلى خارقة ينكرها العقل أو إلى علة عوجاء يلتوي بها ذوو الأهواء، فهي أوضح شيئ فهما لمن أحب أن يفهم، وهي أقوم شيئ سبيلا لمن استقام"[٢٧٢] مثل هذا الاتجاه والتحليل أثار حول الكتاب والكاتب ضجة كبرى لا في مصر وحده ولكن في العالم الإسلام أجمع، وسيأتي البيان عنه في آخر هذا الفصل. وينكر شهود مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، بمعجزات خارقة وأن الذين سمعوا بالدعوة وشهدوا الرسالة لم يسمعوا بشارة واحدة منها، وقد ولد مع النبي ﷺ أولاد كثيرون فيجوز للقائلين أن ينسبها إلى غيره ﷺ من الأولاد، ويؤكد العقاد على دعواه "ماذا من أساطير المخترعين للأساطير أعجب من هذا الواقع ومن هذا التوفيق؟ علامات الرسالة

[٢٧٢] العقا نفس المرجع. ص١٦.

الصادقة هي عقيدة تحتاج إليها الأمة، وهي أسباب تتمهد لظهورها، وهي رجل يضطلع بأمانتها في أوانها"[٢٧٣].

ويرى العقاد المعجزة تحققت لما اجتمعت علامة الكون وعلامة التاريخ، كأنما قالت حوادث الكون لقد احتاجت الدنيا إلى رسالة، وقالت حقائق التاريخ إن محمد ﷺ هو صاحب تلك الرسالة، فليس بحاجة إلى أي خوارق بعد علامة الكون وعلامة التاريخ.

وشخصية الرسول ﷺ وحده انجذبت الناس كلهم إليه بما أوتيت من قدرات الذاتية وصفات نسجت من أفعالها وأقوالها، وهو السبب الأهم لدخول الناس في الإسلام وهذا مصداق لقوله تعالى "وبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فضا غليظ القلب لانفضوا من حولك" – سورة العمران :١٥٩-، غير أن هناك حقيقة لا تنسى بأن المسلمين لا يزالون يؤمنون بحبهم للرسول ﷺ وبإعجابهم بشخصيته، ولكن العرب دخلوا إلى الإسلام إعجابا بالرسول ﷺ من ناحية، وإيمانا بقيم الإسلام لاستوائها في نفوسهم وتلائمها مع فطرتهم من جانب أخرى، يقول غازي التوبة "فلو اقتصر دخول المسلمين في الإسلام على إعجابهم بشخص الرسول، وحبهم له، لانتهت الدعوة الإسلامية بوفاة الرسول ﷺ، أو بغير وفاته

[٢٧٣] نفس المرجع. ص ٢٠

ريثما سحر الافتنان، ولكن الدعوة الإسلامية استمرت قرونا طويلة، وما ذلك إلا لملاءمة الإسلام للفطرة البشرية التي انجذبت إليه في زمن الرسول ﷺ، ثم استمر الانجذاب في الأزمان التالية"[٢٧٤]

وقارن العقاد بين الإسلام واليهودية من جهة المعجزات، وبنو إسرائيل أبطئوا للاستجابة لدعوة الرسل حتى يروا المعجزات، وإذا انتهت المعجزة كفروا، فانطفأت نفوسهم بعد دخولها نور الإيمان، واتخد الإسلام طريق الحق بجعل القرآن معجزته وهو لا ينطفأ، وباق إلى آخر الزمان، ويزداد نورا كلما انطوى الزمان، ومسلك النبوة معجزة في الخلق لا تطاول، ولهذا فهو يجعل من خلق محمد ﷺ معجزة تتضاءل عندها كل المعجزات والخوارق، والعقاد في هذه الوجهة يتفق مع محمد حسين هيكل "يقظة العقل والمنطق السليمة قد نبهت الناس إلى أن الخوارق لا تنهض بذاتها دليلا عقليا علي شيئ، وقد كتب الله في سنته أن يكون منطق العقل تاج هذه الحياة الإنسانية، على ألا يكون منطقا جافا من العاطفة والروح"[٢٧٥]. والعقاد أقام الحجة على صدق رسالة الرسول ﷺ بشخصيته، واستنبط من الحوادث الصغرى في حياة الرسول ﷺ دقائق الأخلاق محللا ومدققا، ولقد أرشده ذلك المنهج، إلى التأمل الدقيق في الصفات ليفرقها لتشتمل

[٢٧٤] التوبة،غازي. *الفكر الإسلامي المعاصردراسة وتقويم*. ط١. ١٩٦٩. ص ٢٤٢.

[٢٧٥] هيكل،محمد حسين. *حياة محمد*. ص ٣٦.

كل واحدة ضمن حقيقتها وواقعها، ميّز بين من يستحق العظمة أو من يمكن أن يسموا عباقرة، وبين من يستحق الامتياز فقط، ولا تلقيه صفة العبقرية.

وإن كان عبقرية محمد كتاب تاريخ وكاتبه العقاد لم يغفل التاريخ تماما، ولم ينحّه إلى الجانب، وحينما صور عبقرية محمد ﷺ لم يمل إلى تاريخ المحض بالوقوف على جزئيات سيرة الرسول ﷺ وأحداثها المتعددة المتكاثرة، وإنما فعله أن يوفق بين التاريخ والفن موافقة ملائمة "تفرد بها كتابه في سيرة الرسول ومن هنا كانت عبقرية محمد عملا شغل النقاد به منذ صدوره"[٢٧٦]

إن كتاب 'عبقرية محمد' له تأثير في زرع حب الرسول ﷺ في القلوب من الكتب التي ألفت على المنهج التقليدي، وأن العقاد قد فاز في تخلق جو أدبي ضمن بحث تاريخي من سيرة الرسول ﷺ يقول خالد السداني "والمتأمل في عبقرية محمد عليه السلام يجد أن العقاد قد استند إلى حقائق التاريخ لتحليل الأدب، وقدّم الشخصية من خلال سلوكها وقيمها، وأكمل ذلك بالردّ على التهم التي ألصقت بحياة الرسول الزوجية، وعرج على مكانة المرأة في الإسلام مقارنة مع مثيلاتها في الأمم الأخرى وبين سبق الإسلام في اعتبارها إنسانا، فالنساء شقائق الرجال ولا مزيد"[٢٧٧]

[٢٧٦] السداني،علي خالد. *منهج العقاد في دراسة الشخصيات الإسلامية*. ص ١٨٨.

[٢٧٧] نفس المرجع. ص ١٨٧ .

تحليل كتاب 'عبقرية محمد'

وكتاب 'عبقرية محمد' صغير الحجم في نحو ١٤٥صفحة، قسم العقاد الكتاب إلى ١٤ فصلا وعنون لكل فصل وهي: علامة المولد وعبقرية الداعي وعبقرية محمد العسكرية وعبقرية محمد السياسية وعبقريةمحمد الإدارية والبليغ ومحمد الصدّيق ومحمد الرئيس والزوج والأب والسيد والعابد والرجل ومحمد في التاريخ وفي كل فصول أتى العقاد بعناوين جانبي، وجميع عناوين الفصول توحى القارئ مراد العقاد من تأليف الكتاب وغرضه من ذلك الفصل وهو وصف الرسول ﷺ في عبقريته، أو في نفسه، أو في مناقبه " التي يتفق على تعظيمها من يدين برسالته الدينية، ومن لا يدين له برسالته. "[٢٧٨] ولم يرد العقاد شرحا للإسلام أو بعض أحكامه،، وبين في بداية بعض الفصول مراده من ذلك الفصل كما قال في فصل عبقرية محمد الإدارية " ولكننا لا نريد بما نكتب عن النبي أن نسرد أحكام الفقه ونبسط وصايا الدين، فهي مشروحة في مواطنها لمن شاء الرجوع إليها"[٢٧٩] ويقول في الفصل الأخير وهو محمد في التاريخ " ونريد بهذا الفصل - وهو خاتمة الكتاب - أن نذكر كلمة موجزة عن محمد في التاريخ، أو محمد في العالم وأحداثه الخالدة. وهو بحث يغنينا فيه الإيجاز..."[٢٨٠]

[٢٧٨] العقاد،عباس محود، *عبقرية محمد*، ص ١٣٥

[٢٧٩] نفس المرجع. ص ٥٦.

[٢٨٠] نفس المرجع. ص ١٣٥.

قصد العقاد حينما أخذ الكتابة عن النبي ﷺ، الرد المفحم، والقول المسكت على أدعياء العلم ومتشدقي الثقافة الذين لا يعرفون لها موضعا إلا في ذواتهم البائسة، وآخرون امتلأت نفوسهم بحقد دفين لا يجدون له من مبرر إلا أنه شهوة خارجة من الحقد، يسوقهم الجهل والحمق، ولا يعتمدون على العلم فيما يخطئون، نثروا كنانتهم المسمومة من أجيال بعيدة يريدون إصابة الإسلام بمقتل، فرأوا درته الناصعة في شخص رسوله ﷺ فسددوا سهام نفوسهم الملتوية، ولكنهم لم يصيبوا، وبعضها ارتد على راميه ليصيبه ومن سهامهم التي ارتدت على نحورهم، ثناء كثير من عقلائهم على نبي الإسلام حين أبصروا حسن الخلق وسلامة الباطن في تلك الشخصية الكاملة السوية، ولذلك قام "بتبرئة المقام المحمدي من تلك الأقاويل التي يلغط بها الأغرار والجهلاء عن حذلقة أو سوء نية "[٢٨١].

ولقد انصب الاتهام على شخصية الرسول ﷺ، من جهة موقفه ﷺ من الحرب، وأن الإسلام اتخذ من الحرب مبدأ لنشر دعوته عنوة، يدخل بها الناس قسراً وقهراً، وبين العقاد بحججه الداحضة إنما كان الرسول ﷺ يحارب دفاعاً عن

[٢٨١] نفس المرجع. ص١٢ .

الحق، ولرفع راية التوحيد، وليس ثمة أي غرض آخر، وأيضا كان يراعي فيها كل المبادىء والقيم التي التزمها الإسلام وجعلها قانونا لأتباعه بأن لا يعتدوا.

واستعرض العقاد الحياة الزوجية للرسول ﷺ، وأسهب فيها القول وأجاد، وهو يفسح الصفحات الطوال في الرد على المعرضين، مما جعله في أحيان كثيرة يبتعد عن محور البحث حول الشخصية وقد كان شغله الشاغل كشف الحقائق أمام هؤلاء الجهلاء وإسكات المتطاولين، في فصل: الحرب وفي فصل والزواج . تناول فيهما العقاد عبقرية الرسول العسكرية، والرسول الزوج هما من أطول فصول هذا العرض في الكتاب.

لقد اطمئن العقاد بإظهار العظمة الإنسانية في شخص الرسول ﷺ، فأظهر هذه العظمة والمقدرة مع حياة الرسول ﷺ بعقلانية لا تعرف الميل أو الانحراف، تناول حياة الرسول ﷺ منذ المولد. والداعي والمواجه لأعداء الدعوة التي كلف بها، فكانت عبقرية محمد العسكرية، ثم السياسية، فالإدارية، عارضاً خلال تلك الفصول لأهم ما تميزت به هذه الشخصية من صفات جليلة وخصال حميدة، وجرأة في الحق، ثم يصور الرسول ﷺ الكريم في بيته كزوج وأب ومع الصحابة كصديق، وفي الحقيقة فإن هذا العرض الذي قام به العقاد قد أوفى فيه العطاء، بأسلوبه المتميز.

وأن معالجة العقاد لهذه الشخصية الكريمة في هذه الصورة كانت جديدة في عرضه وتحليله، ويصف العقاد 'عبقرية محمد' مبينا أنها "ليست سيرة نبوية جديدة تضاف إلى السير العربية والإفرنجية التي حفلت بها المكتبة المحمدية حتى الآن، وإننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها في هذه الصفحات، على اعتقادنا أن المجال متسع لعشرات من الأسفار في هذا الموضوع وليس الكتاب شرحا للإسلام أو لبعض أحكامه، أو دفاعاً عنه أو مجادلة لخصومه، فهذه أغراض مستوفاة في مواطن شتى، يكتب فيها من هم ذووها ولهم دراية بها وقدرة عليها، إنما الكتاب تقدير لعبقرية محمد بالمقدار الذي يدين به كل إنسان ولا بدين به المسلم وكفى بالحق الذي يبث له الحب في قلب كل إنسان، وليس في قلب مسلم وكفى فمحمد هنا عظيم لأنه قدوة المقتدين في المناقب، التي يتمناها المخلصون لجميع الناس، عظيم لأنه على خلق عظيم"[٢٨٢]

واستعرض العقاد عبقرية محمد ﷺ، في مجالات شتى وجوانب مختلفة، مستهلا بعرض مقدمات مولد الرسول ﷺ، يعرض هذه المقدمات من خلال البيئة والأحداث المتعلقة بالحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية، ومبينا فساد العبادات المتمثلة بالأصنام وإرضائها، والاعتقاد بالعرافين، ومن خلال فساد المجتمع أخلاقيا بين الجوانب الاجتماعية، يدخل إلى الجانب الاقتصادي

[٢٨٢] نفس المرجع. ص ١٠.

وقد وصل منه إلى ذكر "مدينة واحدة تجتمع فيها ثروة الجزيرة، وعصبة واحدة من سادة القوم تجتمع في أيديها ثروة المدينة، حالة لا استقرار فيها، فمن هنا الترف، والطمع، والخمر، والقمار، والمنعة، وتسخير الأقوياء للضعفة، ومن هنا الفاقة، والحسرة والشك في صلاح الأمور"[٢٨٣]

ويعطي العقاد الصورة الواضحة للعصر الذي ولد فيه الرسول ﷺ وعاش، ويصور شدة الظمأ الذي كانت تشعر فيه الإنسانية وقتئذ، وهو بعرضه لهذه الصورة الملتاعة يريد من قارئه أن يصرخ مادياً على منقذ ينجي هذه الأمة والإنسانية من ذلك الهلاك حتى يضع الإنسان على أكمل ما يكون، فعصر الرسول ﷺ إذن يحتاج إلى نبي، ونبي بشريعة، فكان محمد ﷺ، هو ذلك المنتظر لإنقاذ البشرية، وكان الإسلام هو جادة النجاة للإنسان، فكانت الدنيا على موعد معه فالعالم "يتطلع إلى نبي وأمة تتطلع إلى نبي، وقبيلة وبيت وأبوان أصلح ما يكون لإنجاب ذلك النبي"[٢٨٤]

ويواصل العقاد ذكر ملامح الرسول ﷺ، وهذه الملامح والشمائل هي التي أهّل الرسول ﷺ لوضع عبئ الدهر على عاتقه، وهذا النبي لم يكن غافلا ولا جاهلاً ولكنه خبر الحياة وعراكها، وقام تكاليف نفسه وهو شاب، وعرف الناس، فهو

[٢٨٣] نفس المرجع. ص ١٠.

[٢٨٤] نفس المرجع. ص ١٩.

"خبير بكل ما يختبره العرب من ضروب العيش في البادية والحاضرة تربى في الصحراء وألف المدينة ورعى القطعان واشتغل بالتجارة، وشهد الحروب والأحلاف، واقترب من السراة، ولم يبتعد من الفقراء، فهو خلاصة الكفاية العربية في خير ما تكون عليه الكفاية العربية، وهو على صلة بالدنيا التي أحاطت بقومه، فلا هو يجهلها فيغفل عنها، ولا هو يغامسها كل المغامسة فيغرق في لجتها، أصلح رجل من اصلح بيت في أصلح زمان لرسالة النجاة، على غير علم من الدنيا التي ترقبها" [٢٨٥]

وأوضح العقاد بأن دعوة الإسلام قامت في عصر احتاجت إليها البشرية، ومهدت لها الحوادث وقام بها داع تهيأ لها بعناية ربه ثم بموافقة أحواله وصفاته .

ومن المعروف تأثر العقاد بالشيخ محمد عبده ومدرسته في الاصلاح، ولا يمله الثناء عليه، وكان لا يذكر اسمه إلا بتقديمه بالأستاذ الإمام، وكان محمد عبده من الذين يفسرون المعجزات، والعقاد يجاريه في ذلك فينكر على الذين يدعون بأن مولد الرسول ﷺ شهد معجزات خارقة ويبين أن "الذين سمعوا بالدعوة، وأصاخوا إلى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة، لم يشهدوا بشارة واحدة منها، ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا إليه، وقد ولد مع النبي عليه

[٢٨٥] نفس المرجع. ص ١٣٠.

السلام أطفال كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها، فإذا جاز للمصدق أن ينسبها إلى مولده، جاز للمكابر أن بنسبها إلى مولد غيره، ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين إلا بعد عشرات السنين، يوم تأتي الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وإنكار المتكرين"[٢٨٦] ويؤكد العقاد على اقتناعه متسائلا "ماذا من أساطير المخترعين للأساطير أعجب من هذا الواقع ومن هذا التوفيق؟ علامات الرسالة الصادقة هي عقيدة تحتاج إليها الأمة، وهي أسباب تمهد لظهورها، وهي رجل يضطلع بأمانتها في أوانها"[٢٨٧]

والمعجزة في رأي العقاد "علامة الكون وعلامة التاريخ، قالت حوادث الكون : لقد كانت الدنيا في حاجة إلى رسالة، وقالت حقائق التاريخ : لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ"[٢٨٨]. بملكاتها الذاتية وبصفاتها التي نسجت من أفعالها وأقوالها، وإن المسلمين افتتنوا بها وانبهروا بمواهبها، وهو السبب المهم لدخول الناس في الإسلام على حد تعبير العقاد، وجعله مقدما على اطمئنان الناس للإسلام كدين يحفظ لهم الحرية من كل أنواع الرق في الحياة، ولكن الحقيقة التي لا بد من ذكرها أن المسلمين بالرغم من إعجابهم الشديد بالرسول ﷺ، وحبهم له دون حدود، لأن بناء الرسول ﷺ أهل

[٢٨٦] نفس المرجع. ص١٥.

[٢٨٧] نفس المرجع. ص١٤.

[٢٨٨] نفس المرجع. ص١٣.

للإعجاب والحب، ولكن تخالف الحقيقة حينما نقصر دخول الجاهليين إلى الإسلام على هذا الدافع فقد آمنوا بالإسلام إعجابا بالرسول ﷺ من جهة وإيمانا يقيمه لاستوائه في نفوسهم وانسجامه مع فطرتهم من جهة ثانية.

"لو اقتصر دخول المسلمين في الإسلام على إعجابهم بشخص الرسول ﷺ، وحبهم له، لانتهت الدعوة الإسلامية بوفاة الرسول ﷺ أو بغير وفاته إثر زوال يزول سحر الافتتان، ولكن الدعوة الإسلامية استمرت قروناً طويلة، وما ذلك إلا لملائمة الإسلام للفطرة البشرية التي انجذبت إليه في زمن الرسول ﷺ، ثم استمر الانجذاب في الأزمان التالية" [٢٨٩]

وفي مسألة المعجزة وازن العقاد بين الإسلام واليهودية، وكيف كان بنو إسرائيل يجمحون في الاستجابة لدعوة أنبيائهم ويتباطؤون انتظارا للخارقة، ويكفرون عند انتهائها، فتنطفىء نفوسهم بعد ضيائها ولذلك عندما اعتمدت اليهودية على الخوارق كانت قد اتبعت الصواب في أولئك الغلاظ، وقد دخل الإسلام طريق الحق حينما جعل معجزته في القرآن، الذي لا يعرف الانطفاء، بل يزداد بريقا كلما انطوى الزمان، ومسلك النبوة معجزة في الخلق لا تطاول، ولهذا فهو يجعل من خلق محمد ﷺ معجزة تتضائل عندها كل المعجزات والخوارق، ويجعل منها

[٢٨٩] التوبة، غازي. *الفكر الإسلامي المعاصر دراسة وتقويم*. ص ٢٤٢.

سندا واقعياً ينصره على إرساء قواعد علمية للبحث الذي طرقه، فيسترسل في تحليل صفات النبي ﷺ، وتعليلها بحسب ما بين يديه من علوم ومعارف عصرية، ورأى فيها تلائما عجيبا لرسالة محمد ﷺ من حيث أنها أتت لتحرير العقل والنفس والروح من قيد التقليد وعبادة الأوثان.

وبمثل هذا الطريق الجديد والأسلوب المبتكر اتخذ العقاد شخصية الرسول ﷺ دليلا لا يحتاج بعده إلى دليل لإقامة الحجة على صدق نبوته، ولجأ العقاد في دراستها إلى الحوادث البسيطة يستنبط منها بنظره الثاقب صفاء الأخلاق، ويستغرق أبعاد الحادثة محللا، شأنه في تراجم الأشخاص، ولم يترك التدقيق حتى يصل إلى النوازع النفسية العامرة فيها، ولقد هداه ذلك المسلك، إلى التأمل الدقيق جدا في الصفات ليميزها حتى تنظم كل واحدة ضمن حقيقتها وواقعها ولكي تكون بحرا من الالتباس مع قرائن لها وأشباه، تغيب على الحصيف أحياناً، ولكن العقاد بمقدرته الفائقة "ميز بين من يستحق العظمة أو من يمكن أن نسميهم عباقرة، وبين من يستحق الامتياز فحسب، ولا تلحقه صفة العبقرية"[٢٩٠]

ولقد قصد العقاد من هذا الإلقاء إعطاء العظيم حقه من الاهتمام، في وقت تعرض فيه أولئك للامتهان بعد نسيان، وصقل تلك الصفات بعد أن أصابها الغمط والإنكار حقبة من الزمن، وكان دافعه من وراء هذا الأمر هو دفع

[٢٩٠] الشمري،حمد بن نايف. *العقاد وتراثه الإسلامي. القاهرة :مطبعة التقدم*.د.ت. ص ٧٣.

المصلحين والنابغين لتقديم الهداية والرشاد وكل ما يكفل السعادة للإنسان أينما كان، لأنه بضياعهم تضيع القيم في الحياة ويبرأ الناس من تقديم الخير، ما دام جزاؤهم الجحود والإنكار، ولا يجوز أن تلهي الحياة الإنسان بزخارفها وبريقها لنسيان كل ما قدمه السابقون، فلولا القطر ما هطل الغيث، والحياة اللاحقة مدينة لسابقتها، وما إنجاز الحاضر إلا تراكمات الأجيال قبله، والرجال العظماء هم أسس هذا الإنجاز في حياة الناس مادياً كان أو متحمسا بالروح، والعصر الحديث لم يأت بجديد لم يكن له من القديم عرق يغذيه، وليس هذا الجديد ناسخا "للقديم في كل شيء، حتى في ملكات النفوس والأذهان وهي مزية خالدة لا ينسخ فيها الجديد القديم، هذه الآفة تهبط بالخلق الإنساني إلى الحضيض، وتهبط بالرجاء في إصلاح العيوب الخلقية والنفسية إلى ما دون الحضيض، لهذا كان تقدير محمد بالقياس الذي يفهمه المعاصرون ويتساوى في إقراره المسلمون وغير المسلمين نافعاً، الزمن الذي إلتوت فيه مقاييس التقدير" [٢٩١]

لقد تمكنت فكرة العظمة من العقاد، فتأمل في تصويرها وتقديمها تقديرا لصاحبها وإجلالا له، واحتراما للمسلم وللإنسان كيفما كان، فالمسلم له أن يقدر

[٢٩١] العقاد،عباس محمود.*عبقرية محمد*. ص ١٢٤.

محمدا ﷺ، مرتين"مرة بحكم دينه الذي لا يشاركه فيه غيره، ومرة بحكم الشمائل الإنسانية التي يشترك فيها جميع الناس"[٢٩٢]

والقدرة على النقد والتحليل متأصلة في العقاد شاهدة للعيان دائما، ولعل بروزها في العبقريات من الوضوح بمكان بحيث لا يمكن إغفاله ولو للحظة خاطفة، ومن عادته التحليل والتعليل والاستنتاج والأخذ والرد على الخصوم وعلى غيرهم من مثل الصديق الجاهل، ولذلك فهو لا يسرد الحوادث والوقائع كما يسرد القاص، بل يمحصها ويحدجها بنظرة حادة إلى أبعادها ويناقشها، ثم يزنها بميزان عقله وثقافته حتى يصل إلى حكم يشتمل على الاقتناع بمقياس من العلم والمنطق السليمة والفطرة الصائبة.

وفي تصويره لعبقرية الرسول ﷺ، لم يجنح العقاد إلى التاريخ المحض بالوقوف على جزئيات السيرة الرسول ﷺ ووقائعها التي لا تحصى ولا تحصر، واستطاع أن يلائم بين التاريخ والفن ملائمة موفقة، تفرد به كتابه في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن هنا صار كتاب 'عبقرية محمد' عرضة النقاد منذ نشره، فاتهموه بالتطاول على شخصية الرسول ﷺ بعرضها على التحليل النفسي، باعتباره عليه السلام شخصاً عادياً يجوز عليه ما يجوز على البشر الآخرين، ومحمد ليس كأي فرد أو عظيم ممن تنطبق على حياتهم وسلوكهم أصول علم النفس أو الحكم عليهم

[٢٩٢] نفس المرجع. ص١٢٥.

بمحض الرأي، ويرد أحد الدارسين على تلك النظرة قائلا "نخطىء كثيراً عندما نزن محمداً ﷺ بكفة العبقريات البشرية الأخرى، لا لشيء، بل لاختلاف في النوع، وانعدام في الصلة، ولقد فصل العقاد بين الجانب المادي والجانب الروحي الغيبي في شخصية الرسول ﷺ، وأظهره مجرد إنسان يعمل بمواهب نامي، لكن الرسول ﷺ عاش حياته بوحي السماء، وسير مواهبه وملكاته بغيبها. جرد العقاد الرسول من رسالة الإسلام، وقفز عنها ولم يظهر أثرها في بناء شخصيته، وما بلغ الرسول ﷺ السمو الرفيع، والدرجة العالية إلا بتوافق ملكاته رسالته، وما كان نموذجا فريدا في تاريخ الكمال الإنساني إلا من خلال التزامه بتعاليم دعوته، ونحن لن نتمكن من فهم كمال الرسول ﷺ، ولن نحيط أسرار شخصيته إلا بالإحاطة برسالته"[٢٩٣]

الحقيقة التي تكمن في العقاد، هي التقدير العظيم والإجلال الوافي والمسبق في ذهنه وروحه وقلبه حيال رسول الله ﷺ، فكان ذلك منجاة له من الحراف مقاييس علم النفس، وهكذا كان يسير على بصيرة ورشاد ومن خلال تقديمه للظروف التي كانت تحياها العرب والأمم من حولها والفساد الذي عم الأرض كل تلك كانت أسباباً ومقدمات لخروج محمد ﷺ، ليحيي النفوس بعد موات فكان قد اجتمع في شخصه لمصلح اجتماعي، والثائر على الأوضاع التي بلغت أقصى ما

[٢٩٣] التوبة، غازي. *الفكر الإسلامي المعاصر*. ص ٢٣٦.

يبلغه الفساد في الأخلاق الاجتماعية والاقتصادية، فالعالم كان متداعياً، بل هو مشرف على الانحلال والتدهور الاجتماعي، لأنه لا رقيب على تصرفات الفرد والجماعة، لا من ضمير، ولا من قوة عادلة تبسط الحق والعدل، فالجور سمة للعصر والدنيا كلها مترقبة كما وصف ذلك العقاد في صفحات العبقريات، والدنيا بأجمعها حين تنتظر ذلك الشخص لا بد أن تتوافر فيه ما لا يمكن أن يتوافر بغيره، وهو إن توافر فإنما يتفرق بين أفراد عديدين، هذه الشخصية إذا شخصية الرجل الحق، ودليل انتظار الخلق صادق على أحقية الرجل في ذلك، وهي شخصية اجتمعت لها من الظروف ما جعلتها في القمة، ولقد صور ذلك من خلال البيئة والعصر والوضع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، ووصفها بما هي أهل له حتى تمسك زمام الدعوة إلى الإصلاح من الداخل والخارج على السواء.

ولا يفوت العقاد شغفه لإبراز شخصية الرسول ﷺ الكاملة، أن يفتخر بميزة نظام الحياة في الإسلام، وبأن الإسلام دين عقيدة وشريعة، فهي تشمل الروح كما تشمل الجسد، وهو دين ودنيا، والشريعة في الإسلام تستند على العقيدة، فالأعمال بالنيات "كانت عبادة محمد خلوا بالنفس إلى حين، أو عجبا من بدائع الكون التي ألفها الناس لأنهم لم يوهب لهم في أبصارهم وبصائرهم تلك النظرة الجديدة التي ترى كل شيئ كأنه خلق جديد... وهكذا كانت عبادة محمد ﷺ: عجب

من بدائع الكون في كل نظرة يراها لأول مرة، وتفكير في الخلق ينتهي إلى الإيمان لأنه يبدأ بالعجب، ولا يزال أبدا بين العجب والإيمان" [٢٩٤]

ومحبة العقاد لبيان طرق الإصلاح من خلال الإسلام والنظم الاجتماعية الوضعية مجبولة، وفي أماكن أخرى وهو يرد على المعترضين الذين وصفوا الإسلام بأنه ملة عبادة فقط، وحين طرق المعاملات والتشريعات للناس إنما جاء بالفوضى ونظمه ينقصها النظام الدقيق المفصل المجالات المختلفة، فيرد على تلك الافتراءات مبينا في "أن أحوال المعيشة الاقتصادية والنظم السياسية تتقلب من زمن إلى زمن، وتختلف بين أمة وأخرى، فيصلح لهذا الزمن ما لم يكن صالحاً قبل خمسين أو ستين سنة، وما ليس بصالح بعد خمسين أو ستين سنة أخرى، فكيف يتقيد الناس فيها على اختلاف الأزمنة بفريضة من الفرائض يدين بها الناس مئات المئين، ويثبت مع الدين ثبوت العقيدة التي تتزعزع مع الأيام، ولا تساوي شيئا في موازين الأديان إن لم يكن لها هذا الثبوت وهذا الدوام؟ إنما يناسب الدين أن يبين للناس قواعده التي يستقر عليها كل نظام صالح يأتي به الزمن، ولا عليه بعد ذلك أن تختلف هذه النظم بين أمة وأمة العصر الواحد أو تختلف الأمة الواحدة بين عصرين" [٢٩٥]

---

[٢٩٤] العقاد،عباس محمود. *عبقرية محمد*. ص ١٢٢.

[٢٩٥] نفس المرجع. ص ١٥٠.

والعقاد يركز على الحدث الذي صنعته الشخصية ليصور جانب العظمة فيها، ولهذا فمعالجته للشخصية يأتي من طريق غير مباشر، وكذلك لايطلق عنانه في التاريخ العام، ولكنه يكتب أدبا معتمدا على التاريخ، كما يصف الرسول ﷺ في مجال الحرب، "كان يعم القائد البصير إذا وجبت الحرب ودعته إليها المصلحة اللازمة، ويعلم من فنونها بالإلهام ما لم يعلم غيره بالدرس والمرانة، ويصيب في اختيار وقته وتسيير جيشه وترسيم خططه إصابة التوفيق وإصابة الحساب وإصابة الاستشارة" [٢٩٦]

فالعقاد بهذا المنهج ينتقي ما يخدم فكرته ويدعم رأيه، ويكمل له الصورة التي يقصد نشرها، ولذا فهو لا يعرض للغزوات والسرايا ويتحدث عنها حديث المفصل لحوادثها ولكنه يستل منها حقيقتها والعبرة التي يسترشد بها أبناء البشر دائما وأبدا، وهو من وراء كل ذلك يريد إبراز مكانة هذه الشخصية حتى في أعصب ما تعانيه البشرية، فإذا هي رحمة تمسح شقاء الحرب وويلاتها، وقائد يمنع جنده من التعرض لطفل أو امرأة أو شيخ أو ناسك متعبد، بل وحتى الشجر لا يقطع.

ويفترق العقاد عن خط السير المألوف، لأن طريقته تلك انتقائية، ولكنها من الناحية الأدبية لا غبار عليها، لأن العقاد قصد إلى متابعة الشخصية وبلورة

[٢٩٦] نفس المرجع. ص ٢٩.

أعمالها المضيئة في صور أدبية، تشير إلى العظمة والعبقرية، وهذا جزء من أدب السيرة الذي يعتني بالجانب الهام في الشخصية، ويتناولها على هذا الأساس لتكون محورا تدور عليه الأحداث الهامة الناتجة عن عمل الشخصية وسلوكها في الحياة، وكثيراً ما تتلاشى الشخصيات الجانبية إزاء هذه الطريقة الاختيارية بما فيها من تركيز على الشخصية المعنية بالبحث، والعناية بها وحدها دون غيرها، ويبدو ذلك في وصف العقاد للرسول ﷺ بالقائد البصير، وقد قام بتطبيق ذلك المعنى على بعض غزوات الرسول ﷺ مثل غزوة بدر التي تعد التجربة الحربية الأولى في إدارة المعارك الكبيرة، والتي تبرز جانب المشورة عند الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حين استشار الحباب بن المنذر، وقد أشار عليه أن يقيموا على آبار بدر، فأخذ عليه السلام بالمشورة، وهذه إحدى سمات القيادة البصيرة، وعدد من تلك الخطط الحربية من استعملها من القواد بعد ذلك . كما فعل نابليون . فعدت من الأمور العسكرية التي لا يتفتق عنها إلا ذهن عبقري، ويهتم العقاد فضل العقيدة ويعترف معجزة الإيمان "ومعجزة الإيمان هنا أعظم جدا من أكبر مزية بلغها نابليون بفضل ما أودع نفوس رجاله من صبر وعزيمة. فالنبي ﷺ كان يحارب عربا بعرب، وقرشيين بقرشيين، وقبائل من السلالة العربية بقائل من صميم تلك السلالة، فلا يقال هنا إن الفضل لقوم على قوم في المزايا

الجسدية أو المزايا النفسية كما يمكن أن يقال هذا في جيوش نابليون، وكل فضل هنا فهو فشل العقيدة والإيمان"[٢٩٧]

فالرسول الكريم سبق نابليون في كثير من مبادىء الحرب، فالمبادرة للحصار في جميع غزواته عليه السلام، ورفع القوة المعنوية كانت بادئة على يديه والقضاء على القوة المالية والتجارية والاستطلاع وغيرها قد أداها وعمل بها قبل أن يفكر بها قائد عسكري، وهو في هذا العرض يرد التهم ويكف سهام الحقد العمياء، ويؤكد دائما أنها حرب من أجل الحق والعدل ولا تصيب للنفس والشهوة من مطمع فيها، لأنها دعوة، ولأنها دعوة خير.

استخدم العقاد شخصية الرسول ﷺ وحياته المثالية للرد على خصوم الإسلام، ولم يعد الخوارق التي وقعت قبل النبوة والمعجزات التي ظهرت على أيدي الرسول ﷺ أدلة يستدل بها لإبراز شخصية الرسول ﷺ،واحتكم إلى العقل في قبولها، والمعجزة عنده القرآن الكريم والإيمان. وفي هذه النقطة أيضا اختلف العقاد كتاب سيرة الرسول ﷺ من المتقدمين والمتأخرين. غير أن منهم من ترك ذكر الخوارق التي وقعت قبل النبوة بسبب عدم صحة المرويات فيها. فالعقاد لم يقبلها بتحكيمه العقل، وسائر الكتاب أعرضوا عنه بعدم ثبوت الرواية عندهم.

[٢٩٧] نفس المرجع. ص٣٠.

كتاب 'عبقرية محمد' من جانب الشكل

ويستحق كتاب 'عبقرية محمد' ﷺ الدراسة والتحليل من جانبه الشكلي، مع ما يجدر الدراسة من جانبه المنهجي والأسلوبي والأدبي، والمراد بالشكل ترتيب الموضوع التاريخي وصورة عرضه.

اتخذ العقاد شكلا متميزا في تأليف كتابه 'عبقرية محمد' وذلك منهج مختلف من منهج كتابة السيرة عند الكتاب وشكلهم منذ القدم إلى العصر الذي عاش فيه العقاد، ورأى العقاد أنّ المقدمات التي ركّز عليها القدماء في كتب السيرة لبيان السبب الطبيعي لمجيئ الرسول ﷺ يقصي القارئ عن المعرفة لما فيها من خوارق وأساطير. والقراء في العصر الحديث لا يقتنعون إلا بما يقام بالدليل، فابتعد كثير من الأدباء من هذا الشكل، والعقاد واحد منهم " فهو يريد أن يجلو كل ما يتعلق بالسيرة من أمور تلوح كالمعجزات، فهو يريد أن يجلو صورة العظمة الإنسانية كما يفهم البشر وبحيث يفهم البشر"[٢٩٨] و المقدمة التي أعدها العقاد للكتاب رفيعة الدرجة من نوعها، وهي شيقة الأسلوب، جذابة الشكل، وهو صور بأسلوبه المتسلسل العذب النسب الطاهر للرسول ﷺ، والقبيلة التي ينتمي إليها ومكانها في علية القبائل ودور ذلك في تكوين شخصية الرسول ﷺ، أخلاقيا

[٢٩٨] فاروق خور رشيد، وأحمد كمال زكي. *محمد في الأدب المعاصر*.ص ٢٣.

وتربويا. يتحرر العقاد في موضوع تاريخي كسيرة الرسول ﷺ بأسلوبه الأدبي لصياغة المضامين التي تبرز شخصية الرسول ﷺ الحق الذي تتطلع إليه الجزيرة العربية والعالم بأكمله. ووقف معظم كتّاب السيرة الأوائل على هذه النقاط بكلمات مألوفة مقالية، لا تؤثر في القلوب ولا تنجذب إليها النفوس، ومثل هذه المواقف في الشكل والأسلوب في 'عبقرية محمد'ﷺ جعل العقاد منفردا بين سائر كتاب السيرة.

وليكون الكتاب مؤثرا في رسم شخصية الرسول ﷺ، التي وصفها بالعبقرية، لا بد أن يكون لها سمة الكمال حتى يكتب لرسالته النجاح، لذلك أفرد العقاد فصولا يرسم فيها الرسول ﷺ في مجتمعه، وفي اختلاطه بالناس ومحاولاته لكسب قلوبهم وجمعها إليه وسلك له طريقا كحلاوة المنطق والخفة، والرسول ﷺ مع عظمته لم يعرف الكبر إلى نفسه سبيلا "فقد كان جامعا للمحبة والثقة كأفضل ما تجمعان، وكان مشهورا بصدقه وأمانته كاشتهاره بوسامته وحنانه وشهد له بالصدق والأمانة أعداؤه ومخالفوه كما شهد بهما أحبابه ومرافقوه"[٢٩٩] وعلى هذا المنهج أظهر العقاد جوانب شخصية الرسول ﷺ في البيت وفي المجتمع وفي العسكر، بقلم فياض يسقط أمامه المعارضون المعاندون في شخصيته ﷺ.

[٢٩٩] العقاد،عباس محمود. *عبقرية محمد*. ص ٢٧.

وقد حلل العقاد شخصية الرسول ﷺ، من خلال سيرته، كما حلل طرق الإصلاح من خلال الإسلام بنظمه الاجتماعية، ورد على المعترضين الذين وصفوا الإسلام بأنه دين للتشريع والمعاملات ينقصه النظام المفصل الدقيق في الاقتصاد والسياسة. وقد فصّل العقاد جميع جوانب العبقرية في شخصية محمد ﷺ مستكملا حقها تماما، وأن شخصية الرسول ﷺ ترجح بميزان العبقرية وميزان العمل وميزان العقيدة، وحينما يدافع عن شخصية الرسول ﷺ أويرد على المستشرقين يختلط بين شخصية محمد ﷺ الرجل الإنسان، وبين شخصية محمد الرسول ﷺ، وهو في كل جانب من تلك الجوانب يمثل الكمال في أسمى صوره، فصار مزيج هذا كله عبقرية نادرة خالدة للنفس البشرية المتكاملة "وكان العقاد في كتابه هذا فنانا أحس فعبر، وجاشت نفسه بانفعالات قوية أرادت إلا أن تخرج على الناس وقد اكتست هذا الثوب المنطقي الذي لا يستطيع أن يخفى جوهر الوجدان الحي وراءه. .. فبعد عن الترجمة ونأى عن التاريخ وازور عن الغيبيات ليغدو آخر الأمر بنانا يومئ إلى تلك العظمة في آفاقها" [٣٠٠]

ومع بيان شخصية الرسول ﷺ وأخلاقه وقد داوم الكتاب بيان ملامح جسمه ﷺ، والعقاد بين كلا من أوصاف الرسول ﷺ في جسمه وما في قوته النفسية في فصل " الرجل" وله في هذا الفصل عناوين جانبي منها: المختار وقبوله للدعابة

[٣٠٠] فارو ق خور رشيد، وأحمد كمال زكي. *محمد في الأدب المعاصر*. ص ٤٢ .

وأريحية محمد وآدابه الاجتماعية وعزيمة الزهد والإيمان. وقد وردت في الأحاديث عن أوصاف جسم الرسول ﷺ، والعقاد جمع هذه الأوصاف في بعض الجمل حيث يقول" إذا نظر إليه الناظر رأى رجلا أزهر اللون، عظيم الهامة، مفاض الجبين، سبط الشعر، أزج الحاجبين بينهما عرق يدره الغضب، أدعج العينين في كحل، أفنى الأنف، يحسبه من...[٣٠١]

ويشير العقاد إلى مراجع كتب الأقدميين أثناء بيان الأحداث، غير أنه لا يذكر الصفحة وما إليها من البيانات، وما ذكره من المراجع أيضا نزر قليل، ويورد آيات قرآنية وقطعات من الأحاديث والأثر في مواضع مختلفة.

مقاربة كتاب 'عبقرية محمد' من منظور ديني

وكتاب 'عبقرية محمد' باعتبار كونه جزء من تاريخ الإسلام، وبيان لشخصية الرسول ﷺ، لم ينج من النقد، بل صار عرضة النقاد، ولم يخلصه من التعقيب، أسلوبه الرائع، وتفوقه الأدبي وشكله المباين. وذلك لأن كتب السيرة لا بد لها أن تتعرض لنقد ونقاش من جانب ديني، حتى صار عنوان الكتاب وفكرة العبقرية مبعث التهمة. وشخصية العقاد وإسلامياته وسلسلته في العبقريات أيضا واجهت النقد من قبل علماء الإسلام ومثقفيه. ومن واجبات كتاب سيرة الرسول ﷺ ذكر معجزات الرسول ﷺ إذ ظهر على أيدي الرسول ﷺ معجزات كثيرة "إن

[٣٠١] العقاد،عباس محمود. *عبقرية محمد*.ص ١٢٦و١٢٧.

إثبات المعجزة الخالدة (القرآن الكريم) ونفي بقية المعجزات الثابتة بالنقل الصحيح إنما هو في الحقيقة خضوع وانصياع للفكر المادي والفلسفات الوضعية"[٣٠٢]. وقلة الحركة الفكرية في العالم الإسلامي، غيّب الكتابة الجادة في التاريخ عند المسلمين في القرن التاسع عشر وفي العقود الأولى من القرن العشرين، فصارت الدارسات التاريخية التي قام بها المسلمون في هذه الفترة انعكاسا لآراء المستشرقين وأفكارهم، ولما حاول العقاد رد دعايات المستشرقين عل شخصية الرسول ﷺ متخذا أسلوب المستشرقين ومنهجم تسرب إلى كتابه 'عبقرية محمد' أخطاء ذلك الأسلوب والمنهج.

واتهم فريق من العلماء العقاد في إخلاص دينه ونيته. وألف محمد الشيخاني كتابا باسم 'هل محد ﷺ، عبقري مصلح أم نبي مرسل' وبين فيه الكاتب أنه من الجور أن يتصف النبي بالعبقرية لأن كلمة العبقرية لا يسع لينضم معنى النبوة "ولو رحنا ننظر بعين الحق دون تحيز إلى عالم النبوة لوجدنا الأمر يختلف كل الاختلاف، فمحمد ﷺ ليس عبقريا لأن ما أوردناه من سمات وصفات لاتنطبق على شخصيته ومسيرة حياته" [٣٠٣]

[٣٠٢] العمري، أكرم ضياء. *السيرة النبوية الصحيحة*. ص ١٧.

[٣٠٣] الشيخاني، محمد. *هل محمد ﷺ عبقري مصلح أم نبي مرسل*. صفحة ١٢.

واتهام آخر هو أن العقاد يبتعد عن الحقيقة حينما يرجع نجاح محمد ﷺ جنديا وقائدا ومديرا وزوجا وأبا، إلى ميزته الذاتية، وإلى مواهبه الفطرية، وهو ظاهر في شرحه لعبقرية الرسول ﷺ العسكري، يقرر العقاد ست حقائق لعبقرية الرسول ﷺ العسكرية، ثم يقارن بين خططه وبين خطط نابليون بونابارت، ويثبت فيها سبق الرسول ﷺ في جميعها، ولكن هل عبقرية محمد ﷺ منحصرة على الخطط والتجربة؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه المتهمون، كأنما ينكر العقاد وعد الله ورعايته، وتوفيقه، والنعاس الذي غشي المسلمين أمنة في حروبه، كل هذا يشير إلى رعاية الله وقوة الإيمان، ولكن العقاد أهمل كل هذا، ويوردون كثيرا من الآيات القرآنية في مقام الحرب دعما لدعواهم.

ورموه البعض بمجاوزة الحد في شخصية الرسول ﷺ، حين عرض شخصية الرسول ﷺ على التحليل النفسي، واعتبر الرسول ﷺ شخصا عاديا يقع منه ما يقع من البشر الآخرين، وإنه فصل بين الجانب المادي وبين الجانب الروحي الغيبي في شخصية الرسول ﷺ، ويرد على العقاد غازي التوبة "جرّد العقاد الرسول من رسالة الإسلام، وقفز عنها ولم يظهر أثرها في بناء شخصيته، وما بلغ الرسول السموّ الرفيع، والدرجة العالية إلا بتوافق ملكاته مع رسالته، وما كان نموذجا فريدا في تاريخ الكمال الإنساني إلا من خلال التزامه بتعاليم دعوته،

ونحن لن نتمكن من فهم كمال الرسول، ولن نحيط أسرار شخصيته إلا بالإحاطة برسالته"[٣٠٤]

ومع كون الكتاب ردا لآراء المستشرقين، إن العقاد انتهج مفهوم المستشرقين في التاريخ الإسلامي، والدراسات الاستشراقية فعاقه التصور السليم للإسلام وروحه وأثره في المجتمع الإسلامي وحركته التاريخية، مما جعلها غير صالحة للاعتماد على دراسة السيرة. على أن بعض التعاريف لكلمة العبقرية لايجوز أن يستعمل على الرسول ﷺ.

ومن التهمة أيضا بأن العقاد لم يعتن التثبت من الروايات التاريخية، "أحيانا إلى تقبّل روايات وأخبار لا تثبت للتمحيص لمجرد أنها تتمشى مع تلك الخصائص. والواقع أن قبول أمثال هذه الروايات دونما نقد أي تدقيق، يشكّل ظاهرة واضحة في تراجم العقاد"[٣٠٥]. ومن القائلين بأن عبقرياته ليست انتصار للإسلام، ويتهمون في إسلامه مشيرين إلى كتبه 'التفكير فريضة شرعية' و'ما يقال عن الإسلام' و'حقائق الإسلام وأباطيل خصومه' ويقولون إن كتابه'عبقرية محمد' ليس وحده كافي للحكم على ديانته.

[٣٠٤] التوبة،عازي. *الفكر الإسلامي المعاصر*. ص٢٣٦.

[٣٠٥] السكوت،حندي. *أعلام الأدب العربي المعاصر في مصر*. القاهرة:دراسة العربية بالجامعة الأمريكية. دار الكتاب المصري. د.ت. ص ١٦٠.

يحلل هؤلاء المتهمون نماذج العبقرية عند العقاد، وينبشون نفس العقاد مفتشين دوافعه عند كتابة 'عبقرية محمد' وهم لا يطمئنون بقول الكاتب الذي بيّنه في مقدمة الكتاب، فيعدون العباقرة عند العقاد واحدا بعد واحد مبتدئين من المسيح عليه السلام، ثم الرسول ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين، ومنهم محمد عبده وابن سينا، وابن رشد وغاندي الهندي، وبنيامين فرانكلين، وشكسبير وغيرهم من الذين اشتهروا في العالم الجديد في مجال السياسة والأدب وما إلى ذلك، ثم يعلقون بقولهم إنّ العقاد عدّ الرسول ﷺ بين الصوفي الملحد، والسياسي العميل، والفيلسوف، ويسألون ماذا معيار العبقرية عنده؟ إما إنه انحط بالرسول ﷺ إلى أولئك، وإما رفعوهم إلى منزلة الرسول ﷺ وكلا الفكرتين انتقاص من شخصية الرسول ﷺ. ويسألون ما الأمر المشترك بين هؤلاء جميعا؟، كأنما كان الإيمان والكفر ليس له أهمية في تفريق الشخصية والعبقرية عند العقاد، وهو معجب بكل من أتى مجدا واحتفل بهم التاريخ. وهو يجهل المصادر الصحيحة ويجهل التفرقة بين الصحيح وغيره.

ومن مقدمة كتاب'عبقرية محمد' اتخذ النقاد نقطة التهمة، إذ كتبه ردا لتطاول الناس على العظماء، تحت وطأة المساواة التي جرت بينهم اليوم، فلا يطمئنون إنما كتبه انتصارا للإسلام، وحاول إعادة صياغة شريعة الإسلام من جديد، وأراد إلباس الإسلام ثوبا جديدا. فكتب العقاد العبقرية من أجل العظمة، ومن أجل

الإنسانية، وهو بين تاريخ الأشخاص البارزين لا فرق بين الأنبياء والصديقين والملحدين. وكان معاصرا للأحداث الجسيمة في العالم الإسلامي كسقوط الدولة العثمانية، ودخول اليهود إلى أرض فلسطين ولكن العقاد لم يدافع عن الإسلام ولم يحرك قلمه ضد هذا الجور.

ومهما يكن التهمة والإدعاء حول كتاب 'عبقرية محمد' فإن هذا الكتاب يعي القارء شيئا كثيرا من سيرة الرسول ﷺ، ويزيل من نفوسه الشكوك التي بذرها أهل الهوى حول شخصية الرسول ﷺ، ويستلهمه على المحبة بشخصية الرسول ﷺ، ويدعوه إلى امتثال أحسن سلوك في حياته اليومية في شتى مجالاتها. فهنيئا بالكتاب والقراء من هذا الجانب فحسب.

الفصل الثالث

مقارنة بين 'على هامش السيرة' و'عبقرية محمد'

المقارنة بين الكتابين تحتاج إلى قراءة تحليلية اجتماعية وأدبية، ويوجد في هذين الكتابين توافق في بعض الجوانب وتخالف في جوانب عديدة. ومن ناحية التوافق يلاحظ أنّ كلا الكتابين يتضمن على مقدمة، وهي كافية لبيان مقصد المؤلفين في تأليف الكتاب، فكلاهما ألفا في السيرة في زمن واحد وإن كانت الدوافع وراء التأليف مختلفة، وكلا الكاتبين كان من أساطين الأدب العربي المنتمين إلى الفكر الليبرالي، وكانا متوالين إلى الأحزاب السياسية يكتبان في الصحف ويحررانها، وقد انتهجا منهجا مغايرا لكتابة السيرة من المتقدمين والمتأخرين من أصحاب السيرة.

وقد سبق طه حسين عباس محمود العقاد بسنوات في تأليف 'على هامش السيرة' فأصدر الجزء الأول من الكتاب عام ١٩٣٣،وتوالى بعده الجزءان، وأصدر العقاد كتابه 'عبقرية محمد' عام ١٩٤٢، غير أن العقاد فكّر في تأليف السيرة قبل ثلاثين عاما من إصدار كتابه، كما بيّن ذلك في مقدمة الكتاب.

وطه حسين والعقاد اعتمدا في مادة السيرة على كتب الأولين مثل 'سيرة ابن هشام' و'طبقات ابن سعد' وقلما يشيران إلى المصدر وذكر المرجع، ويشير طه حسين حينما يتكلم عن عبد المطلب "وحدّثت أنّ هالة أنكرته حين رأته، فقد ودعنا أبيض الرأس وعاد فاحم الشعر كأنه لم يتجاوز الثلاثين، طبقات ابن سعد ص ٥٢ ج ١"[٣٠٦]. ويشير العقاد أيضا في بعض الأماكن المرجع كقوله " قال ابن إسحاق – ما ننقله ببعض تصرف -: "إن نعيم بن مسعود الغطفاني أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّي قد أسلمت، وإنّ قومي لم يعلموا بإسلامي .. فمرني بما شئت .."[٣٠٧] ويذكر طه حسين صفحات المراجع في الهامش في الجزء الأول، وفي الجزء الثاني وهو يأتى بالإقتباسات آخر الفصول، واكتفى في الجزء الثالث بهوامش قليل.

ويورد طه حسين والعقاد بآيات قرآنية وبعض من الأحاديث النبوية إذ هما أمس المادة بسيرة الرسول ﷺ وهو عند العقاد أكثر وأوفر.

ومن جانب التخالف بين الكتابين الدوافع من تأليف الكتاب، ألّف طه حسين كتاب 'على هامش السيرة' أن يقرب الأدب القديم إلى الناس "لأن الأدب القديم

[٣٠٦] حسين، طه.*على هامش السيرة*، ج ١. ص ٣٥.

[٣٠٧] العقاد، عباس محمود. *عبقرية محمد*، ص٤٠.

فقرائته عسيرة، وفهمه أعسر، وتذوقه أشد عسرا"[٣٠٨] وأراد إزالة تهمة الإلحاد عن نفسه بسبب نشر كتابه 'في الشعر الجاهلي' كما يقول غازي التوبة "وسعى طه حسين إلى محوها وإزالتها من قلوب الناس. وأنه أراد أن ينبأ العالم أن التراث العربي شيئا يصلح للقراءة، كما يشير إليه في مقدمة 'على هامش السيرة'"[٣٠٩].

والدافع الذي دفع العقاد إلى كتابة 'عبقرية محمد' هو الرد على المعارضين على الإسلام ورسوله ﷺ، وليس من مقصده بيان تاريخ الإسلام، أي إنه استخدم كتابة سيرة الرسول ﷺ أداة للرد على المعارضين خلال شخصية الرسول ﷺ.

وقد تأثرت الدوافع عند الكاتبين في اختيار الأسلوب والمنهج في التأليف، فاستخدم طه حسين الأسلوب الأدبي القصصي يتذوقه القارئ فاتخذ الشخصيات لبيان الأحداث، وتارة يختار شخصية خارجة لتقص الأحداث ولبيان الأشخاص التاريخية، واتخذ أيضا أسلوب الكاتب المحض الذي يحكي الأحداث. واستخدم العقاد الأسلوب العلمي التحليلي الذي يعتمد على الوضوح فأتى بأدلة وبراهين عقلية تاريخية لاثبات شخصية الرسول ﷺ كإنسان عبقري، وأورد الوثائق التاريخية حسب المكان

فوخي طه حسين نفسي وسياسي وأدبي، ووخى العقاد ديني ودفاع عن الإسلام.

[٣٠٨] حسين، طه. *على هامش السيرة*. ج١. ص ٧.

[٣٠٩] التوبة،غازي. *الفكر الإسلام*. ص ١٠٨.

و لا يقبل العقاد ولا يثق بما يناقض العقل في السيرة، بل ينتقده. أما طه حسين يعتذر لتناقض بعض أحداث السيرة مع العقل، وفقدان استقامتها مع التفكير العلمي، غير أنه لإرضاء ميل الناس يأخذه ويرويه بدون وقفة ولم يتعرض ما تعرض إليه أصحاب السيرة من المتأخرين والمُحْدثين.

ومقصد طه حسين وراء تأليف هذا الكتاب يبرز في نقاط مثل، إلقاء حب الحياة العربية الأولى في الجيل الناشئ، ودفعهم إلى استغلال الحياة العربية الأولى، واتخاذها موضوعا قيّما للإنتاج العربي الخاص مجاوزا الإنتاج العلمي في التاريخ والأدب الوصفي، فالقديم لايترك بمحض قدمه ولا يقرب الجديد بمحض جدته.

وكان مقصد العقاد إظهار مزايا عبقرية الرسول ﷺ الإنسان، ويتكلم في الكتاب عن الرسول ﷺ في شتى الجوانب مستخدما الأسلوب السردي الأدبي، ومقارنا قرارته ﷺ بشخصيات تاريخية مشهورة في الجوانب الحربية والسياسة، وحياته المنزلية، ويبين عبقريته في مجال الدعوة وفي مجال السياسة، ويختار عناوين مثل محمد الرئيس، الزوج، الأب، السيد، العابد، الرجل.

وحديثه مع الأصدقاء عن كتاب "الأبطال" للكاتب الإنجليزي توماس كارليل الذي يذكر فيه الكاتب في أحد فصوله عن النبي ﷺ، دفعه إلى كتابة عن الرسول.ﷺ

ففي مقدمة 'عبقرية محمد' يذكر العقاد، أن دافعه لكتابة العبقريات هو رد تطاول الناس على العظماء، تحت وطأة المساواة التي جرت بينهم اليوم، وطلب منه بعض الأصدقاء أن يكتب كتابا عن محمد ﷺ "على النمط الحديث" مثل هذه الدوافع والطلبات قد انعكس في "عبقرية محمد" وهي تعرّف المسلمين وغيرالمسلمين على نبي الإسلام بلغة تساير العصر، وبأسلوب توافق الدهر.

وقد اتخذ الكاتبان موقفا مختلفا في بيان المعجزات والخوارق التي وردت في كتب السيرة والأحاديث، فطه حسين وصف التبشيرات عن مبعث الرسول ﷺ كما ورد في كتب السيرة، غير أنه ألبسها ثوب القصة. واتخذ موقفا معتدلا تجاه المعجزات والخوارق التي وقعت في حياة الرسول ﷺ قبل البعثة وبعدها، فلم يتعرض طه حسين بنقد تلك المعجزات والخوارق، وأتى ببعضها في الكتاب، غير أن له تلميح إلى حصر العجائب إلى القرآن الكريم في الجزء الثالث من الكتاب.

وطه حسين يثبت الخوارق مرة بعد مرة، وتارة يقول في إغراء فاطمة الخثعمية لعبدالله' وبعد ما جاء إليها عبد الله حسب الموعد بعد زيارة آمنة نفرت منه فاطمة وقالت "فحدثني ماذا صنعت منذ فارقتني، فإنى لا أرى في وجهك ما كنت أراه في الضحى لهو الآن أدنى منالا... قالت عاتكة لقد ظننت أن حبكن في البادية كحبنا في الحاضرة، وما كنت أحسب أنه يتجاوز الشاب، ويرقى إلى السحاب!

قالت فاطمة : لاتهزئي، فقد ذهبت آمنة بخير ما كانت أحبّ!"[٣١٠]، وهكذا يسرد الحوادث وقت حمل آمنة وما حدث من العجائب بعد ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم.

أما العقاد فلم يرفض الخوارق التي جاء بها أصحاب السيرة لصدقها أو كذبها، ولكنه يرى أنّ الرسالة لا تحتاج إلى خوارق لتقترب من الأذهان، إنما تقترب من الأذهان بإدراك منطقي لا أهمية فيه للخوارق. واعتبر حالة العرب خاصة والعالم عامة في ذلك العصر بشارة لمبعث الرسول ﷺ

و على حد قول العقاد شخصية الرسول ﷺ وحده انجذبت الناس كلهم إليه بما أوتيت من قدرات الذاتية وصفات نسجت من أفعالها وأقوالها، وهو السبب الأهم لدخول الناس في الإسلام.

ولم يسلك العقاد منهج الكتاب في السيرة قديما ولم ينهج ما ألفه الناس فيها من البدأ بمولد الرسول ﷺ، وتنتهي بوفاته ﷺ، ولم يرد أن يروي تاريخا على نحو ما تحويه كتب التاريخ وسجله. وخلافا للكتاب الماضين إنه لم يدخل إلى بيان نسبه ﷺ، وما حدث من العجائب عقب ولادته وقبل نبوته، وهي أمور على حد قوله لا تتطلب العبقرية، ولا يطمئن إليه فكر حي، ولا عقل سليم، ولو أن تلك العجائب

[٣١٠] حسين، طه. *على هامش السيرة*. ج١ . ص ٥١و٥٢.

حدثت فعلا ليشيرنّ إليه أتباع الرسول ﷺ، حينما عارضه المعارضون، ويبيّن أن دعوة الإسلام انتظرتها البشرية، ومهّدت لها الحوادث وقام بها داع تهيّأ لها بعناية ربه وبموافقة أحواله وصفاته.

يبين طه حسين الأحداث المهمة قبل مولد الرسول ﷺ، فيشير إلى 'حفر زمزم' على يد عبد المطلب، ونذر عبد المطلب لنحر ابنه عبد الله، وزواج عبد الله بآمنة بنت وهب، ورحلة عبد الله إلى الشام، ووفاة عبد الله حينما يرجع من الشام، ودفنه بيثرب، ووفاة آمنة، وبشارة يهود يثرب عن مبعث نبي في مكة، ومجيئ أبرهة الحبشي لهدم الكعبة، كل هذه الأحداث تأتي في طيات الجزأ الأول في كتاب 'على هامش السيرة' بصورة قصصية استطرادية مطولة.

ويأتي العقاد ببعض أحداث السيرة المبسوطة عند القدماء والمتأخرين' في "عبقرية محمد" ضمن بيان شخصية الرسول ﷺ في مختلف المجال لا يعتنى فيه السلسلة الزمنية والترتيبية. والبيان عن بيت عبد المطلب وما جرى فيه من الأحداث مثل نذره بنحر العاشر من ابنه – وكان ذلك عبد الله – ومجيئ أبرهة الحبشي' اقتصر عليها العقاد في أقل من صفحة.

والعقاد اتخذ من شخصية الرسول ﷺ وأخلاقه الخالدة منفذا لتقرير رسالته ﷺ، فأخلاق الرسول ﷺ وشخصيته البارزة هي العمدة في إقامة الحجة على صدق رسالة الرسول ﷺ عند العقاد، وهي التي جعله أهلا لها، وهذا المنهج قد

تأثر به الكتّاب بعده، والإمام أبو زهرة في كتابه "خاتم النبيين" بين في صفحات كثيرة أخلاق الرسول ﷺ وشمائله في البداية خلافا للكتاب القدامى الذين جعلوا شمائل الرسول ﷺ في آخر كتبهم، فالعقاد جعل الشمائل والشخصية في مقدمة كل أفعال الرسول ﷺ، وهو يحللها تحليلا واضحا.

وقارن العقاد بين الإسلام واليهودية من جهة المعجزات، وبنو إسرائيل أبطئوا للاستجابة لدعوة الرسل حتى يروا المعجزات، وإذا انتهت المعجزة كفروا، فانطفأت نفوسهم بعد دخولها نور الإيمان، وهو يجعل من خلق محمد ﷺ معجزة تتضاءل عندها كل المعجزات والخوارق.

واستعرض العقاد عبقرية محمد ﷺ، في مجالات شتى وجوانب مختلفة، مستهلا بعرض مقدمات مولد الرسول ﷺ، يعرض هذه المقدمات من خلال البيئة والأحداث المتعلقة بالحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية، ومبينا فساد العبادات المتمثلة بالأصنام وإرضائها، والاعتقاد بالعرافين، ومن خلال فساد المجتمع أخلاقيا بين الجوانب الاجتماعية، يدخل إلى الجانب الاقتصادي.

وبدلا من بيان حالة العرب قبل الإسلام التجأ العقاد إلى بيان أن مجيئ الرسول ﷺ في هذا العصر معجزة " فلا حاجة بها إلى خارقة يكرهها العقل أو إلى علة

عوجاء يلتوي بها ذوو الأهواء، فهي أوضح شيء فهما، لمن أحب أن يفهم، وهي أقوم شيء سبيلا لمن استقام"[٣١١].

ومن طريق جديد وأسلوب مبتكر اتخذ العقاد شخصية الرسول ﷺ دليلا لا يحتاج بعده إلى دليل لإقامة الحجة على صدق نبوته.

والعقاد لا يسرد الحوادث والوقائع كما يسرد القاص، بل يمحصها ويحدجها بنظرة حادة إلى أبعادها ويناقشها، ثم يزنها بميزان عقله وثقافته حتى يصل إلى حكم يشتمل على الاقتناع بمقياس من العلم والمنطق والفطرة الصائبة والسليمة من النحيزة.

وكتاب 'على هامش السيرة' هو الأول في اللغة العربية من نوعه، الذي اتخذ من حقائق السيرة وبعض الخيال فنا جذابا، وطه حسين يشكل صورة صادقة للجزيرة العربية في الفترة بين مولد الرسول ﷺ وانتصار دعوته.

هذا يرسم طريقة فنية خاصة به، يخرج فيها من أسلوب سرد بعض وقائع سيرة الرسول ﷺ، إلى جو آخر، وهي طريقة مفاجئة، فيها انتقال مفاجئ، ولم يأت مثلها في رواياته الأخرى، فصارت منهجا مختلفا، خرج فيه عن الأسلو ب التقليدي في التعريف بسيرة الرسول ﷺ.

[٣١١] العقاد، عباس محمود. *عبقرية محمد* . ص ١٤.

اتخذ طه حسين لغة سهلة فصيحة، وهي الكلمة الشعرية، ويضاعف أثر هذه اللغة حينما يزودها بأجزاء من ألفاظ القرآن الكريم، فمثلا حينما يصف أبا جهل وقد هدأت نفسه مع صاحبيه: شيبة بن ربيعة وعلي بن أمية، ويقول"حتى ثابت إليه نفسه، وسكت عنه الغضب" وكذلك حينما يصف حال أبي جهل في أحد لقائه بورقة بن نوفل "فلما رأى الفتى منه ذلك سيئ به وضاق به ذرعا، وقال في شيئ من الحدة، : ويحك أيها الشيخ إنك لشديد الكآبة منذ اليوم"[٣١٢]

وإن كان عبقرية محمد كتاب تاريخ وكاتبه العقاد لم يغفل التاريخ تماما، ولم ينحّه إلى الجانب، وحينما صور عبقرية محمد ﷺ لم يمل إلى التاريخ المحض بالوقوف على جزئيات سيرة الرسول ﷺ وأحداثها المتعددة المتكاثرة، وإنما فعله أن يوفق بين التاريخ والفن موافقة ملائمة تفرد بها كتابه في سيرة الرسول ومن هنا صار كتاب 'عبقرية محمد' عملا شغل النقاد به منذ صدوره.

أراد العقاد أن يثبت التقدير للرسول ﷺ وأن يؤكد العظمة له، وهو يقدّر الرسول ﷺ مرتين مرة بحكم دينه الذي لا يشاركه فيه غيره، ومرة بحكم الشمائل الإنسانية التي يشترك فيها جميع الناس.

[٣١٢] حسين، طه. *على هامش السيرة*. ج٣. ص٢٩٥.

والعقاد يركز على الحدث الذي صنعته الشخصية ليصور جانب العظمة فيها، ولهذا فمعالجته للشخصية يأتي من طريق غير مباشر، وكذلك لايطلق عنانه في التاريخ العام، ولكنه يكتب أدبا معتمدا على التاريخ.

ويفترق العقاد عن خط السير المألوف، لأن طريقته تلك انتقائية، ولكنها من الناحية الأدبية لا غبار عليها، لأن العقاد قصد إلى متابعة الشخصية وبلورة أعمالها المضيئة في صور أدبي، تشير إلى العظمة والعبقرية، وهذا جزء من أدب السيرة الذي يعتني بالجانب الهام في الشخصية.

وهناك تباين بين الكتابين في الكمية والحجم وكتاب 'على هامش السيرة' كتبه طه حسين ثلاثة أجزاء ويبلغ عدد صفحاتها ما ينيف على ٤٠٠صفحة، وذلك بأسلوبه القصصي الذي يعتمد على الخيال. وكتاب 'عبقرية محمد' ﷺ للعقاد أصغر حجما وأقل صفحة من كتاب 'على هامش السيرة' إذ يحتوي على ١٤٢صفحة، وسببه يرجع إلى أن العقاد ركز على النقاط المتهمة من حياة الرسول ﷺ، وأنه اتخذ منهجا تحليليا يعتمد على العقل.

الخاتمة

يحمد الباحث مولاه عز وجل على نعمه وتوفيقه لإتمام هذا البحث الذي فاز بنتيجة قيمة بعد جهد بحثي طويل متوفر بالدراسة والتحليل والمقارنة.

و يريد الباحث أن يختتم هذا البحث بذكر خلاصة البحث وأهم النتائج التي تبينت للباحث أثناء عمله البحثي المعنون بـ"المناهج الحديثة في كتابة سيرة الرسول ﷺ " دراسة مقارنة بين 'على هامش السيرة' و'عبقرية محمد'. بعد أن بذل الباحث أقصى جهوده للوصول إلى النتائج المرجوة لهذا البحث. وبهذا الصدد قام الباحث بدراسة مقارنة في مولفات سيرة الرسول ﷺ قديما وحديثا لا سيما في كتابي 'على هامش السيرة ' و'عبقرية محمد' الكتابين المذكورين في عنوان البحث. وهذه الخاتمة تتضمن على خلاصة البحث ونتائج البحث والتوصيات.

خلاصة البحث

كلمة السيرة ظهرت لتدل على تاريخ الرسول ﷺ، ونشأت كتابة السيرة منذ القرن الأول الهجري، ومرت بأطوار متعددة ومراحل مختلفة وهي مرحلة المتقدمين ومرحلة المتأخرين ومرحلة العصر الحديث، وفي كل هذه المراحل اختلفت كتب السيرة في أسلوبها وفي تقديم أحداثها، وألفت كتب بكمية طائلة في

سيرة الرسول ﷺ، وبينت هذه الكتب مختلف الجوانب من حياة الرسول ﷺ واتخذت أسلوبا ومنهجا متباينة.

وفي المرحلة الأولى المعروفة بمرحلة المتقدمين كان التأليف في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بأسلوب سرد الوقائع التاريخيةاعتبار سنة وقوعها، والمنهج السردي كان رائد هذه المرحلة، تأتي الرواية فيه متسلسلة مترابطة بدون تحليل، واهتم الكتاب الحروب والمغازي وسموا كتبهم بمغازي الرسول ﷺ. وبينت المؤلفات في السيرة حالة العرب قبل بعثة الرسول ﷺ في حياتهم الاجتماعية والدينية، وبعض الكتاب أسهبوا في أنساب العرب وقبائلهم وجغرافية الجزيرة العربية. وظهر في هذه المرحلة أيضا المنهج التاريخي الذي يهتم بذكر أحداث السيرة ترتيبا زمنيا حسب وقوعها، وكان الكتاب في هذه المرحلة على ثلاث طبقات الطبقة الأولى وفي مقدمتها أبان بن عثمان وعروة بن الزبير، وفي الطبقة الثانية محمد بن مسلم بن شهاب الزهري وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن محمد حزم، وفي الطبقة الثالثة موسى بن عقبة ومعمر بن راشد، ومن أهم الكتب في هذه المرحلة 'السيرة والمبتدأ والمغازي' لابن إسحاق وكتاب المغازي لموسى ابن عقبة و'السيرة النبوية' لابن هشام.

والمرحلة الثانية تعرف بمرحلة المتأخرين، وفي هذه المرحلة أظهرت السيرة ميلا إلى المنهج التحليلي، وهو عرض نصوص السيرة بتفصيل الفوائد والأحكام

المتعلقة بها، ويعتمد على تفسير الأحداث وتعليلها، وقدم ابن قيم الجوزية في هذه المرحلة نموذخا جديدا، وأن السيرة التي ألفها ابن القيم ليست هي السيرة التقليدية التي تهتم بذكر الحوادث حسب السنين، بل يريد أن يضيف إليه السنة النبوية التطبيقية التي تهتم بذكر شمائله وأخلاقه ﷺ. وفي هذه المرحلة أيضا ظهرت المنهج الموضوعي وهو جمع المعلومات والأحدث المتصلة بالسيرة، كما فعل القاضي عياض في الشفاء وعيسى الترمذي في 'الشمائل المحمدية'.

إن المتأخرين من العلماء المسلمين ومؤرخيهم لم يتركوا طريقة الكتابة التقليدية ولم يرضوا فيه مجرد التقليد، حرصا أن تكون أعمالهم سهل التداول جم الفوائد، كما هو موجود في الجيل اللاحق. وصار هذا المنهج زادا لعمالقة كتاب السيرة في العصر الحديث الذين أفردوا كل أحداث السيرة في كتاب على حدة، مثل الغزوات، والأخلاق، والتربية، وأهل بيته ﷺ. وكان القدامى التزموا الترتيب الزمني في أحداث السيرة، فتناولوا الأحداث متجزأة عن وحدتها الموضوعية، أما المتأخرون توخوا التحديث في تناول مادة السيرة.

وفي العصر الحديث عالج المؤلفون كتاب سيرة الرسول ﷺ بكل محبة وحفاوة، وبعضهم بسعة أفقه، وبعد غوره، أضافوا الجديد إلى ما كتبه السابقون. وفي هذه المرحلة تنوعت المناهج مثل المنهج العلمي أو المنهج الغربي والمنهج

المتخصص، ومنهج التصحيح والتنقيح، وألفت كتب كثيرة في هذه المناهج، وبعض الكتاب احتفظوا المنهج القديم ولم يهجروا الحديث منها.

اعتنى المؤلفون في كتابة سيرة الرسول ﷺ في العصر الحديث على أمرين.

الأول: تحقيق رواية سيرة الرسول ﷺ وفق منهج نقدي يعتمد على الموثوق، ويترك المشكوك، وقد توالت المؤلفات وتعددت المصنفات في هذا المجال، وذلك معتمدا على منهج مقارن بالمصنفات القديمة، ودراسة لمرويات كل واقعة واحدة تلو أخرى، فصار التأليف باعتماد الروايات الموثوقة في المصادر المتعددة.

الثاني: الاعتناء بالمنهج العلمي، والاعتماد على التحليل، فاعتنى المؤلفون باشارة إلى الدروس والفوائد والعبر، فاجتازت السيرة من مرحلة نصوص تحفظ أو قصصا ترتل، إلى مرحلة التطبيق بهدي الرسول ﷺ في الحياة اليومية. ويعتمد هذا على إيراد العظة والعبر بعد ذكر الأحداث، وعبّر عنه بفقه السيرة، وهذا التحليل أمر زائد على مجرد الشرح والبيان للألفاظ أو الترجيح للحوادث ونحو ذلك .

وفي العصر الحديث صارت دوافع المحدثين من كتاب سيرة الرسول ﷺ، الردود على المستشرقين ومقاومة الاستعمار الأجنبي، والدعوة إلى الوحدة القومية.

وقد ساعدت عدة أسباب وعوامل لتحويل كتابة سيرة الرسول ﷺ إلى المنهج الجديد، مثل ازدياد الحركة التبشيرية، ودخول بعض الكتابات الأجنبية عن

الإسلام إلى البلاد العربية، وكتابات المتعصبين للغرب وطنيا وجنسيا، وكتابات طائفة يشوه كتابتها الغرض كلما تحدثت عن الإسلام بالضبط، وفقدان الكتابات الإسلامية المقنعة بعدم المفكرين الأفذاذ، وانصراف الأدباء والمفكرين إلى الكتابة السياسية والأدبية، وإستقلال مصر عن التركيا وبريطانيا، صار تشجيعا لأصحاب الآراء المعتدلة، مثل طه حسين والعقاد والهيكل وأحمد أمين، ورغبة الكتاب والأدباء في إيجاد وسيلة لربط حاضر الأمة بماضيها، وذلك أن الكتاب فكروا في ذلك واتجهوا إلى الفرعونية راجين الامتداد إلى الحاضر، فلما فشلوا في ذلك اقتنعوا بأن الإسلام هو الأفضل من ناحية الامتداد إلى الحاضر. ويضاف إلى هذه سبب وراثي وتأثير بيئة النشأة، وهو سبب شخصي أيضا، ومعظم الكتاب كانوا ممن حفظوا القرآن في طفولتهم.

فظهرت كتب كثيرة في السيرة في منهج سردي وموضوعي وتحليلي بجانب المنهج العلمي. وهذه الكتب لم تؤلف في البلاد العربية فقط بل ساهم فيهابلد غير عربي مثل الهند، ولعب كتاب النصارى دورهم في السيرة. وظهرت حركة التنقيح في كتب السيرة، كما ألف أكرم الضياء العمري كتابه 'صحيح السيرة'. وكتاب 'السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة' لمحمد فريد وجدي من الكتب التي يمثل المنهج العلمي.

وكانت لمصر الريادة في المؤلفات، إذ نشط هناك الأدب الإبداعي بشكل عام، وكتاب 'حياة محمد' لمحمد حسين هيكل، ومسرحية 'محمد' لتوفيق الحكيم يمثلان منهجان في هذه المرحلة. ومحمد حسين هيكل اعتمد على المنهج العلمي وصرح هيكل منهجه في مقدمة الكتاب بأنه لم يأخذ ما سجّلته كتب السيرة وأجرى بحثه على الطريقة العلمية. ومسرحية توفيق الحكيم محاولة لتقديم أحداث السيرة في شكل حوار مسرحي، وعرض شخصية الرسول ﷺ عمل عسير، وهذا عد من قصور هذه المحاولة.

وكتاب 'على هامش السيرة' لطه حسين، و'عبقرية محمد' لعباس محمد العقاد ألفا في منهج جديد إذ اتبع طه حسين المنهج القصصي اتبع العقاد المنهج العلمي التحليلي، وكلاهما ابتعدا عن المنهج التاريخي، غير أنهما اعتمدا على كتب السيرة القديمة.

وقصد طه حسين بتأليف الكتاب أن يحبب إلى الجيل الحديث تراث القديم، وأن ينبئ العالم بأن في اللغة العربية كتب صالحة للقرائة، وأراد أيضا أن يزيل عنه التهمة إثر نشر كتابه ' في الشعر الجاهلي'. وانعكس في كتابة تاريخ الإسلام عنده ثقافة مختلطة حصل عليها من الصبا من بيئة البيت والكتاب، وثقافة نالها من قراءة كتب المفكرين الأجانب.

ألف العقاد لرد التهمة على شخصية الرسول ﷺ، وتثبيت شخصيته. وكثرة تطاول الناس على العظماء أيضا مما أدى إلى تأليفه.

وطه حسين والعقاد لم يحكيا أحداث السيرة من ولادة الرسول ﷺ إلى الوفاة بتسلسل زمني كماصنع القدماء، بل أتيا بها في طيات الكتب، وهي عند طه حسين أكثر من العقاد، حيث أسهب طه حسين بعض الأحداث في صفحات في شكل قصصي.

ووصف طه حسين التاريخ والأحداث قبل مولد الرسول ﷺ وقبل مبعثه بصورة قصصية مغايرة من المنهج القديم وهي في الجزأ الأول والثاني من الكتاب. ولم يذكر العقاد من تلك الأحداث إلا نقطتين وذلك في نصف صفحة فقط.

ولم يقف طه حسين وقفة الشك والتصحيح نحو العجائب والمعجزات، بل اتخذ موقف القاص الراوي، والعقاد لم يترك ولم ينكر المعجزات ولكنه ذهب إلى أنّ شخصية الرسول ﷺ والقرآن لا تحتاج إلى عجائب وخوارق أخرى. وهو ينكر الخواريق التي ذكرت في كتب السيرة قبل مولده ﷺ وقبل مبعثه، ويبرر إنكاره.

والكاتبان بشيران إلى المراجع أو يقتبس من كتب السيرة في بعض الأماكن وهو عند طه حسين أكثر، ويوردان الآيات القرآنية والأحاديث والعقاد يكثر فيها .

وأسلوب الكتاب ومنهجه في تقديم مادة السيرة أثارت ضجة حول هذين الكتابين من تلقاء العلماء المسلمين ومفكريهم.

النتائج

أهم النتائج التي وصل إليها البحث ما يلى

السيرة كلمة استعملت على تاريخ الرسول ﷺ، جمعت السيرة ودوّنت في نهاية القرن الأول الهجري،ونشطت كتابة السيرة في القرن الثاني الهجري، اشتهر كتاب' سيرة ابن إسحاق' في هذه المرحلة، وهذه المرحلة عرفت بمرحلة المتقدين،واستخدم الكتاب في هذه المرحلة المنهج السردي التاريخي.

وتأتي بعد مرحلة المتقدمين مرحلة المتأخرين وساد في هذه المرحلة المنهج التحليلي مع مراعات المنهج التاريخي التسلسلي. ووجد المنهج الموضوعي في هذه المرحلة مكانه.

وقد تعددت كتب السيرة في العصر الحديث، وساهم العالم الإسلامي جمعاء في كتابة السيرة بكمية كبيرة. وتشعبت المناهج المتنوعة على غرار المنهج العلمي وتشكلت مدارس كثيرة في كتابة السيرة

نالت مصر في العصر الحديث مكانة مذكورة في كتابة السيرة، ألفت كتب كثيرة وظهرت مناهج متنوعة فيها، وظهر المنهج العلمي مشفوعا بالمنهج التحليلي والمنهج السردي التارخي في كتابة السيرة.

كتاب 'على هامش السيرة' لطه حسين وكتاب 'عبقرية محمد' لعباس محمود العقاد يمثل منهجا جديدا في كتابة السيرة في مصر، يختلف الكتابان في تقديم أحداث السيرة عن كتب الأوائل، اعتمد طه حسين على المنهج الأدبي القصصي، واعتمد عباس محمود العقاد على المنهج العلمي التحليلي. ولم يهتم الكاتبان بالتسلسل التاريخي في تقديم الأحداث ولم يستوفيا جميع الأحداث، بل اختارا أحداثا لتكميل مقصد هما من الكتابة.

التوصيات

في العصر الحديث ألفت كتب كثيرة في السيرة، وهذه الكتب استخدمت مختلف المناهج والأسلوب، وتستحق هذه الكتب كلها دراسة مستقلة حول منهجها وعرض موضوعها. وعلى سبيل المثال من هذه الكتب 'صور من حياة الرسول' لأمين دويدار. و'محمد رسول الله والذين معه لعبد الله جودة السحار و' محمد' مسرحية لتوفيق الحكيم. ومثل هذه الكتب لا تزال تكتب وتقدم أسلوبا جديدا وتفتح أمام الباحثين أبوابا.

المصادروالمراجع

المصادر

القرآن الكريم.

١. ابن هشام أبو محمد عبد الله.*السيرة النبوية*. دار الفجر للتراث.٢٠١٣.

٢. حسين،طه.*الأيام*. ط١. دار المعارف. ٢٠٠٨.

٣. حسين، طه. *على هامش السيرة*. ٣ أجزاء. دار المعارف. ٢٠١٨.

٤. العقاد،عباس محمود.*أنا*. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. ٢٠١٢.

٥. العقاد،عباس محمود.*عبقرية محمد*. مكتبة الفنون والآداب.د. ت.

المراجع

١. الإبراشي، محمد عطيّة.*عظمة الرسول* ﷺ.ط٢. مصر: دار القلم. ١٩٦٦.

٢. ابن قيّم الجوزية. *زاد المعاد في هدي خير العباد*.ط١. دار الرسالة.١٣٣٩.

٣. ابن قيم الجوزية. *فقه السيرة*. القاهرة: المكتبة التوفيقية. د.ت.

٤. ابن النديم. *الفهرست*. بيروت:دار النشر الطباعة والنشر.د.ت.

٥. ابن تيمية. *الصارم المسلول في الردّ على شاتم الرسول*. القاهرة: دار ابن الجوزي.د.ت.

٦. ابن تيمية.*الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح*. ج ٥. مطابع المجد. د. ت.

٧. ابن حجر العسقلاني.*تهذيب التهذيب*. دار المعارف. ١٣٢٧.

٨. ابن خلكان. *وفيات الأعيان*.ج٤. بيروت: دار صادر.١٩٧٢.

٩. ابن سعد. *طبقات*.ط٣.ج٥. القاهرة: مكتبة ابن تيمية .١٤٠٧.

١٠. ابن قتيبة. *الشعر والشعراء*.ط٢. القاهرة:دار المعارف. ١٩٥٨.

١١. ابن كثير. *تفسير القرآن العظيم*. ط١. الشارقة:دار الفتح. ١٩٩٦.

١٢. ابن كثير.*البداية والنهاية*.ط٤. ج٨. بيروت:دار الكتب العلمية. ١٩٨٨.

١٣. ابن كثير. *صحيح معجزات النبي ﷺ*. جمع وترتيب طه عبد الرءوف سعد. مكتبة الصفا.٢٠٠٥ .

١٤. أبو زهرة . *خاتم النبيين*. القاهرة:دار الفكر العربي. ٢٠٠٨.

١٥. الألباني، محمد ناصر الدين. *صحيح السيرة النبوية*. عمان: المكتبة الإسلامية، ١٤٢١.

١٦. أمين،أحمد. *فجر الإسلام*.القاهرة: المكتبة التوفيقية.د.ت.

١٧. أمين،أحمد.*ضحى الإسلام*.القاهرة:المكتبة التوفيقية. د.ت.

١٨. بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن.*أم الرسول محمد آمنة بنت وهب*.كتاب الهلال. مايو ١٩٥٣.

١٩. البوطي، محمد سعيد رمضان. *فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة*. ط١. بيروت: دار الفكر. ١٩٩١.

٢٠. البيومي، محمد رجب. *السيرة النبوية عند الرواد المناقشين. مناقشات وردود*، مكتبة المهتدين الإسلامية. د.ت.

٢١. البيومي، محمد رجب . *بين الأدب والنقد*. مصر:دار المصرية اللبنانية. ١٩٩٧.

٢٢. البيومي، محمد رجب.*بين الأدب والنقد*. ط١.القاهرة:الدار المصرية اللبنانية.١٩٩٧.

٢٣. البيومي، محمد رجب.*محمد فريد وجدي الكاتب الإسلامي والمفكر الموسوعي*. ط١.دمشق:دار القلم. ٢٠٠٣.

٢٤. الترمذيّ، الإمام محمد بن عيسى بن سورة. *الشمائل المحمدية*. ط١. دولة قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. ٢٠١٩.

٢٥. التلاوي أحمد، محمد نجيب . *طه حسين والفن القصصي*. ط١. دارالهداية للطباعة والنشر والتوزيع.١٩٨٦.

٢٦. التنوسي، خليفة .*العقاد دراسة وتحية*. مكتبة الأنجلو المصرية. ١٩٦١.

٢٧. التنوسي، محمد خليفة. *العقاد دراسة وتحية*. مكتبة الأنجلو. د.ت.

٢٨. التوبة، غازي. *الفكر الإسلامي المعاصر. دراسة وتقويم*. ط٢. بيروت: دار القلم. ١٩٧٧.

٢٩. التوحيدي، أبو الحيان .*الإمتاع والمؤانسة*. دار الكتب العربي. ٢٠٠٤.

٣٠. جدعان، فهمي. *أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث*.ط٤.الشبكة العربية للأبحاث. ٢٠١٤.

٣١. جمعة، محمد لطفي. *ثورة الإسلام وبطل الأنبياء*. عالم الكتب. ٢٠٠٢.

٣٢. الجمني، عمر مقداد . *طه حسين مؤرخا*. ط٢. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ٢٠١٣.

٣٣. الجندي، أنور. *المعركة الأدبية*. ط١. مكتبة الآداب. ٢٠٠٨.

٣٤. الجندي، أنور. *طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام*. ط٢. دار النصر للطباعة الإسلامية. ١٩٧٧.

٣٥. الحامدي، الدكتور محمد الهاشمي. *السيرة النبوية للقرية العالمية*. ط٢. جدة: دار المنهاج للنشر والتوزيع. ٢٠٠٨.

٣٦. الحسني، هاشم معروف. *سيرة المصطفى نظرة جديدة*: ط١. بيروت: دار القلم.د.ت.

٣٧. حسين، طه. *من لغو الصيف*. مؤسسة هنداوي. د. ت.

٣٨. حسين، محمد الخضر. *محمد رسول الله وخاتم النبيين*. سوريا: دار النوادر. ٢٠١٠.

٣٩. حسين، محمد بن سعد. *الأدب الحديث تاريخ ودراسة*. ط٥. الرياض: الرياش:محمد بن سعد. ١٩٩٠.

٤٠. الحضري، محمد حامد. *السيرة النبوية في الأدب العربي الحديث*. جامعة القاهرة. د..ت.

٤١. حفني، عبد الحليم . *محمد رسول الله ﷺ* القدوة العظمى. د.ت.

٤٢. الحكيم، توفيق. *محمد* . مكتبة مصر. د.ت.

٤٣. الحكيم،توفيق . *تحت شمس الفكر*. القاهرة: مكتبة الآداب. د. ت.

٤٤. حوى، سعيد . *الرسول ﷺ*.مكتبة النور على الشبكة. ٢٠٠٦.

٤٥. خالد محمد خالد. *معا على الطريق... محمد والمسيح*. القاهرة: المقطم للنشر والتوزيع. ١٩٨٤.

٤٦. الخضري بك،الشيخ محمد. *نور اليقين في سيرة سيد المرسلين*. بيروت:دار الكتب العلمية. د. ت.

٤٧. الخطيب البغدادي. *الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع*، تحقيقد. محمود الطحان،الرياض: مكتبة المعارف. ١٩٨٣.

٤٨. الخطيب البغدادي.*تاريخ بغداد*. دار الكتب العلمية. ٢٠١١.

٤٩. خور رشيد،فاروق . وأحمد كمال زكي . *محمد في الأدب العربي*. بيروت: منشورات اقرأ. د.ت.

٥٠. دحلان، أحمد بن زيني. *السيرة النبوية*. دار الفكر للطباعة والتوزيع. د.ت.

٥١. دروزة، محمد عزّة .*سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية*. ط١. القاهرة:مطبعةالاستقامة. ١٩٤٨.

٥٢. دويدار،أمين . *صور من حياة الرسول*. القاهرة:دار المعارف. ١٩٨٧.

٥٣. الذهبي، الإمام الحافظ. *السيرة النبوية من كتاب تاريخ الإسلام*. بيروت: دار ابن حزم. ٢٠١٠.

٥٤. الذهبي،الإمام الحافظ. *سير أعلام النبلاء*. ج٥. بيروت: مؤسسة الرسالة. ١٩٨٢.

٥٥. الرافعي، مصطفى صادق. *إعجاز القرآن والبلاغة النبوية*. دار الكتب العربي.١٩٧٣ .

٥٦. الرافعي،مصطفى صادق. *وحي القلم*. ج٣. مؤسسة هنداوي. ٢٠١٧.

٥٧. الرصافي،معروف. *كتاب الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس*. منشورات الجمل. ٢٠٠٢.

٥٨. رضا، رشيد. *الوحي المحدي*. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية. ٢٠٠٥.

٥٩. رضا، محمد. *محمد رسول الله ﷺ*. بيروت: دار الفكر. ٢٠١٥.

٦٠. الرياشي،لبيب. *نفسية الرسول العربي محمد بن عبد الله السوبر من الأول العالمي*. ط٤. بيروت: دار ريحاني للطباعة والنشر. د.ت.

٦١. الزحيلي، محمد. *الإمام الطبري شيخ المفسرين ، وعمدة المؤرخين ومقدم الفقهاء المحدثين*. ط٢. دمشق: دار القلم .١٩٩٩.

٦٢. الزحيلي، محمد. *ابن كثير الدمشقي*. ط١. دمشق:دارالقلم . ١٩٩٥.

٦٣. السباعي، مصطفي.*السيرة النبويّة دروس وعبر*. القاهرة:مكتبة الفنون والآداب. ٢٠١٤.

٦٤. السحار جودة،عبد الحميد. *محمد رسول الله والذين معه*،. د. ت.

٦٥. السداني،علي خالد. *منهج العقاد في دراسات الشخصيات الإسلامية*. ط١. المكتبة العصرية. ١٩٨٩.

٦٦. السكوت، حندي. *أعلام الأدب العربي المعاصر في مصر*. دراسة العربية بالجامعة الأمريكية. القاهرة: دار الكتاب المصري. د.ت

٦٧. سلهب، نصري. *في خطى محمد*. دار المحجة البيضاء للطباعة. ٢٠١٠

٦٨. سوزان، طه حسين. *معك*. ط٢. القاهرة:دار المعارف . ١٩٨٢.

٦٩. الشامي،صالح أحمد .*الإمام ابن قيم الجوزية. الداعية المصلح والعالم الموسوعي*. دمشق:دار القلم. ٢٠٠٨.

٧٠. الشرقاوي،عبد الرحمن . *محمد رسول الحرية*. ط١. القاهرة: دار الشروق. ١٩٩٠.

٧١. الشلق،أحمد زكريا . *طه حسين جدل الفكر والسياسة*. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة . . ٢٠٠٨.

٧٢. الشمري،حمد بن نايف .*العقاد وتراثه الإسلامي*. القاهرة: مطبعة التقدم. د.ت.

٧٣. الشنطي، محمد صالح .*الأدب العربي الحديث*. حائل: دارالأندلس للنشر والتوزيع. ٢٠٠١ .

٧٤. الشيخاني، محمد.*هل محمد ﷺ عبقري مصلح أم رسو مرسل*. ط٢ بيروت: دار قتيبة للطباعة والنشر. ١٩٩٥.

٧٥. الصلابي، علي محمد. *غزوات الرسول ﷺ دروس وعبر*. القاهر: مؤسسة اقرأ. ٢٠١٤.

٧٦. الصلابي، علي محمد . *السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث*. مكتبة الفنون والآداب. مؤسسة اقرأ.٢٠١٣.

٧٧. الصوياني، محمد. *السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة*.ط٥. الرياض:مكتبة العبيكان.١٤٣٤ .

٧٨. الصوياني، محمد.*الصحيح من أحاديث السيرة النبوية*. ط١. الرياض: مدار الوطن للنشر٢٠١١.

٧٩. ضيف،شوقي .*الأدب العربي المعاصر في مصر*. ط١٠. مصر: دار المعارف. د.ت.

٨٠. ضيف،شوقي . *مع العقاد*. مصر:دار المعارف. ١٩٦٤.

٨١. ضيف،شوقي.*الترجمة الشخصية*. ط٤. مصر: دار المعارف. ١٩٥٦ .

٨٢. الطبري، ابن جرير.*تاريخ الطبري*.محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: دار سويدان. د.ت.

٨٣. طهاز، عبد الحميد. *السيرة النبوية من القرآن الكريم والسنة الصحية*. ط٢. دمشق: دار القلم. ٢٠١٤.

٨٤. عباس،إحسان .*فن السيرة*. ط١. عمان: دار الشرق. ١٩٩٦.

٨٥. عبد الدائم،يحيى ابراهيم.*الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث*. بيروت: دار النهضة العربية. ١٩٨٢.

٨٦. عبد القادر، سالمة محمود محمد. *منهجية ابن خلدون في تدوين السيرة النبوية وتفسيرها*. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية. ٢٠١٠

٨٧. عبد اللطيف، عبد الشافي. *السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي*. دار السلام. د.ت.

٨٨. عبد المطلب،رفعت فوزي . *عبقريات العقاد دراسة وتحليل*. الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.

٨٩. عبده،سمير. *العلاقة المتبادلة بين العبقرية والجنون*. ط١. بيروت: دار الآفاق الجديدة. ١٩٨٣.

٩٠. العربي، علي.*أضواء على كتب السيرة النبوية*. الدار التونسية. ١٩٩١.

٩١. العشماوي، محمد. *النقد المسرحي*. ط١. دار الكتب الجامعية. ١٩٦٨.

٩٢. العقاد،عباس محمود. *الإسلام في القرن العشرين*. دار الكتب الحديثة. د.ت.

٩٣. العقاد،عباس محمود.*ساعات بين الكتب*. ط١.بيروت:دار الكتب اللبناني. ١٩٨٤.

٩٤. العقاد،عباس محمود. *فاطمة الزهراء والفاطميون*. ط٥. الإدارة العامة للنشر. ٢٠٠٦.

٩٥. العقاد،عباس محمود. *ما يقال عن الإسلام*.وكالة الصحافة العربية. ٢٠١٨.

٩٦. العقاد،عباس محمود. *يسألونك*،ط١. دار اليقين للنشر والتوزيع.٢٠١٦.

٩٧. العمري،أكرم ضياء.*السيرة النبوية الصحيحة*. ط٦.المدينة المنورة:مكتبة العلوم والحكم. ١٩٩٤.

٩٨. العوشن، محمد بن عبد الله. *ماشاع ولم يثبت في السيرة النبوية*. الرياض:دار الطيبة. د.. ت.

٩٩. الغزالي، محمد .*فقه السيرة*. ط٣. دمشق: ٢٠١٨.

١٠٠. فهمي، ماهر حسن. *السيرة تاريخ وفن*. بيروت: دار الفكر.١٩٦٥.

١٠١. قطب،سيد .*كتب وشخصيات*.ط٣. القاهرة:دار الشروق. ١٩٨٣.

١٠٢. قطب، سيد. النقد الأدبي، *أصوله ومناهجه*. ط٨. القاهرة:دار الشروق. ٢٠٠٣.

١٠٣. قطب، محمد علي.*علوم الحديث*.ط٢. بيروت: دار الإرشاد.١٩٦٧.

١٠٤. قميحة، جابر.*منهج العقاد في التراجم الأدبية*.القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. ١٩٨٨.

١٠٥. القنوجي، محمد صديق خان بن حسن بن علي .*أبجد العلوم*، ج ٣. ط١، ،دار ابن حزم.٢٠٠٢.

١٠٦. الكريم، سامح. *ماذا يبقى من العقاد*. القاهرة: مكتبة الاسرة. ٢٠٠١.

١٠٧. الكريم، سامح. *إسلاميات*. مكتبة الأسرة برعاية السيدة سوزان مبارك. د.ت.

١٠٨. المباركفوري، صفي الرحمن. *الرحيق المختوم*،ط. القاهرة:مكتبة المورد. ٢٠٠٦.

١٠٩. المباركفوري، صفي الرحمن. *روضة الانوار في سيرة النبي المختار*. ط٥. الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد. ١٤٢٩.

١١٠. محمد بن عبد الوهاب. *مختصر سيرة الرسول صل الله عليه وسلم*، المنصورة: مكتبة ابن عباس. ٢٠٠٩.

١١١. محمد هارون، عبد السلام. *تهذيب سيرة ابن هشام*.ط١. دار الكتب العلمية. ٢٠١٨.

١١٢. المصري، إبراهيم . *أعلام في الأدب الإنساني*. مكتبة الأنجولو المصرية.١٩٧٠.

١١٣. المنجّد، صلاح الدين. *معجم ما ألّف عن رسول الله ﷺ*. ط١. بيروت:دار الكتاب الجديد. ١٩٨٢ .

١١٤. مندور، محمد. *مسرح توفيق الحكيم*. ط٢. مصر:دار النهضة . مؤسسة هنداوي. ٢٠١٧.

١١٥. مهدي ، رزق الله أحمد. *السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية*. مكتبة الرشد. د.ت.

١١٦. الندوي، أبو الحسن علي . *السيرة النبوية*. ط١. القاهرة: مكتبة الفنون والآداب. ٢٠١٤.

١١٧. الندوي، أبو الحسن علي.*رجال الفكر والدعوة*.ط٣.دار ابن كثير. ٢٠٠٧.

١١٨. النقاش،رجاء .*عباس العقاد بين اليمين واليسار*.دار المعارف. ط١. ٢٠٠٨.

١١٩. النقاش،رجاء. *أدباء معاصرون*،الجمهورية العراقية. وزارة الإعلام. مديرية الثقافة العامة. ١٩٧٢.

١٢٠. هيكل، أحمد. *التطور الأدب الحديث في مصرمن أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية*. ط١.القاهرة: دار المعارف. ١٩٩٤.

١٢١. هيكل، محمد حسين.*حياة محمد*. ط١٤. القاهرة:مكتبة الفنون و الآداب، ٢٠١٥ .

١٢٢. وجدي، محمد فريد. *السيرة المحمدية في ضوء العلم والفلسفة*. الدار المصرية اللبنانية. ١٩٩٣.

١٢٣. يماني، الدكتور محمد عبده. *علموا أولادكم محبة رسول الله*. ط٢، جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية. ١٩٧٨.

المعاجم العربية

١. ابن منظور. *لسان العرب*. ج٤. بيروت:دار الصادر. ١٩٦٨.

٢. الحموي،ياقوت. *معجم الأدباء*. ج١٨. دار الصادر. ١٩٧٩.

٣. الفيروزآبادي. *القاموس المحيط*.مؤسسة الرسالة.٢٠٠٥.

٤. مجمع اللغة العربية.*المعجم الوسيط*.طهران:المكتبة العلمية. د.ت.

٥. مجموعة من العلماء.*موسوعة العربية العالمية*.ط٢.مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع. ١٩٩٩.

المجلة العربية

١. مجلة البعث الإسلامي.لكهنو: دار العلوم. العدد ٨. والمجلد ٥٨. مارس ٢٠١٣ .

شبكة الإنترنت

1. 1. https://www. alanba. com. kw/kottab/saleh-alshaiji/230706/30-09-2011.

(Abstract of the research)

MODERN NARRATIVE APPROACHES IN THE PROPHET'S BIOGRAPHY: A COMPARATIVE STUDY ON 'ALA HAMISHI ALSIRA' AND 'ABQARIYATH MUHAMMED'

Research Scholar : Anvar Koyamburavan
Research Supervisor : Dr. Sainuddeen. P.T
Name of the Research Centre: Research Department of Arabic,
Thunchan Memorial Government College, Tirur, Malappuram (DT)
University: Calicut

"Sira" is the Arabic term used for a different biography of the life of the Prophet Muhammed, from which most historical information about his life and the early period of Islam has been derived.

This study includes five chapters, introduction, conclusion, and results. The writing of the prophet's biography passed through by many stages. the biography written by Ibn Ishaq is the oldest book in the biography. In the Middle Age the Sira begun to be produced on a large scale. This led to the introduction of a new genre of literature: the dictionary of biography. Modern Arabic literature witnessed a tangible development in the biography literature, and most of the pioneers of Arabic literature wrote about the prophet, and Egypt contributed an ample amount to writing in the biography in this period and used a variety of approaches in their writings.

The book 'Ala Hamishi al - Sira' by Taha Hussein is an attempt to reveal a specific aspect in the life of the prophet, it is in three parts, the first part published in 1933 in the form of a short novel, In an enjoyable style. and the writer moved away from the conservative way of writing the biography, and used the literary approach. The book 'Abqariyyath Muhammad' by Abbas Mahmoud Al-Akkad published in 1942, it presents and analyzes certain aspects of the life of the prophet. Akkad used analytical method.

'Ala Hamishi al-Sira' and 'Abqariyath Muhammed' accord on many points and differ on others. Taha Hussein intended to let the world know that there is something to read in Arabic language and literature, Akkad wanted to remove the derogatory statements on the personality of the Prophet.

Two books were subjected to harsh criticism by Muslim scholars in presenting the events of the biography. Despite the persistence of criticism and the differences in approaches, both books book 'Ala Hamishi al-Sira' and 'Abqariyath Muhammed' met warm welcome from readers .

CERTIFICATE

This is to certify that the thesis entitled MODERN NARRATIVE APPROACHES IN THE PROPHET'S BIOGRAPHY: A COMPARATIVE STUDY ON 'ALA HAMISHI AL- SIRA' AND ABQARIYATH MUHAMMED Submitted for the award of the Degree of Doctor of Philosophy in Arabic language and literature. The thesis is a genuine work carried out by ANVAR KOYAMBURAVAN, under my guidance and Supervision and the thesis has not been submitted for any other Degree of this University or any other university.

6/3/2023

Dr. Sainuddeen P.T
(Research Supervisor)
Associate Professor
Department of Arabic
University of Calicut

CERTIFICATE

Certified that this is the revised copy of the thesis titled MODERN NARRATIVE APPROACHES IN THE PROPHET'S BIOGRAPHY: A COMPARATIVE STUDY ON 'ALA HAMISHI ALSIRA' AND 'ABQARIYATH MUHAMMED' submitted by Mr. Anvar Koyamburavan to the University of Calicut, under my supervision and guidance. Further certified that the corrections/ suggestions made by the adjudicators have been incorporated in the revised copy of the thesis and the contents in the thesis and the soft copy are one and the same.

Signature of the Guide

Dr.SAINUDDEEN P.T
Associate Professor
Department of Arabic
University of Calicut
Kerala, Pin: 673635
UID No. 5107

Tirur

05/09/2023

DECLARATION

I hereby declare that this thesis entitled MODERN NARRATIVE APPROACHES IN THE PROPHET'S BIOGRAPHY: A COMPARATIVE STUDY ON 'ALA HAMISHI AL-SIRA' AND 'ABQARIYATH MUHAMMED' has been written by me under the supervision of Dr. Sainuddeen.P.T, Associate Professor, Department of Arabic, University of Calicut, in fulfillment of the requirement for the award of the Degree of Doctor of Philosophy in Arabic language and literature. I also declare that this thesis is the result of my own effort and this has not been presented for the award of any other Degree/ Diploma in this university or any other Universities.

6/3/2022

ANVAR KOYAMBURAVAN
Research Scholar

Tirur

MODERN NARRATIVE APPROACHES IN THE PROPHET'S BIOGRAPHY: A COMPARATIVE STUDY ON 'ALA HAMISHI AL - SIRA' AND 'ABQARIYATH MUHAMMED'

(Revised Copy)

Thesis submitted to the University of Calicut
In partial fulfillment of requirements for the award of the
DEGREE OF DOCTOR OF PHILOSOPHY
IN ARABIC LANGUAGE AND LITERATURE

By

ANVAR KOYAMBURAVAN

Under the supervision of

DR. SAINUDDEEN. P.T
Associate Professor
Department of Arabic
University of Calicut

Department of Arabic, TM Govt. College, Tirur
UNIVERSITY OF CALICUT

2023